المكتبة التاريخية

الإمبراطورية الرومانية
بين الدين والبربرية
مع دراسة فى «مدينة الله»

تأليف

الدكتور إسحق عبيد

مدرس العصور الوسطى

بكلية الآداب جامعة عين شمس

تقديم

الأب الدكتور جورج شحاتة قنواتى

الطبعة الأولى

١٩٧٢



دار المعارف بمصر

الإمبراطورية الرومانية

بين الدين والبربرية

مع دراسة في «مدينة الله»

الدكتور إسحق عبيد
مدرس العصور الوسطى
بكلية الآداب جامعة عين شمس

تقديم

الأب الدكتور جورج شحاتة قنواتي



دار المعارف بمصر

الناشر دار المعارف بمصر – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج. م. ع.

تقديم

للأب الدكتور جورج شحاتة قنواتى

إنّ الذى يلقى نظرة فاحصة على تاريخ الدول متتبعاً نشأتها وتطورها واضمحلالها لا يسعه إلا أن يقف مذهولا إزاء عظمة الإمبراطورية الرومانية Imperium Romanum الواسعة الأرجاء الممتدة من جزيرة العرب إلى المحيط الأطلسى . هذه الإمبراطورية التى استطاعت أن تحقّق فى العالم المتحضّر بأجمعه « السلام الرومانى » Pax Romana .

لقد فقدنا حقًّا فى عصورنا الحديثة معنى السلام الدائم الذى يسود منطقة بأكملها لمدّة ثلاثة أو أربعة أجيال . فمنذ القرون الوسطى لا تزال الدول تتطاحن وتتشبّك بحروب ضاربة تتخللها فترات قصيرة من السلام . أما « السلام الرومانى » فقد شمل جميع البلاد المتاخمة للبحر الأبيض المتوسط Mare nostrum وأتاح للعالم المتحضّر أن يعيش لمدة قرن أو قرنين حياة هادئة لا يزعجها صليل السلاح أو تهديدات الحروب . وهذا بفضل رجل عبقرى هو الإمبراطور أوكتافيوس . فقد أدرك منذ صغره أن الأزمة العنيفة التى كانت تعانيها روما منذ قرن لم تكن أزمة حكم فحسب بل كانت أوسع من هذا وأعمق . وكان يتحتم على حكّام روما أن يتجاوزوا حدود مدينتهم الضيّقة وأن ينظروا إلى الإمبراطورية كمجموعة واسعة من الدول تتمتع كل منها بنوع من الاستقلال الذاتى تحت رياسة روما وقانونها . فأصبحت حينئذ الإمبراطورية نظاماً عالميًّا يضمّ كل شعوب العالم المتفتحة إلى المدنية والتى تريد أن تعيش فى كنف القانون الرومانى المبنى أساسيًّا على احترام الشخص بوضمان حقوقه وصيانة العائلة والعدالة الاجتماعية .

ومن وفاته فى أغسطس سنة ١٤ بعد المسيح لغاية سنة ١٩٢ وهى سنة اغتيال كومود Commode ، ظلّ الحكم الرومانى محتفظاً بقوّته وبسيطرته وتوازنه وثبوته فأخذ الناس يرونه طبيعيًّا بل أبديًّا ويعتقدون أن العالم سيبقى دائماً على هذا المنوال .

ولكن الدوام لله وحده ... فقد انهار هذا الصرح الشامخ وتفكّك هذا النظام المحكم ممّا جعل المؤرخين يتساءلون بدهشة واستغراب عن أسباب هذا الحادث الهائل غير المنتظر . ومن الطبيعي أن يذهبوا فى تفسيره مذاهب شتى . غير أن هناك بعض العوامل العامة التى يكاد يتفق الجميع على أنها أثرت تأثيراً فعليًّا فى سقوط الإمبراطورية الرومانية . ويمكننا أن نلخّصها على الوجه الآتى :

أولا : إن اتساع الإمبراطورية وبعد أطرافها جعل من العسير للقوة المركزية أن تراقب عن كثب أحوال أقسامها وأن تطبق فى كل مكان النظام الرومانى .

ثانياً : إن تعدد السلطات وقضاءها بخاصة فى عهد دقلديانوس Diocleitien أضعفا سيطرة الدولة .

ثالثاً : إن ازدياد عدد الموظفين الإداريين المكلفين بمراقبة المرافق العامة وتحصيل الضرائب التى كانت فى ازدياد مستمر أحدث أزمة اقتصادية شديدة الوطأة .

رابعاً : وهذا لم يمنع طبقة من القادة والأغنياء الأرستقراطيين أن ينقادوا إلى الملذات والترف بل أن ينغمسوا فى شتى مظاهر الفساد والرذيلة فانهارت القيم الروحية وتفككت روابط الأسرة وابتعدت روما عن المثل الأعلى القديم الذى كان قوامه التقشف العسكرى والقناعة والحياة البسيطة والإخلاص للخير العام .

خامساً : لقد كان للأوبئة وللإحجام عن الزواج أو عن الإنجاب تهرباً من الصعوبات المالية تأثير فى انخفاض عدد السكان .

سادساً : لقد تدفّق فى داخل الإمبراطورية بل فى روما بالذات عدد كان يزداد على مر السنين من المرتزقة الأجانب الذين احتلّوا مناصب فى الجيش وفى المرافق العامة فجعلوا الروح الرومانية غريبة فى مقرّ نشأتها .

سابعاً : لم تكتف البربر بتهديد الحدود والسعى المستمر لاقتحامها بل تمكن البعض منهم من التسلل إلى صميم الإمبراطورية والوصول إلى مناصب هامة فأصبحوا كطابور خامس على أهبة الانضمام إلى الغزاة البربر عند ما يتسنى لهؤلاء الإطاحة بالحكم الرومانى .

لقد قيل إن المسيحية هى التى هدمت العالم الرومانى . وأبرز من ذهب هذا

المذهب هو ادورد جيبون Gibbon فى كتابه « اضمحلال وسقوط الإمبراطورية الرومانية » ولكن هذا مجرّد افتراء لأنه ليس هناك أى دليل على صحة هذا القول . لقد أبدى المسيحيون منذ البدء ولاءهم للحكم الشرعى امتثالا لأمر المسيح : « أعطوا لقيصر ما لقيصر ولله ما لله » . والذى حصل هو أن الإمبراطورية قد اعترتها الشيخوخة وأصبحت منظماتها خالية مما كانت تحمل من معان سامية . ففقدت روما حيويتها وقوتها الخلاقة التى كانت ميزتها الكبرى فى أول نشأتها وفى إبان أوجها . فللأسباب التى ذكرناها دبت فى صميم كيانها قوى الانفكاك والاضمحلال . فكانت فى أشدّ الحاجة إلى هيئة فتية تنبض بالإيمان والحماس والحكمة لكى تتسلم منها مشعل الحضارة ومجموعة هذه القيم العالية التى كانت فخر روما وسر نجاحها . وقصارى القول لم تهدم المسيحية العالم القديم بل أخذت محله : أخذت على عاتقها مسئولية حمل المثل العليا وتوجيه العقول وتشحيذ الهمم وشحن القلوب بالمحبة وحثهم على العمل الصالح .

وإزاء حضارة كان ينخر فى عظامها سوس الفساد والانحراف ، ظهرت المسيحية كمصدر للفضائل والعزائم الصالحة ؛ وإزاء عالم فقد ثقته بنفسه فلم يعرف إلى أى قصد يسير وأى وسائل يستعمل ، تقدمت المسيحية بإيمان راسخ ، متجهة بقوة بدون تردّد نحو الطريق والحقيقة والإيمان . اسمع برودانسيوس Prudentius — وهو كاتب مسيحى من القرن الرابع يصيح : « أيها المسيح . . . إنك نورى ورجائى ، إنّك قوّتى وملاذى . . . » . .

ومهمة الكنيسة إزاء اضمحلال الإمبراطورية الرومانية كانت تتركز فى ثلاث اتجاهات :

أولا : ألحت فى التمييز بين ما تمثّل هى من قوّة روحية ونظام روحى وبين السلطات المدنية التى أخذت تتشبث فيها بغية الخلاص . فلم تتأخر الكنيسة عن مساعدتها والحلول دون تفتتها ولكنها فى نفس الوقت حرصت تماماً على ألا تسمح لأحد أن يوحّد بينها وبين السلطة المدنية : « ليس ملكى فى هذا العالم » : « وهى فى الدنيا ولكن ليس من الدنيا » . ولذا كثيراً ما نرى نوعاً من التوتّر بين سلطة الكنيسة والسلطات المدنية التى كانت تحاول أن تستخدم الكنيسة كوسيلة للوصول إلى مقاصدها .

ثانياً : راقبت الكنيسة الوثنية المحتضرة إذ كانت تخشى منها انتعاشاً متجدداً

ومحاربة للدين الجديد واللجوء إلى وسائل السحر وصنوف من تافيق العقائد (Syncretism) الأمر الذى كان يهدّد المسيحية بذوبانها فى عقائد مائعة لا تستند إلى أساس .

ثالثاً : عنيت الكنيسة بتهيئة أناس أكفاء يستطيعون القيام بالمهام الجديدة التى تتوافق والقيم الجديدة التى جاء بها السيد المسيح ، « فالإنسان الجديد » الذى يرسمه الإنجيل هو محور مجتمع جديد يتسم بقيمٍ روحية حقيقية ويساعد الإنسان أن يحيا حياة القداسة المطلوبة منه .

ولتحيق هذا التجديد الإنسانى لجأت الكنيسة إلى وسائل مختلفة . ففيما يتصل بنظامها الخاص مثلا سنّت القوانين لتوطيد النزعة المتجهة نحو خدمة المجتمع بواسطة مؤسسات خيرية لإعانة الفقراء ومساعدة المعوزين وإيواء المتشرّدين ومعالجة المرضى كما أنها حاولت ، بجدارة ونجاح ، أن ترفع مستوى المرأة فى المجتمع بتقديس الرباط الزواجي وتحقيق المثل الأعلى للأسرة وهى نواة المجتمع السليم المحترم . كما أنها حاولت تدريجياً تخفيف وطأة نظام الرقّ ، مذكرة لأعلى السلطات أن جميع أفراد البشر متساوون أساسياً إذ هم أبناء ربّ واحدٍ يريد للجميع الحريّة والسعادة . كما أنها حاولت أن تحدّ من قسوة الألعاب الجماهيرية التى كثيراً ما كانت تنتهى بإراقة الدماء وفتك المصارعين .

ومحور هذا العمل الأخلاقى الثورى لإيجاد نوع جديد من الإنسانية كان يستند إلى همة البابوات القعساء وتوجيهاتهم الثاقبة ، والسلسلة من الأساقفة حازمى الرأى ، غزيرى الثقافة ، منتخبين من صميم الشعب ومتجاوبين معه كل التجاوب . فاستطاعوا أن يرجّهوه إلى العمل المُجْدى فى حقل الأمور الدنيوية بروح مستمدة من أعماق إيمانه الحى . كما وأنهم عرفوا كيف يدافعون عن الوطن خير دفاع عندما حاول الغزاة أن يستولوا عليه .

وأخيراً كان للأديرة أثر فعّال فى المحافظة على التراث العلمى والثقافى القديم ، وفى الإضافة إليه ما أنجزته دراساتهم المتواصلة .

هذه النبذة عن الإمبراطورية الرومانية بين المسيحية والبربريّة تدلنا على أهمية الموضوع الذى عرض له الدكتور إسحاق عبيد فى الكتاب الذى نقدمه إلى القراء . وهو بلا شك خير من يستطيع أن يتناوله بخبرة وجدارة إذ تخصّص تخصصاً دقيقاً

فى هذا الميدان منذ دراساته الطويلة فى إنجلترا بجامعة نوتينجهام (Nottinghom) فأجاد هناك اللاتينية مما جعله يستقى تاريخ القرون الوسطى من وثائقه الأصلية وحصل على درجة الدكتوراه فى هذه المادة . وقد نشر السنة الماضية كتاباً قيّماً عنوانه « روما وبيزنطة من قطيعة فوشيوس حتى الغزو اللاتينى لمدينة قسطنطين ٨٦٩ — ١٢٠٤ » وهو يعالج صلات روما القديمة بروما الجديدة من زوايا مختلفة اتسمت بروح الفهم والموضوعية .

وفى البحث الذى نقدمه اليوم وجه الدكتور إسحاق عنايته نحو صلات الإمبراطورية الرومانية بالبربر وبالكنيسة . فعالج أحوال الإمبراطورية الرومانية قبيل سقوط روما فى أيدى المتبربرين وأوضح ما كان يفتّ فى عضدها من عوامل التدهور الاقتصادى والاجتماعى والروحى ، ثم انتقل للحديث عن ظهور المسيحية والصراع المرير بين الوثنية المحتضرة والكنيسة الفتية التى كانت بحق الوريث الشرعى للمجد الرومانى الذى قدّر له أن يداس تحت أقدام القوط .

ولعل الفصل الخاص بالهراطقة والأرثوذكس ، فى نظرى ، قد أتى بوثائق مصدرية تلقى الضوء على تاريخ الكنيسة الأول ومجامعها المسكونية السبعة وما تخلّل ذلك من تيّارات فكرية ولاهوتية وسياسية أيضاً .

أما الفصل الخاص بروما البابوية ففيه سيرة موضوعية لأعظم ثلاثة من آباء الكنيسة الذين أرسوا النظرية البطرسيّة على المدار الوسيط . ألا هم : ليو العظيم ، وجيلاسيوس وغرغوريوس العظيم . ويجب أيضاً أن أشير بصفة خاصة إلى البحث الشيّق فى دراسة « مدينة الله » للقديس أغسطين . وأنهى المؤلف بحثه بالحديث عن المروفنجيين والنهضة الكارولنجيّة . فاعتبر ما فعله كل من شارلمان والبابا ليو الثالث مجرّد حلقة أخرى من حلقات التطاول المتبربر على الحقوق الشرعية للجالس على عرش البوسفور .

وجدير بالذكر أن أنوّه هنا أن الدكتور إسحاق قد لجأ فى بحثه إلى مخطوطتين عربيتين : الأولى عن قوانين المجمع المسكونى الأول والثانية عن يوليانوس العاصى ، وقد حققهما فى ملاحق هذا الكتاب .

ومما يسرّنى أن ألفت النظر إليه هنا هو أن الدكتور إسحاق بالإضافة إلى علمه الغزير الراسخ وروحه العلمية الموضوعيّة الحقيقية يتميز بهذا « التذوق بموضوع البحث» الذى يجعله يعالج هذه المواضيع بروح شغوفة بها تمكنه من معايشة أبطال هذا العصر فيحسّ بأحاسيسهم ويشعر بخطورة المواقف الشائكة فيستطيع أن يحكم برزانة ولكن بحق عن تسلسل الوقائع وتدخل الإرادات .

وإنه لمن دواعى السرور والاغتباط أن نرى أستاذاً شابّاً مثل الدكتور إسحاق عبيد يعرض لمواضيع شائكة معقدة قد تنزلق أحياناً فى تحليلها قدم مؤرخين قديمى العهد بمادتهم فيوفق كل التوفيق فى بحثه الموضوعى العلمى والإنسانى فى نفس الوقت . ورجاؤنا أن يواصل الدكتور إسحاق هذه الأبحاث القيمة الممتعة التى تزوّد مكتبتنا العربية بصفحات هى بحاجة إليها . والله الموفق .

الأب قنواتى

القاهرة فى أغسطس ١٩٧١

I've now alas ! Philosophy
Medicine and Jurisprudence too,
And to my cost Theology,
With ardent labour studied through.
And here I stand, with all my lore,
Poor Fool, no wiser than before.
Master, ay doctor styl'd indeed,
Already there ten years I lead,
Up, down, across, and to and Fro,
My pupils by the nose, and learn,
That we in truth can nothing know !

(*Faust*)

محتويات الكتاب

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

الملاحق

الفصل الأول

الإمبراطورية الرومانية فى مهب الريح

Proxime Dis Consul, qui tantae prospicis Urbi,

Quod cuncti gens una sumus.

Nec terminus unquam.

Romanae ditionis erit.[1]

(*Claudian*)

هذه الأبيات التى تنطق بالمديح فى روما وتحدث عن اللسان اللاتينى الأوحد الواحد ، وسلطان خير المدائن على وجه الأرض الذى يمتد حتى يوم الدينونة ، لم تكتب كما قد يتصور المرء على عهد أغسطس (٣٠ق . م — ١٤م) أو فى حكم تراجان (٩٨ — ١١٧ م) اللذين بسطا « السلام الرومانى » Pax Romana فى العالم المتحضر آنذاك ويوم أن وصلت روما قمة مجدها وسعدها ؛ وإنما كتب الشاعر كلوديان هذه القصيدة بعد ذلك بثلاثة قرون عند ما كانت الإمبراطورية الرومانية تترنح إعياء ووهنا ، وحينما كان زعيم قوطى متبربر هو آلاريك Alaric يزحف بجمرعه القوطية ليدك أبواب روما ويذل أهلها . أما البيت الأول فى هذه القصيدة فهو موجه من « آخر شعراء العالم القديم » إلى زعيم متبربر من قبائل الفندال هو ستيليكو Stilico ، الذى استخدمته روما قائداً لجيوشها ، فكان أن غدر بروما والرومان وباعهم جميعاً لبنى جلدته من البرابرة الجرمان !

وإن نحن ألقينا نظرة على هذه الإمبراطورية المتهالكة وجدنا أنها لم تكن تستند فى اقتصادياتها إلى أسس سليمة ألبتة : فالفتوحات التى أحرزتها روما وقت « الحكم الجمهورى » وإبان عصر « المواطن الأول » Princeps ، لم يكن يحركها هدف واضح المعالم : لكسب الأسواق الخارجية من أجل إنعاش التجارة مثلا ،

(١) Quoted from Fletcher, L., The making of Western Europe, Ch. I.

أو بقصد توطين غوغاء العاصمة ودهماء الريف الإيطالى على سبيل المثال ، وإنما كانت تقضى السياسة يومها بتسليم هذه الولايات المفتوحة لأصحاب النفوذ من الرومان ليجنى منها القناصل السابقون والجنرالات والفرسان الضالعون فى أفانين الربا وفحشه ثروات طائلة تعود آخر الأمر إلى جيوب هذا النفر القلائل من طبقة السيناتورية والفرسان .

ومن الناحية النظرية كانت هذه الولايات ملكاً للدولة ، ولكن واقع الأمر يبين أن ما عاد من دخولها على الشعب الرومانى كان تافهاً إن لم يكن معدوماً .

كما وأن العاصمة الرومانية كانت مذ وقت مبكر تعتمد فى الحصول على رغيف الخبز اليومى لا على الكمپانا Campagna ولا حتى على إيطاليا ، وإنما كان اعتمادها الأساسى لسد الأفواه بلقمة العيش على الولايات النائية فى شمال أفريقيا ومصر .

وتزداد دهشتنا إن علمنا أن المعاملات بين الحكومة الرومانية ودافعى الضرائب وملاك الأرض ، فى القرن الثالث ، كانت تتم بالنظام العينى لا النقدى ، فالعملة كانت قد اختفت من الأسواق وحل محلها النظام الجرمانى القائم على « المبادلة » أو المقايضة والمعروف باسم Naturwirthschaftapt . ولعل من العوامل التى أدت إلى هذه الحال من السوء الاقتصادى تلك الإجراءات التعسفية التى اتخذها دقلديانوس ومن بينها تخفيض سعر العملة ، الأمر الذى نقل المعاملات إلى النظام العينى ، فصار دافعو الضرائب يوفون ما عليهم للخزانة من محصول القمح والمعروف باسم Annona ، بل كان من النتائج أيضاً أن رواتب الجند باتت تصرف لهم قمحاً بدلا من العملة.

وإذا انتقلنا لنفحص الحالة الروحية للرومان لوجدنا حياتهم تكاد تكون باهتة كئيبة ، فآدابهم حكومية المظهر تخلو من الإلهام الروحى تدور كلها حول حفنة السلف الأماجد فى الماضى السحيق وهى تعيد نفسها فى أقاصيص فولكلورية مترددة . ولا ننكر — بطبيعة الحال — أن الرومان كانوا شعباً محبًّا للتاريخ إلى حد العبادة ، فما إن ظهر واحد منا بينهم راح يروى ملحمة « روما الأولى » فى عبقرية زائدة ، ألا وهو ڤرجيل Virgil ، حتى رفعوه إلى مصاف الآلهة . ولكن ڤرجيل مذ رفع إلى فوق قد بقى هنالك فى معية الآلهة مذ ذلك الحين . والرومان لا يملكون سوى ڤرجيل واحد ، ولكن المطلع على روائع الميثولوغيا الإغريقية أو النوردية قد يتضح له أن « إينياد »

Aeneid ڤرجيل لا تعدو أن تكون ملحمة عادية ، تملك بلدان مثل النرويج أو اليونان مثات من أمثالها .

ولئن كان الأدب الرومانى قد شهد فترة انتعاش فى أواخر العصر الجمهورى والسنى الأولى من حكم « المواطن الأول » ، إلا أن هذا الوميض الفجائى كان قصيراً موقوتاً فسرعان ما خبا وتوارى . ولسان اللاتين أيضاً قد وجد فى لوكريتيوس Lucretius (٩٩ — ٥٥ ق.م) الشاعر المرموق شاكياً من الفقر والجدب (egestae) الذى باتت تعانيه لغة قومه .

ولقد ولت أيام التفاخر بالفيالق الرومانية والسلاح الذى لا يقهر ، وصدمت الفروسية الرومانية بخيبات للآمال مريرة : فنى العام التاسع للميلاد انقضت قبائل الزعيم الجرمانى أرمينيوس Arminius على فيالق القائد الرومانى ڤاروس Varus على مقربة من أعالى نهر ليبى Lippe ، وقتل ڤاروس وأبيد رجاله فى ساحة تيتوبرجر ڤالد Teutoburger wald ومهما كانت الحال فإنه مذ يوم كاناى Cannae (٢١٦ ق.م) عند ما أباد هانيبال القرطاجى خمسين ألفاً من الجند الرومان إلى يوم كارهاى Carrhae (٣٥ ق.م) حين أهين شرف روما على رمال بارثيا بعد الهزيمة الشائنة التى لحقت بليكينيوس كراسوس ، ومن يوم كارهاى إلى فاجعة أدريانوبل Hadrianople (٣٧٨ م) حين هزم القوط الجيوش الرومانية وقتلوا الإمبراطور الرومانى ڤالنس ذاته فى أرض المعركة ، بات شبح أحد البرابرة الأجلاف من شمال أفريقيا Dirus Afer من شاكلة هانيبال ، أو طيف أحد البرابرة من الغال ، أو وحشية أحد شيوخ القوط الجرمان ، بات كل هؤلاء يقلقون مضاجع الرومان ويدقون بوابات « المدينة الخالدة » .

على أن أشد ما يؤخذ على روما بعد هذا كله إغفالها لقوتها البحرية : لقد كان فى مقدورها أن تقتنى قوة بحرية أشد فعالية وأعظم عدداً ؛ فالبحر المتوسط قد دان لها قرنين كاملين من الزمان بعد أن طهره ضباطها من القراصنة الأغارقة ، ولكن السلطات الرومانية لم تؤمن مجالات نشاطها البحرى الأخرى فى البحر الأحمر والبحر الأسود وعلى سواحل بلاد الغال الشمالية ، وهذا — فى رأى بعض الدارسين — أكبر إثم اقترفته روما فى حق نفسها .

وإن نحن ألقينا نظرة على ذلك الشعب الذى كان يفاخر برومانيته لألفينا شعب

روما (Plebs) — منذ القرن الثانى قبل الميلاد — أشد ما يكون تقلباً فى طبعه ، وعلى درجة مخيفة من الجبن والانحلال الخلقى . والحق أنهم قد ظلوا باقين على هذا الانحلال مذ ذلك الحين ردحا طويلا من الزمن على مدار العصور الوسطى ، فنى سيرة عائلات روما النبيلة والكثيرين من بابواتها أكثر من وصمة عار . حقيقة أن طبقة الأشراف كان لها من التقاليد العريقة ما يشرف سجلها ، ولكن الهزات التى تعرضت لها هذه الطبقة العريقة قبيل وبعد ميلاد المسيح بقليل من الزمن قد أنقصت عدد هذه الطبقة بشكل مخيف وأصبح فى الإمكان حصر عدد الباقين منهم على أصابع اليد . وفى القرن الرابع للميلاد صار شرف السيناتورية هبة يمن بها الإمبراطور المهيب للمنافقين من خدمه وحشمه .

وبرغم كل هذه النقائص والعيوب فما من شك فى أن سلطان روما وحضارتها يمثلان صفحة من أنصع صفحات التاريخ مجداً وفخاراً . وهنا تكمن الحيرة : إذ كيف لنا أن نفسر سقوط روما العظيمة على هذا المنوال ؟ هل نأخذ بقول مكيافللى بأن البشر إن هم إلا « جمع فاسد » (كلاب ضالة) وبأن الانتصار دوما يكون من نصيب « أشد الناس شراً » ، أم هل نجد الإجابة عن سؤالنا فى « تعازى » الفلاسفة المسيحيين من رجال كنيسة العصور الوسطى الذين رأوا فى سقوط روما إرادة ربانية شاء بها الله أن يطهر المدينة الخالدة من أدران الأوثان لتغدو المدينة بيضة الكنيسة العالمية ؟

ولقد يعثر الباحث فى الأحداث التى تلت سقوط روما على ما يبرر هذا القول الأخير : فبعد أن نقل قنسطنطين العظيم عاصمة الإمبراطورية إلى مدينة روما الجديدة على ضفاف البسفور (القسطنطينية) فى ١١ مايو لعام ٣٣٠ ، وبعد أن سقطت روما القديمة فى أيدى الزعيم القوطى آلاريك فى عام ٤١٠ بدا للناس أن كل ما هو رومانى ومتحضر قد وطأته الأقدام ، وتلفتوا من حولهم فلم يجدوا سوى كنيسة روما فأشاروا إليها على أنها « شبح الإمبراطورية الرومانية المتوفاة وقد تربع البابا متوجاً على قبر هذا المجد الضائع »[٢] . ولا جدال فى أن كنيسة روما قد أسهمت بجهد خارق فى إعادة تنظيم الإمبراطورية الرومانية التى قد تمزقت أوصالها ، كما نجحت — وهنا يكمن الإعجاز —

---

(٢) "The ghost of the deceased Roman Empire sitting crowned upon the grave thereof." (Hobbes).

فى أن تبقى على ظل الإمبراطورية الباهت حيًّا بدلا من أن يطمس فى الأكفان [٣] .

ليست هنالك حضارة ظهرت على وجه البسيطة دون أن يكون لها الجانب المشرق والجانب الآخر القبيح . وبرغم كل العيوب التى يأخذها المؤرخون المحدثون على الرومانى ، والتى اعتادت أقلامنا — نحن معشر المؤرخين — على كيلها لروما وشيوخها وغوغائها ، إلا أنه — إنصافاً للحق — لا بد من الاعتراف بأن الصفات الطيبة فى الرومان وليست تلك الرذائل القميئة فى طبائعهم هى التى قد تركت بصماتها على صفحات التاريخ . ويأتى فى المقام الأول من بين فضائل الرومان ذاك الإحساس بقيمة الذات عن وعى متأصل فيهم ، مشفوعاً بالتسامح الرائع قبالة نقائص شعوب أخرى عديدة . لقد كان الرومانى يؤمن بأن عليه رسالة فى حفظ السلام فى ربوع الإمبراطورية الشاسعة . ولا تستطيع أوربا أن تنكر أنها مدينة فى بقائها فى الدرجة الأولى إلى هذا المفهوم الرومانى : من يدرى المصير الذى كان سيحل بأوربا لو أن روما لم تقاتل حتى الموت عدوها العملاق العنيد هانيبال القرطاجى ، وبرابرة الغال قريبها وبعيدها ، والفرس ثم الهون ؟ ومن يمكنه أن ينبئ بما كان سيؤول إليه الحال لو أن روما لم تحتضن تحت جناحيها ذاك الحطام الذى استنقذته بالدم المهراق من مخالب المتبربرين ؟

كانت تلك المفاهيم وذاك الاعتزاز بما كانت تؤديه روما هى أمل الرومان جميعاً ، وهى فى نفس الوقت دين صفوة السادة الرومانيين . ولعل هذا يتضح جلياً عندما ندرك أنه لا الآلهة الأعزاء فى لاتيوم Latium ولا شىء فى السموات والأرض كان يساوى شروى نقير إلى جانب روما الربة Roma Dea . ولم تكن عبادة البطل الرومانى الحى فى ظل حكم « المواطن الأول » سوى تجسيد لفكرة « العبقرية » التى كانت ترقى بصاحبها إلى مرتبة الربوبية والتأليه . ولم يكن القانون الرومانى إلا سنداً صلباً تقوم عليه سائر النظم فى الإمبراطورية العظمى . ومهما قيل فى أحوال ولايات الإمبراطورية الخاضعة لروما ، فلا شك فى أنها كانت أسعد حالا من العاصمة ذاتها . حقيقة أن بعض الولايات مثل غالة وإفريقية قد امتصت حتى عظامها من فرط جشع طبقة الفرسان والضباط المفلسين وعصابات المرابين ، ولكن ما إن أرسى الحكم الرومانى قواعده الإدارية حتى

---

(٣) See F.M. Powicke, "The Christian Life", in C.G. Crump and E.F. Jacob, The Legacy of the Middle Ages.

ساد القانون واختفت مدعاة الشكاية والضجر . ولقد توصلت الإمبراطورية إلى حدودها الجغرافية الكبرى عشية ظهور المسيحية . ومنذ ذلك التاريخ بدت الأحوال فى الولايات مدعاة للغبطة . أو ألم يكن حكم الرومان فى الولايات الشرقية عدلا إن نحن قارناه بكابوس الملوك الشرقيين : حيث كان الحاكم فرعوناً والرعية مجرد عبيد لهذا الإله . لقد سمحت روما لغالبية ولاياتها بقدر عادل من الاستقلال الذاتى ، وأعفى بعض هذه الولايات تماماً من الجزية والتجنيد ، وكان لكل ولاية مجلس تمثيلى Concilium شاركت فيه مدن الولاية ، واضطلع هذا المجلس بشئون الولاية وكان له حق معارضة السلطات الرومانية إن كان هنالك مبرر معقول . ولم يكن إمبراطور الرومان يقدم على إملاء قرارات على إحدى الولايات إلا بعد أن تكتشف الحكومة الرومانية أن السلطات المحلية قد أغرقت الولاية بالديون . ولقد ترك الرومان دويلات المدن الإغريقية والمتأغرقة تدبر أمورها وفق الأسلوب الذى اعتادته منذ القدم ، فى سلام لم تعرفه من قبل . والشرط الأوحد الذى جاهد الرومان فى الحفاظ عليه هو أن يكف هؤلاء « المشارقة » عن اغتيال الواحد منهم الآخر. أما فى الغرب فلم تكن ثمة حضارات قديمة هناك اللهم إلا فى تلك المستعمرات الإغريقية المبعثرة على كعب الحذاء الإيطالى . ولذا فقد أدخل الرومان فى تلك الأدغال مبادئ الحياة المتمدنة ، وعلى التدريج نمت من قلب التحصينات العسكرية الرومانية التى كانت تغطى غرب أوربا النواة الأولى لأجمل المدائن فى إيطاليا وإسبانيا وغالة وبريطانيا وجنوبى ألمانيا .

وإن كنا لا نملك أن ندعى بأن هذه الإمبراطورية قد قدمت فضلا فكرياً فذاً يتسم بالخلق ، إلا أنه من اليسير أن نؤكد أنها كانت تربة طيبة لأن تنمو عليها روائع الفكر المستورد . ولا بد أن نذكر أن أكثر من نصف الإمبراطورية الرومانية كان أرضاً إغريقية ورثها أبناء روما عن بنى هللاس ، وأن النصف اللاإغريقى المتبقى كان مسرحاً لنشاط التجار الأغارقة أيضاً . بل وإن مدناً مثل مرسيليا كان لها أكروبول Acropolis ، وجزيرة صقلية كانت عامرة مزدحمة بالإغريق الذين صبغوها حضارياً بصبغة يونانية بحتة . كذلك كانت الحال فى الجنوب الإيطالى ، فحتى مدينة نابلى ، وهى التى تحوى قبر فرجيل شاعر الرومان الخالد ، ظلت مدينة إغريقية الصبغة . وسرعان ما غزت

المدرسة الرواقية[٤] الآتينية قلوب السادة الرومان من أمثال كلوديوس وهادريان وماركوس أوريليوس الذى كتب « تأملاته » المرموقة باليونانية . ولقد بالغ الرومان فى تدليل بيت الحضارة هيللاس ، ونجح الإغريقى « الخبيث » فى سحر سيده الرومانى « ذاك الفاتح الغبى » . على أن هذا الإغريقى « المدلل » لم يكن بحال لينتمى إلى يونان عصر بركليز Pericles (٥٠٠ — ٤٢٩ ق.م) ، وإنما صار « إغريقوليًّا » لا خلق له ولا مذهب ولذا فليس بمستغرب أن الرومان برغم إعجابهم الشديد بالحضارة الإغريقية باتوا فى نفس الوقت يستشعرون شيئاً من الازدراء للإغريقى « المخنث » ، ولم يكن ڤرجيل إلا مردداً لشعور عام لدى بنى جلدته عندما قال :

Timeo Danaos et dona ferentes

---

(٤) الرواقية : تأسست هذه المدرسة الفلسفية فى أثينا عام ٣١٥ ق.م على يد زينون من مواطنى كيتيوم فى قبرص . ولقد اتخذت اسمها من حقيقة أن مؤسسها كان يستخدم « الرواق » (Stoa) ومن ثم Stoicism) . مدرسة لتعليم مبادئ فلسفته . ولقد نظر زينون — فى مخالفة صارخة لمعاصره ابيكوريوس (مؤسس الأبيقورية) إلى العالم على أنه كل متحرك تدفعه ملكات العقل . ومقومات العالم مطلقان : المبدأ الإيجابى المتمثل فى الله ثم المادة التى يتناولها الله بالتشكيل ، وهذان الأساسان مظهران لا ينفصلان ويعبران عن الوجود . والكون عند الرواقية سرمدى ، دورات لا تنتهى ، وكل حلقة من هذه الدورات المتعاقبة تستوعب فى مداها بالضرورة فى عمق النار الإلهية . وبعدها تبدأ حلقة أخرى تماثل تلك التى قد سبقتها ، فهى بعث لها من جديد . وقد عبر عن هذا المفهوم الشاعر شيللى Shelley فى خاتمة مؤلفه بعنوان هيللاس حين قال :

Worlds on worlds are rolling ever
From creation to decay,
Like the bubbles on a river
Sparkling, bursting, borne away.

وفى الأخلاق بشر زينون بأن أفضل غايات الإنسان أن يحيا فى انسجام مع الطبيعة : أى يحيا حياة فاضلة، لأن الفضيلة هى قانون الطبيعة . . . هى مشيئة الله ، كما وأن السلوك الفاضل يولد السعادة . ولعل أهم دعوة نادت بها الرواقية قولها بالأخوة بين البشر أجمعين ، دون تمايز بين إغريقى ومتبربر ، بين حر وعبد ، فهى بهذا تمهد للعدالة والمحبة المسكونية . ولقد صادفت الرواقية هوى فى أفئدة السادة الرومان ، وكانت لها أصداء على القانون الرومانى . وظهر أثرها فى كتابات الفيلسوف سنيكا Seneca وفى سخريات بيرسيوس Persius وكان من أخلص معتنق الرواقية الإمبراطور ماركوس أوريليوس صاحب « التأملات » الذائعة الصيت .

ثم إن هؤلاء الأغارقة من آثينيين وبرغاميين ومقدونيين وسلوقيين وبطالمة قد أنهكوا حيوية روما وامتصوا دماء الرجولة اللاتينية . وفى مقابل هذا كله لم تقدم بلاد اليونان حتى مطلع المسيحية شيئاً يعوض الرومان بعضا مما قد فقدوه ، اللهم إلا نفراً من الآلهة والإلهات باتوا يزاحمون العائلة المقدسة فى الكابيتول . وهكذا عرف الرومان إيزيس المصرية الأصل والأم العظمى Magna Mater الفريجية ومثراس Mithras الفارسية.

ومع هذا السيل الذى لا ينقطع من الآلهة « الوافدة » على روما تسللت خلسة عبادة جديدة عرفت وقتئذ باسم « ديانة كرستوس »[٥] ، أى المسيح . وكان أتباع المسيح فى بداية الأمر قلة من بؤساء المجتمع ، من العبيد والنسوة والبسطاء الذين كانوا على شاكلة صيادى الجليل . والذى دفع هذه الفئات المضيعة إلى اعتناق هذه الرسالة الجديدة أن مبشرها كان يحتضن فى رحاب مذبحه الفقير قبل الغنى ، العبد بجوار الحر ، المرأة مثلما كان يستقبل الرجل . ولقد وجد العبيد — الذين بلغ عددهم عدد المواطنين الأحرار فى الإمبراطورية الرومانية — أن المسيحية لا تضع حساباً للرق فى ملكوت السموات ، ولم تتردد فى إعلانها أن عبداً صالحاً يحق له الجلوس على عرش الأسقفية أباً روحياً للرعية جميعاً أميرها وفقيرها . والمعروف أن نظام الرق كان لا يرى فى العبد آدمياً له أية حقوق ، وحتى أرسطو ذاته قد دافع عن هذا النظام الذى كان الدعامة الأساسية للاقتصاد فى العالم القديم . ولهذا سارع العبيد فى اعتناق ديانة المسيح التى بشرتهم بالخلاص من دولة الأغلال . كذلك فعلت النسوة ، لأنه حتى ظهور هذا الدين الجديد الذى كرمهن فى سيرة مريم العذراء ، كن فى المجتمع الرومانى مجرد مخلوقات دونيات لسن من شاكلة الرجال ولاهن على فضائلهم .

كانت رسالة ابن الجليل خروجاً على التقاليد القديمة وتحدياً صارخاً للنظم الرومانية [نفسها . وبعد ذلك فهى رسالة تأمر وتنهى وتجاهر قائلة : « لا تعبد غير الرب إلهك » . ألم يكن هذا يعنى تحريضاً على إسقاط الربة روما . ثم إن المسيحية لم تكتف بهذا بل استدارت على العائلة المقدسة فى الكابيتول وتطاولت على جوبيتر ومارس ويونو ومنيرڤا ونعتتهم بأنهم « مجرد شرذمة من الأبالسة ، وبدلا من تقديم النذور والأضحيات لهم راحت تستمطرهم الأناثيما بأن « عليكم اللعنة » Anathema estote .

---

(٥) كرستوس فى الأصل تعنى : الطيب ، الصالح ، سعيد الطالع .

امتعض الرومان من هذا الدين الجديد الذى لم يكن ليحترم روما الربة وابنها البار « المواطن الأول ». وطالبت السلطات من الرعايا أن يبرهنوا على ولائهم للإمبراطور بأن ينثروا حفنة من البخور على قاعدة تمثاله . ولكن المسيحيين رفضوا أداء مراسيم الولاء والطاعة . وجن جنون حكام الولايات الرومانية وحدثتهم أنفسهم بأن هذا المسيحى المتمرد لا بد وأنه يضمر السوء لروما وسيدها . ولم يفهم الرومان فى هذا الموقف إلا أنه نوع من العصيان والخيانة ، فى حين أن هذا التمرد على التمثال ورفض أداء الطقوس لهذا الصنم إنما كان المحك الأوحد لقوامة إيمان هذا المسيحى أو ذاك . إن نثر البخور على قدمى التمثال يعنى الاعتراف بإله آخر ، والوجه القبيح فى الأمر أنه ليس بإله ، والأدهى من هذا أنه خلف فاسد لسلف كالح .

وأغلب الظن أن كثرة من المسيحيين — برغم هذا — عندما طلب إليها البرهنة على ولائها للتمثال قد استجابت بعد بعض تردد ، وألقت ببخورها حرصاً على أعناقها . ولكن رجال الدين (الإكليروس) لم يعرفوا فى هذا الشأن حلاً وسطاً ، ورفضت الكنيسة قبول هؤلاء المرتدين من جديد إلى قطيع المعمودية . كان موقف الكنيسة العنيد من السلطات الرومانية مدعاة لغضب غوغاء المدن وعواصم الأقاليم . ومع أن الجماعة المسيحية فى الإمبراطورية الرومانية كانت فى إخلاصها وولائها للدولة فوق الشبهات إلا أن التعاليم الأخروية فى المسيحية فى عصرها الأول جعلت المؤمنين يستخفون بهذا العالم ويرون فيه مجرد « طيف يظهر ولن يلبث أن يضمحل » . وازدادت حدة الموقف وبدأت موجة الاضطهادات ضد المسيحيين .

ولقد وجد هذا الاضطهاد صداه العميق فى الكتابات التى أنتجها المفكرون المسيحيون منذ القرن الثانى ، وراح الكثيرون يشيرون إلى روما على أنها « بابل » التى لعنتها الكتب المقدسة ، بل إن بعض ما ورد فى سفر الرؤيا ليوحنا اللاهوتى يكاد يكون قد وجه إلى روما ، فنى السفر كلام كثير عن « كرسى الشيطان » والقوم الذين « يأكلون ما ذبح للأوثان » ، وفيه أيضاً تنديد بـ « إبليس الذى يزمع أن يلقى بعضاً منكم فى السجن لكى تجربوا ويكون لكم ضيق عشرة أيام . . . كن أميناً إلى الموت فسأعطيك إكليل الحياة » . ودعا ترتوليان Tertullian (ولد حوالى ١٥٠م) إخوته المسيحيين إلى الإحجام عن مشاغل العالم والإضراب عن خدمة الدولة على

أساس أن الإمبراطورية الرومانية تقوم على الإثم . كذلك جهر البعض من المسيحيين من رجالات الجيش بالعصيان والامتناع عن الاستمرار فى الخدمة العسكرية (٦) :

كل هذا أدى إلى تعميق شعور الريبة فى قلوب الرومان ضد هذه الطائفة التى بات أعضاؤها يلجأون إلى الكهوف وجحور الأرض يمارسون طقوساً غريبة وينشدون أدعيات غير مفهومة . وراحت غوغاء المدينة تروج روايات مختلفة عن تلك الطائفة السرية من أتباع المسيح المتزايدة العدد . واضطرت السلطات ، فى سبيل تهدئة خواطر الدهماء ، إلى تقديم أعداد من المسيحيين غذاء للأسود المجوعة فى الحلبة الرومانية . ولكن الجماعة المسيحية ازدادت صلابة وعناداً وراحت تفاخر « بإكليل الشهادة » الذى توج رؤوس من « رقدوا فى الرب » . والذى زاد النار ضراماً أن القرن الثالث للميلاد شهد نماء فكرة جديدة عند الرومان مؤداها أن آلهة الكابيتول قد غدت عطشى ، ولا بد من ريها وإطفاء ظمئها وغضبتها بدماء الذين أنكروها وكانوا لها جاحدين .

ولقد حار الكتاب فى تفسير تلك القسوة الرومانية وتلك الرياضة الوحشية التى لم تكن سوى مجازر مفزعة تقام فى السيرك لتلهية العامة والسوقة — بين حيوان وآخر أو بين حيوان وآدمى ، وأخيراً بين آدمى وآدمى . وهناك سجلات صادقة عن الاضطهادات التى لقيتها الكنيسة الأولى ما بين عهد نيرون فى القرن الأول وحكم دقلديانوس فى بداية القرن الرابع . ولكن هنالك أيضاً مبالغات مهولة فى أعداد الشهداء جاءت على لسان مؤرخى الكنيسة وبعض المؤرخين العوام . ولعله من سخريات التاريخ ، وتاريخ الكنيسة على وجه الخصوص ، أن مجموع الشهداء الذين سقطوا فى القرون الثلاثة الأولى فى عصر الاضطهاد لم يبلغ جزءاً على المائة ($\frac{1}{100}$) من عدد المسيحيين الذين أمرت الكنيسة الرومانية بقتلهم بحجة الهرطقة فيما بين القرنين الثالث عشر والسابع عشر ، من خلال محاكم التفتيش الإرهابية .

ومهما كان الأمر فقد امتدت موجة الاضطهاد فشملت معظم ولايات الإمبراطورية . على أن الكنيسة قامت من المحن المتتالية أشد ما تكون وزادتها القسوة صلابة وإيماناً

---

(٦) See Eusebius, The History of the Church, VIII, 2-15.

بعد أن تطهرت في كل هزة تعرضت لها من العناصر الضعيفة الإيمان التي خالجها الشك حيناً في معجزة الدين الجديد .

وتاريخ الكنيسة الأولى محوط بالكثير من الغموض والظلام على عكس ما يظنه الكثيرون منا . ومهما قيل من كلام فلا مفر من تقرير الواقع وهو أن الكنيسة في أول عهدها كانت وليدة مجتمع يهودى : فالمسيح هو ابن داوود النبى ، ومعلم المسيحية الأكبر بولس الرسول كان يهودياً ضالعاً ، كما وأن التعاليم المسيحية الأولى كانت موجهة لإصلاح مفاسد المجتمع اليهودى ، وأول كنيسة قد أسست أول ما أسست في أورشليم . على أن القرون الأولى لظهور المسيحية قد شهدت ثورة خطيرة ألا وهي انقلاب التعاليم المسيحية صراحة ضد اليهود . وهذا الشعور ليس بالجديد ولا بالمستغرب ؛ فجماعة اليهود عندما طلبوا من الحاكم الرومانى لولاية فلسطين وهو بيلاطس البونطى ، أن يقتل المسيح لم يكونوا في هذا يخططون للانتقام منه لأنه نادى بأنه ابن الله ، وإنما لأن بشارته كانت هدماً صريحاً للنظرية اليهودية القائلة بأنهم « شعب الله المختار » ، فهو قد أتى ليخلص الكافة لا الخاصة ، يهوداً كانوا أم أمميين . كذلك صرخ المسيح في وجه حاخاماتهم وفلاسفتهم : « ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراءون لأنكم تخلقون ملكوت السموات قدام الناس فلا تدخلون أنتم ولا تدعون الداخلين يدخلون . ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراءون لأنكم تأكلون بيوت الأرامل ، ولعلة تطيلون صلواتكم . لذلك تأخذون دينونة أعظم » . وفي مناسبة أخرى قال المعلم : « يا أورشليم ، يا أورشليم ، يا قاتلة الأنبياء وراجمة المرسلين إليها . كم مرة أردت أن أجمع أولادك كما تجمع الدجاجة فراخها تحت جناحيها ، ولم تريدوا . هو ذا بيتكم يترك خراباً » . وهو أيضاً الذى قال لهم : « مكتوب بيتي بيت الصلاة يدعى ، وأنتم جعلتموه مغارة لصوص » .

والحق أن الفترة بين استشهاد القديس بولس وبين اعتناق الإمبراطور قنسطنطين العظيم المسيحية هي نفس الفترة التي كانت الكنيسة فيها تعمل على نفض كل أثر يهودى عن كاهلها ، فصارت بذلك إغريقية الصبغة : فلغة الكنيسة التي ذاعت بها التعاليم المسيحية هي اليونانية ، كما وأن كل سجلاتها الباكرة كانت باليونانية أيضاً :

وكان الإمبراطور تيتوس[٧] ، قد هدم مدينة أورشليم فى عام ٧٠ م وحولها إلى كومة من رماد ، ولما أعيد بناء هذه المدينة أعطيت اسماً لا تينياً .

فى أثناء تلك الفترة المظلمة من تاريخ الكنيسة وضع الآباء الباكرون عدة نظم وقوانين يمكن أن نطلق عليها اسم « الدستور » الأول للبيعة المسيحية . كذلك راحت الكنيسة تتلمس لنفسها قانوناً للإيمان يتلوه كل من يقبل المعمودية . أما الكادر الخلقى الذى اتبعه المسيحيون فقد وجدوه فى أمثال وحكم المسيح ومواعظه على الجبل ، وفى سيرته أثناء ترحاله مع تلاميذه الاثنى عشر . ومن هذا قررت الكنيسة لنفسها الأسرار السبعة وهى : العماد ، الميرون ، التوبة ، التناول ، الزيجة ، مسحة المرضى ، ثم الكهنوت . وكانت الكنيسة الأولى مجمعاً « للإخوة فى الرب » أو الرعية أو القطيع الصالح ، وهى مسميات استخدمها المسيح ذاته ، استقاها من المجتمع الرعوى الذى نشأ فيه . وكانت اجتماعات الكنيسة تتم أول الأمر فى سرية ، أغلب الظن فى منزل واحد من الإخوة ، وفيما بعد كانوا يلتقون فى أحد المبانى العادية الخالية من أية صورة أو زينة . وعندما تعقبتهم السلطات ، تحايلت هذه الجماعة للحصول على ترخيص من السلطات الحاكمة باعتبار مقر اجتماعاتهم (الكنيسة) مدفناً من المدافن . ومن حول هذا المدفن راحت الجماعة تتوسع فى الأرض الفضاء الملاصقة واستغلتها فى دفن أعضائها الراحلين . أما فى روما فكانت الكهوف الأرضية تفى بالغرضين الصلاة والدفن معاً .

والانضمام إلى هذه الجماعة لا يتم إلا بعد العماد ، وهو طقس ليس بالجديد لأنه كان قائماً قبل مولد المسيح ، الذى أقره سراً من أسرار الكنيسة بعد أن اعتمد على يد يوحنا المعمدان فى نهر الأردن . وطبيعى أن الكنيسة راحت تحيط طقس

---

(٧) تيتوس : هو تيتوس فلافيوس سابينوس فسباسيانوس الذى حكم إمبراطوراً لروما من ٧٩ — ٨١ م . وكان قبل توليه الحكم شريكاً لأبيه الإمبراطور فسباسيان فى العرش . وفى عام ٧٠ قام تيتوس بحصار مدينة أورشليم ، ثم استولى عليها ودمرها . ولقد وقع تيتوس أثناء حروبه فى مملكة يهوذا فى حب برينيكه ابنة الملك هيرود أجريبا الأول ، وقد اصطحبها معه إلى روما . ولكن الرومان امتعضوا من أن يرتبط الإمبراطور بامرأة يهودية ، فاضطر تيتوس إلى طردها ، الأمر الذى عبر عنه سيوتونيوس بقوله : invitus, invitam ولقد كانت قصة تيتوس مع برينيكة مصدر الإلهام للكاتب راسين فى مأساته بعنوان « برينيكة » .

العماد هذا بهالة من الرهبة والقدسية لتدخل الروع والشعور بالإجلال فى قلوب الداخلين الجدد إلى حظيرة الإيمان المسيحى .

سر آخر اتبعته الكنيسة الأولى للجمع بين المؤمنين هو شركة التناول (اليوخارستيا) . والتناول هو مشاركة الأنقياء « المعترفين » من المؤمنين فى تناول القربان والخمر المقدس ، إعلاناً « للعهد الجديد » وإحياء لذكرى « العشاء الربانى الأخير » الذى أقامه المسيح لتلاميذه الاثنى عشر عشية القبض عليه ومحاكمته . وهذا الطقس لصيق بالكنيسة منذ نشأتها الأولى ، ولا نكاد نعرف وقتاً أغفلت فيه الكنيسة هذا السر ؛ الذى يرمز إلى قصة الآلام والصلب والدفن ثم القيامة من القبر فى اليوم الثالث ، وهو ترجمة لقول المسيح لتلاميذه أثناء « العشاء الأخير : « خذوا كلوا . هذا هو جسدى . وأخذ الكأس وشكر وأعطاهم قائلا : اشربوا منها كلكم ؛ لأن هذا هو دمى الذى للعهد الجديد الذى يسفك من أجل كثيرين لمغفرة الخطايا » . وبمرور الزمن أصبحت الكنيسة تؤمن بمبدأ « التحول » Consubstantiatio ؛ أى أن هذا القربان وذاك الخمر « يتحولان » بالفعل إلى جسد ودم السيد المسيح .

كذلك عكفت الكنيسة الأولى على ترتيب سجلاتها وهى تتلمس طريقها نحو وضع قانون كنسى تسير على هديه . وقبل أن ينتهى القرن الثالث كانت الكنيسة قد أقنعت جماعة المؤمنين أن بعضاً وافراً من سجلاتها لم يكن مجرد كتابات تاريخية وإنما هى إلهامات من الروح القدس الناطق بالحق . ولقد وجدت فى « العهد القديم » سجلاً للتاريخ البشرى منذ سحيق الأزمان فلم تتردد فى إضافته إلى « العهد الجديد » ؛ ولكنها طلقت بعضاً من هذه السجلات دون أن تدينها صراحة على زعم أنها زائفة أو مدسوسة (أبوكريفاسكريبتا Apocrypha Scripta « والعهد الجديد » يشتمل على الأناجيل الأربعة لمرقص ومتى ولوقا ويوحنا ؛ إلى جانب أعمال الرسل ورسائل القديس بولس ثم سفر الرؤيا ليوحنا اللاهوتى . وهناك قول بأن إنجيل مرقص هو من وضع القديس بطرس نفسه ، ومهما كان الأمر فهو يرجع إلى عام ٦٠ م . أما بقية أجزاء « العهد الجديد » فلم تكتمل حتى نهاية القرن الثانى . وأما القانون الكنسى فلم يتبلور تماماً حتى القرن الرابع .

سر آخر من أسرار الكنيسة الأولى هو الكهنوت . والكهانة ليست من ابتداع

المسيحية ، فبعض نبلاء الرومان كانوا كهنة Flamen لبعض الآلهة ، وكان « المواطن الأول » لروما يحمل من بين ألقابه الأخرى لقب « الكاهن الأعظم» Pontifex Maximus ولكن المسيحية قد اقتبست — على ما يبدو — بعض السمات من الكهانة المصرية القديمة ومن فارس أيضاً ، ويتضح ذلك فى تلك الوساطة التى خلعتها الكنيسة على رجال الإكليروس فى الطقوس التى تصل العباد بالخالق . وما إن حل القرن الثالث حتى صار أساقفة الكنيسة كهنة وحكاماً فى آن واحد ، زاعمين فى هذا أنهم ورثة الرسل تلاميذ المسيح :

« ثم دعا تلاميذه الاثنى عشر وأعطاهم سلطاناً على أرواح نجسة حتى يخرجوها ويشفوا كل مرض وكل ضعف . . . . وفيما أنتم ذاهبون اكرزوا قائلين أنه قد اقترب ملكوت السموات . . . . ليس التلميذ أفضل من المعلم ولا العبد أفضل من سيده ... الذى أقوله لكم فى الظلمة قولوه فى النور . والذى تسمعونه فى الأذن نادوا به على السطوح . ولا تخافوا من الذين يقتلون الجسد ولكن النفس لا يقدرون أن يقتلوها... وأما أنتم فحتى شعور رؤوسكم جميعها محصاة . فلا تخافوا . . . »

حتى عام ٣٠٠ لم يكن هناك خط واضح يفصل بين قوامة الإيمان « الأرثوذكسية » وبين الخروج على هذا الإيمان « الهترودوكسية » أو إن شئت قل الهرطقة . والهرطقة كلمة يونانية الأصل (Airesis) ومعناها الرأى الفردى الخاص الذى لا يتساوق مع آراء آباء الكنيسة الذين توثقت إيمانهم « بفعل الروح القدس » . ولما كانت المسيحية قد غزت أقطاراً متباينة فى تاريخها وحضارتها وسكانها ، كان ضرورياً أن تتباين أيضاً وجهات نظر كل قطر فى بعض المسائل اللاهوتية الغامضة التى نادت بها الديانة الوافدة . ولكن الكنيسة سرعان ما بلورت لها قانوناً للإيمان ، صار الاعتراف به مقياساً للأرثوذكسية ، وأما من انحرف عن قواعد هذا القانون فهو مهرطق (Hairetikos) أو « أخ قد فسد » . ولعل أقدم هؤلاء « الإخوة الفاسدين » هم جماعة الغنوصيين Gnostics ، واسمهم مشتق من كلمة يونانية معناها « المعرفة » . ولقد اعترض الغنوصيون على « العهد القديم » ، وخلطوا العقيدة ببعض الديانات الشرقية القديمة وبمذاهب فلسفية إغريقية . وقد نادوا بمبدأ « الازدواج » فى الكون : فهناك مصدر الخير المطلق ممثلا فى الله ، ثم هناك المادة الأزلية مصدر كل الشرور.

. . . . .

وبين هذين المطلقين للخير والشر توجد خلائق لا مادية (Eons) وهى أدوات الخلق فى هذا العالم . والجسد عند الغنوصيين فاسد كلية ؛ وعلى هذا فإن المسيح لم يتخذ من هذا الجسد شيئاً سوى الصورة (Dokein) . وواجب المؤمن أن يهمل الجسد ويعلى عليه الروح عن طريق حياة الزهد والتقشف المتطرفة .

اتبع آباء الكنيسة سياسة اتسمت بالحذر والحسم فى محاوله الحفاظ على وحدتها، واستماتت فى سبيل تثبيت ركائز العقيدة السليمة . وكانت الكنيسة فى واقع الأمر بين نارين : كيد الوثنيين من جانب ومكر الإخوة الذين زاغوا عن الإيمان من جانب آخر . ولقد رحب الكثيرون من هؤلاء الآباء الأولين بالموت فى سبيل إيمانهم ، وكان منهم اجناتيوس[٨] وجوستن[٩] وكبريان[١٠] ، ومن بين الآباء العمالقة أيضاً

---

(٨) اجناتيوس : هو من أوائل الشهداء ، ويعرف أيضاً باسم ثيوفوروس أى « حامل الله » . ويرجح أنه من أصل سورى ، وترى فيه الأسطورة نفس الطفل الذى « دعاه المسيح إليه وأقامه فى وسط تلاميذه قائلا لهم : إن لم ترجعوا وتصيروا مثل الأولاد فلن تدخلوا ملكوت السموات » . وهو ثانى أو ثالث أساقفة أنطاكية . وعندما تقادم فى العمر حكمت عليه السلطات الرومانية بالموت وأرسل إلى روما ليلقى للوحوش المفترسة فى ألعاب السيرك وفى خلال رحلة الآلام هذه كتب رسائله الشهيرة السبع . وقد توقف الركب عند سميرنا حيث التقى أجناتيوس بالقديس بوليكارب — الذى كان وقتها شاباً صغيراً . وأهم ماجاء فى رسائل أجناتيوس الموجهة إلى مسيحيى أفيسوس وما غنيزيا وترالس وروما وفيلادلفيا وسميرنا أن يحرصوا على وحدتهم الأخوية فى شركة التناول تحت رياسة أساقفتهم . وفى روما استشهد القديس بالطريقة البشعة التى أعدتها له السلطات الرومانية كما سبق القول ، وذلك فى عام ١٠٧م .

(٩) جوستن : ولد فى نابلس فى عام ١٠٠ م تقريباً لعائلة يونانية وثنية . ولقد درس الفلسفة ثم تعرف على المسيحية من خلال تعمقه فى الأفلاطونية . وبعدها راح يبشر بكلمة الإنجيل من بلد لآخر . ولقد زار روما مرتين ، وفى الزيارة الثانية للعاصمة قبض عليه وقطعت رأسه بسبب تعاليمه المسيحية ، وذلك فى عام ١٦٥ م . وقصة محاكمته على يد حاكم روما (رستيكوس) ثابتة تاريخياً ولا شك فيها . ولقد قال للحاكم : « إن من يملك عقلا رشيداً لا يقبل أن يمتهن ذاته فيعبد الأوثان؛ لأنه بهذا يجافى الحق وينحاز للضلال — افعلوا معنا ما تبغون، فنحن مسيحيون وسنموت على مسيحيتنا » .

(١٠) كبريان كبريان : ولد فى تونس فى عام ٢٠٠ تقريباً . ولقد أمضى معظم حياته فى المحاماة وتلقين الخطابة فى قرطاجة ، واعتنق المسيحية وهو فى السادسة والأربعين من العمر ، وبعد ذلك بعامين عين أسقفاً لقرطاجة . وعندما زحف الإمبراطور دكيوس فى عام ٢٤٩ ليقضى على المسيحيين اختبأ كبريان ، مما جر عليه الكثير من النقد والتجريح من جانب بعض المسيحيين الغلاة . وبعد وفاة دكيوس فى عام ٢٥١ اشترك

ترتوليان ؛ هذا الإفريقي الثائر الذى ولد فى قرطاجة عام ١٥٠ م . وكان ترتوليان ابناً لعائلة وثنية . ولا نعرف كيف اعتنق المسيحية ، ولكنا نعلم أنه أصبح من رجال الإكليروس . وكان ترتوليان ضالعاً فى الفلسفة والعلوم والقانون ؛ كما وأن شخصيته كانت ذات سحر أخاذ . وأهم إنتاج مبكر له كتاب بعنوان Aplogeticus فى عام ١٩٧م ؛ دافع فيه عن المسيحيين ضد ظلم واضطهاد الحكام الرومان ، وفى الكتاب أيضاً دفاع عن نفسه عند ما قدم للمحاكمة . ومقولاته الأخرى التى كتبها ترسم المثل التى يجب أن يتحلى بها المسيحى فى حياته وسط مجتمع وثنى ؛ ومنها تتضح النزعة النسكية فى حياة ترتوليان . ولقد كان ترتوليان قاسياً مع الساقطين والساقطات وأنكر عليهم نوال الغفران عن طريق التوبة . ويرجع موقفه المتشدد هذا إلى اتباعه تعاليم « المتطهرين » Puritans من جماعة مونتان الفريجى الذى نادى أتباعه بأنه « تجسيد للروح القدس » . وقد أفلت ترتوليان من أيدى الوثنيين بمعجزة .

أما أورجين السكندرى (١٨٥ — ٢٥٤) فكان أعلم الآباء الباكرين وأعمقهم فكراً . وقد اضطر إلى قضاء معظم سنى حياته مختبئاً ، وهو فى نهاية الأمر يموت فى السجن . وأورجين هذا رائد اللاهوتيات النسكية ، التى تنبنى على أساسين : « طريق النفى » ، ثم مبدأ « التماس » أو « الاتحاد » . والركن الأول فى فلسفة أورجين يرى أن الله أعلى من أن يدركه العقل البشرى ، وأعظم من أن تعبر عنه لغة الأرض ؛ ولهذا يجب استخدام أسلوب النفى لا الإثبات فى الحديث عن الله فلا نقول — مثلا « الله المرئى » بل نقول « الله الذى لا يرى » . والأساس الثانى

كبريان مع البابا كورنليوس فى معارضة المذهب المتشدد الذى نادى به نوفاتيان . على أن القديس وقع فى خلاف شديد مع البابا ستيفن الأول لأن البابوية كانت لا توافق كبريان فى إصراره على إعادة عماد الهراطقة الذين يتوبون ويعودون إلى حظيرة الأرثوذكسية . وكان كبريان عطوفاً على شعبه خاصة وقت الوباء الأسود الذى حل بقرطاجة فى عام ٢٥٢ ، والذى عزاه الوثنيون إلى غضب الآلهة من أفعال الجماعة المسيحية . وكان كبريان متواضعاً ، ولم يقدم على اتخاذ قرار هام دون مشورة من رعيته وقسيسيه . وعندما اشتدت موجة الاضطهاد ضد المسيحيين من جديد على يد الإمبراطور فالريان فى عام ٢٥٨ ، قبض على كبريان وحكم عليه بالنفى إلى كوروبس . ثم أعيدت محاكته فى قرطاجة وحكم عليه واقتيد القديس وسط جموع غفيرة إلى ساحة سكستوس : وهناك خلع ملابسه وركع يصلى ، ثم تبرع بمبلغ من المطاء كريم للجلاد الذى كلف بقطع عنقه ، وعصب القديس عينيه بنفسه وقدم رأسه للجلاد فى ثبات أذهل الجميع من حوله .

يدعو المؤمن إلى الخلود إلى التأمل والصلاة الهادئة التى ترفع روح المؤمن إلى مرحلة من الذوبان فى الله . وهذه نزعة صوفية بحتة أثرت كثيراً على الكنيسة المصرية فيما تلا من تاريخ . هذه الآراء قد أثارت حول أورجين شبهات كثيرة وأشارت إليه بعض الأصابع لتدمغه بالهرطقة ، ولكن أحداً لم يجرؤ على إدانته .

ومن خلال المجادلات العنيفة التى قامت بين الآباء وعلى ضوء القرارات التى اتخذوها فى مجالسهم ومجامعهم بدأت تتبلور مفاهيم الكاثوليكية ، وهى كلمة مرادفة للأرثوذكسية . ومعنى الكلمة الأصلى – كما استخدمت لأول مرة فى القرن الثانى – هو الشمول والعالمية . ولقد زعم الآباء الكاثوليك (الأرثوذكس) أن هنالك خيطاً يصلهم بالرسل أنفسهم : فقد كان أرينايوس[١١] تلميذاً من تلامذة بوليكارب[١٢] . الذى كانت له نعمة الحديث مع تلميذ المسيح وحبيبه القديس يوحنا اللاهوتى ذاته . كما وأن كلمنس الأول أسقف روما (٩٠–٩٩) كان – أغلب الظن – قد تعرف على القديس بولس ، وربما أيضاً على القديس بطرس . إنه خيط رفيع للغاية يمكن للبعض أن يطعن فى صلابته ، ولكن الكنيسة تمسكت به فى إيمان واستماتة راسخين .

---

(١١) أرينايوس : ولد ببلدة سميرنا فى عام ١٣٠ تقريباً وتوفى فى ليون فى عام ٢٠٢ . ولقد تأثر أرينايوس فى صدر شبابه بتعاليم بوليكارب ووعى كلماته « لا على الورق وإنما داخل القلب » . ثم ترك آسيا الصغرى ورسم قسيساً فى مدينة ليون على عهد ماركوس أوريليوس . وبعد استشهاد القديس بوثينوس خلفه ارينايوس أسقفاً لأبروشيته ليون . وأهم كتابات أرينايوس مقولته التى هاجم فيها الغنوصيين بعنوان Adversus Haereses .

(١٢) بوليكارب : توفى هذا القديس شهيداً فى مدينة سميرنا فى عام ١٥٥ . ولقد عاش بوليكارب عمراً طويلا ، ويحدثنا تلميذه أرينايوس أنه « حصل على نعمة معرفة يوحنا اللاهوتى حبيب المسيح » . كذلك كان القديس أجناتيوس الإنطاكى قد أرسل إليه برسالة – وهو بعد فى سن الشباب – ليقويه فى الإيمان . ولقد وقع القديس فى أيدى السلطات الرومانية بفعل خيانة أحد خدمه . واقتاده البروقنصل إلى أحد النوادى وسط جمهور من غوغاء سميرنا . وهناك طلب منه هذا الحاكم أن ينكر مسيحيته وأن « يلعن مسيحه » ، ولكن الرجل رد عليه بقوله : « لقد كنت خادماً للمسيح قرابة تسعين عاماً ، وهو يرعانى ، فكيف لى أن أجدف بمليكى ومخلصى يسوع ؟ » وهنا هتفت الغوغاء تطالب بدماء هذا المسيحى المتعجرف « الذى يحطم آلهتنا » . وعليه فقد حكم عليه البروقنصل بأن يحرق حيا . وقبل أن يخضع القديس للاستشهاد بالنار ركع وصلى شاكراً الله « ولكنه ما أن أختتم صلاته « آمين » حتى اتخذت اللهب شكل أحد البواكى وأحاطت بجسد القديس من بعيد دون أن تمسه ، وبدا للناظرين لا كاللحم المحترق وإنما كالخبز فى داخل الفرن ، أو كالذهب عندما تصقله النار » . ولقد أمر البروقنصل الجلاد أن يجهز على القديس بطعنة خنجره ، ليطمس فى مخيلة الغوغاء المعجزة التى كانت تتم أمام عيونهم .

ولقد شهدت القرون الثلاثة الأولى للمسيحية تغيرات وتطورات ومجادلات عنيفة ، مما يدعو المرء أحياناً إلى الظن بأن رسل المسيح — هؤلاء الرجال البسطاء من صيادى الجليل — لو كانوا قد عاشوا ليروا ما صارت عليه تعاليمهم التى بشروا بها لفغرت أفواههم من الدهشة البالغة ، إن لم يكن من شدة الحيرة . ومضت الكنيسة فى طريقها وهى تعتقد اعتقاداً راسخاً أنها مسيرة بإلهام الروح القدس ، ولم يتزعزع إيمانها هذا لحظة واحدة ولا طرفة عين .

إن مجتمعاً كنسيًّا بهذه الطاقة الروحية الهائلة وبهذه الروح الملتهبة حبًّا فى الاستشهاد لم يكن خصماً هيناً للقياصرة وربتهم روما ، خاصة وأن المجتمع الرومانى كان قد جف فى الفكر واعتل خلقاً وروحاً . وكان نظام التعليم فى شتى أرجاء الإمبراطورية عقيماً يهتم فى الدرجة الأولى بالبيان والخطابة . واضطلع بهذه المهمة الأساتذة الأغارقة الذين كان لديهم من القدرة أن يجادلوا ويجادلوا فى لا شىء فهم يلوكون العبارات ساعات طوالا فى ألفاظ منمقة ولكنها خاوية لا مادة فيها ولا دسم . ولئن أخذتهم جادة العلم فإنهم يقلبون فى أفكار العصر الذهبى (القرنين الخامس والرابع ق.م .) ثم يتقيأونها من جديد ، ممسوخة فى أغلب الأحايين ، دون إضافة فكرية أصيلة واحدة تستحق التسجيل .

لم تقدم الكنيسة دفعة واحدة على إدانة الفكر الوثنى برمته ، خاصة وأنه لم يكن هنالك بعد تراث مسيحى خاص يطالعه الشباب المسيحيون . ومنذ تأسيس القسطنطينية فى عام ٣٣٠ بدأ أثر الثقافة اليونانية يقل فى النصف الغربى للإمبراطورية ، وعلى التدريج نسى الناس اللغة اليونانية : فالقديس أغسطينوس نفسه يعترف أنه برغم قراءته أفلاطون إلا أن معرفته باليونانية ظلت هزيلة . أما فى النصف الشرقى للإمبراطورية فقد ظل اللسان اليونانى حيًّا ، ولكن مما يلفت النظر حقًّا أن لفظة « هلينى » فى القرن الخامس صارت مرادفة لكلمة « وثنى » .

أما أخلاقيات المجتمع الرومانى الوثنى فى القرون الثلاثة الأولى للميلاد فقد كانت على درجة بالغة من السوء ، وبخاصة فى العاصمة فمنذ القرن الثانى قبل الميلاد كان الساسة الديماجوجيون قد أدخلوا نظاماً يقضى بتزويد رعاع العاصمة والعاطلين بالقمح الرخيص . ثم تطورت الأمور فصار القمح يصرف للغوغاء دقيقاً ، وتحت إلحاحهم

حصلوا عليه مصنعاً أخبازا مجانية . وبالتدريج حصلت هذه الفئات على لحم الخنزير والأنبذة مع هذا الخبز . وازداد هؤلاء طمعاً ، فألحوا على دخول السيرك للاستمتاع بالمشاهدة دون أن يدفعوا مقابلا . ولقد كانت الغوغاء هى المحرك الأول للشغب والعنف داخل السيرك (الهبدروم) وفى الساحات العامة أيام الأعياد والاحتفالات . ونحن نعلم أن عدد المناسبات التى كانت تقام فيها احتفالات الصخب والمجون على مدار العام فى القرن الثالث قد بلغت مائة وخمس وسبعين يوماً . وفى كل مناسبة من هذه المناسبات الصاخبة كانت تراق دماء البعض من الأبرياء من الجماعة المسيحية لإدخال المتعة على قلوب الدهماء ولإرضاء شهوة جوبيتر وآل بيته فى الكابيتول .

وعند ما نقل قنسطنطين عاصمة الإمبراطورية إلى بيزنطيوم على ضفاف البسفور ، كان عليه أن ينعم على غوغاء العاصمة الجديدة بما اعتادت عليه غوغاء العاصمة القديمة من نعم . واستمرأت العامة على الكسل وتلذذت بالبطالة وشغب الهبدروم ، كل هذا على حساب عرق ودماء الفلاحين ودافعى الضرائب فى الولايات الإمبراطورية ، الذين فقدوا كل أمل فى العدالة بعد أن رأوا ثمار سواعدهم تبعثر على هذه الشاكلة القميئة .

وإذا انتقلنا إلى العراء الروحى الذى أصاب المجتمع الرومانى نجد أن الآلهة القدامى قد أفلسوا :

أبوللون ، أين أنت يا سيد المحراب
لقد صم الإله وفى الوحى قد خاب
دلفى باتت خرابا ، وربها فى عويل بلا مآب[١٣]

والحق أن مثراس والربة إيزيس وأزوريس كانوا منبعاً للشعوذة التى تفشت فى حياة الناس ، فكانوا يعيشون على السحر أبيضه وأسوده وعلى الوحى الكاذب . ولما جاءت المسيحية أعلنت حرباً شعواء على هذه الخرافات وجاءت أجزاء من الكتاب

(١٣) Apollo from his Shrine,
Can no more divine,
With hollow shriek the step of Delphos leaving.

المقدس لتبث الرعب فى القلوب فتوعدتهم بأتون النار السرمدى إن هم أصروا على هذه الشعوذات :

« هذا يقوله ابن الله الذى له عينان كلهيب نار ورجلاه مثل النحاس النقى ... لكن عندى عليك قليل إنك تسيب المرأة إيزابل التى تقول إنها نبية حتى تعلم وتغوى عبيدى أن يزنوا ويأكلوا ما ذبح للأوثان . وأعطيتها زماناً لكى تتوب عن زناها ولم تتب . ها أنا ألقيها فى فراش والذين يزنون معها فى ضيقة عظيمة إن كانوا لا يتوبون عن أعمالهم . وأولادها أقتلهم بالموت . . . »

أما الديانة الرسمية للإمبراطورية الرومانية فقد كانت ديانة فستا Vesta ربة النار ، التى كان يقوم على خدمتها وضمان اشتعال النار المقدسة فى معبدها ست من العذارى . وكان من واجبات هؤلاء العذارى أيضاً إعداد الفطائر المالحة mola Salsa فى الأعياد . وهؤلاء العذارى Vestals كن يخترن من بيوت النبالة ، وكن يقمن فى دار بجوار الفورم Forum (السوق) عرف باسم Atrium Vestae ، وكن يتلقين أخبازهن من الدولة . ولئن ثبت على إحداهن الخروج على قواعد العفة والطهر دفنت حية فى بطن الأرض تحت المعبد فى حجرة عرفت باسم Campus Sceleratus . وإلى جانب جماعة العذارى هذه كانت هنالك كلية « الاستخارة » ، التى كان كهنتها يستطلعون رأى الآلهة فى المشروعات الخطيرة التى تقدم عليها الدولة . كذلك كانت توجد جماعة الكهنة ورئيسهم الكاهن الأعظم ، الذين كانت مهمتهم دراسة التقاويم وتحديد تواريخ الاحتفالات والأعياد وربط الأيام بأبرز الأساطير القديمة والأحداث الهامة ، وتحديد سعيدها fasti من تعيسها nefasti ، وعلى هذا كانوا يقررون الأيام التى بها نذير شر والأخرى التى تبشر بالخير .

حافظ الرومانى على هذه العقائد لا لأن كل رومانى كان يؤمن بها إيماناً قاطعاً ، وإنما يرجع هذا إلى حقيقة أن مزاج الشعب الرومانى كان محافظاً بطبعه .

بقى أن نلقى نظرة على أحوال الإمبراطورية الاقتصادية والإدارية قبيل انهيارها.

امتدت الإمبراطورية الرومانية من نهر تاين Tyne جنوب أسكتلندة إلى نهر الدجلة ، ومن الصحراء الكبرى إلى جبال الكربات . وكانت شبكة من الطرق

الممهدة تغطى هذا الاتساع . ولقد زودت هذه الطرق بمحطات كانت مهمتها تأجير الخيول للمسافرين والتجار بأسعار معقولة . وكان الإغريق والرومان أهل مدن ، وكانت هذه المدن علامة التحضر والفخار فى الإمبراطورية الرومانية . وكانت المدينة (Polis, Civitas) تحوى بيت العدل أو البازيليقا (Basilica) والمعابد والمسارح والسوق والحمامات العامة . وكان « السلام الرومانى» Pax Romana يسود أرجاء الإمبراطورية مما هيأ ظروفاً ملائمة لانتعاش الأحوال التجارية قبل أن تهدد الإمبراطورية نذر المتبربرين .

أما فى الريف حيث كانت تقوم الزراعة وتربية الماشية والتعدين ، فكان عبء العمل يقع كله العبيد . وكان أقل صغار الملاك يملكون عبداً أو عبدين ، فى حين أن كبار الملاك كانوا يملكون آلافاً من العبيد . وكانت الثروة المادية التى نعرفها اليوم برأس المال تقوم أساسا على الملكية الزراعية . على أن إنتاج المواد الضرورية للمجتمع الرومانى كان أقل بكثير من إنتاج سلع الرفاهية . وكانت إذا حلت ضائقة بأحد الملاك لجأ إلى الاستدانة من الملاك الموسرين أو من جماعة المرابين الذين كانوا يتقاضون أرباحا بلغت قيمتها ١٢٪ ويزيد . وإذا فشل المدين فى دفع ما عليه من مال وفوائد ضاعت عليه أرضه . وكانت الإمبراطورية الرومانية تعانى من تناقص واضح فى السكان ، ونحن نعلم أن الإمبراطور ماركوس أوريليوس (١٦١ — ١٨٠) قد استقدم جماعات من البرابرة ليستوطنوا ويعمروا الولايات الشمالية الشرقية للإمبراطورية وبعد ذلك بمائة عام اضطر الإمبراطور أوريليان إلى أن يتخلى عن ولاية داكيا Dacia للمتبربرين وأن يتراجع بحدود الامبراطورية إلى نهر الدانوب .

وفى القرن الثالث كان سكان الإمبراطورية يضجون من نظام الضرائب التى ازدادت وطأتها على كواهلهم : فقبل عهد دقلديانوس كان هناك بلاط إمبراطورى واحد ، وجيش رومانى واحد ، وإدارة حكومية واحدة ؛ ولكن منذ عهد دقلديانوس وتقسيماته الجديدة للإمبراطورية إلى اثنتى عشرة ولاية لكل منها حاكمها وحكومتها وجيشها وقعت أعباء تمويل هذه الحكومات والجيوش والأجهزة البيروقراطية المتعددة جميعاً على كاهل دافع الضرائب التعس . ثم إن هذه الجيوش المتعددة سرعان ما وقعت فى حروب طاحنة ضد بعضها الآخر بسبب طمع قادتها فى الحكم . واستتبع

هذا الموقف زيادة فى عدد السياسيين المتعطلين من تجار السياسة الذين كانوا يلقون بتأييدهم تارة مع هذا الفيلق وأخرى مع تلك الفرقة ، فى مقابل رشوة مالية دسمة . وكل هذه الأعباء كانت فى حقيقة الأمر تقع على دافعى الضرائب . هذا إلى جانب ما كان موظفو الإدارة الرومانية فى الولايات الإمبراطورية قد فرضوه من « هدايا » على الموسرين وغير الموسرين من سكان هذه الولايات .

وكانت العائلات السيناتورية معفاة من الضرائب لا عن ضياعها الإيطالية فحسب وإنما أيضاً عن الضياع التى تملكها خارج حدود أيطاليا . وفى القرن الرابع غدت رتبة السيناتورية مجرد لقب شرفى يمين به « المواطن الأول » على من يشاء من أتباعه وخلصائه ، وقد كان سخياً فى هذا . وكان ذلك يعنى — اقتصادياً — أن العديد من الضياع التى كانت تدفع عنها الضرائب صارت معفاة من الضريبة . وهكذا وقع عبء دخل الخزانة الإمبراطورية على الطبقة الوسطى فيما عرف باسم ضريبة الا Annona التى كانت تدفع عينية من القمح . كذلك فرضت الحكومة الرومانية على صغار الملاك ضريبة أخرى وألزمت كل مدينة بالتضامن فى دفع حاصل هذه الضريبة المقررة عليها كاملة ، وألقت بمسئولية توفية دفعها على هيئة مواطنى المدينة المنتخبين (Curiales) . وكان معنى هذا أن أفراد الطبقة الوسطى من ملاك الأراضى — وهم العمود الفقرى للإمبراطورية — قد قصمت ظهورهم بما لا يطيقون من ثقل ضريبى متعسف .

وقد أفاد السيناتوريون من الخراب الذى حل بالطبقة الوسطى فابتلعوا الملكيات الصغرى فى القرنين الرابع والخامس . والأدهى من هذا بالنسبة لخزانة الدولة أن تحايل الكثيرون على جامعى الضرائب بالتنازل عن أراضيهم للأقوياء من أعضاء السيناتو فلا تجبى عليها ضرائب ، وفى مقابل ذلك كان عضو السيناتو يحصل مبلغا من المال من صاحب الأرض ليسمح له بالاستمرار فى زراعتها . حقيقة أن الدولة كانت تكافح تفشى هذا النظام الذى عرف باسم Patrocinium ، ولكن الطبقة الارستقراطية كانت تعرف كيف تحشو جيوب القضاة وجامعى الضرائب برشوة دسمة . لقد استشرى الفساد بين رجال العدالة ، حتى إن أحد الفكهاء فى القرن الرابع قد نادى بضرورة إصدار قانون يحرم على القضاة قبول دعوات حفلات العشاء على مآدب السيناتوريين .

وعلى هذا المنوال خضعت قرى بكاملها تحت سطوة الاستقراطية الرومانية الجشعة ، وضاعت على الخزانة كل الضرائب التى كانت تجبى سابقاً عليها . ولقد ألهبت الحكومة ظهور من تبقوا من صغار الملاك الأحرار بضرائب جديدة لتعوض ما التهمته بطون الشيوخ .

ولما انتصرت المسيحية على عهد قنسطنطين العظيم وأعفيت أراضيها وأوقافها من الضرائب ، راحت هى الأخرى تبسط جناحيها على أراض لا تحصى ولا تعد لتعفيها من الضرائب . ولم يتعفف التاج ذاته عن هذا الإثم ، إذ كان الإمبراطور — وهو لا يدفع ضرائب عن وساياه — كثيراً ما يضع مثل هذه الأراضى تحت لوائه لتعفى من دفع الضريبة لخزانة الحكومة .

وعندما قل دخل الخزانة أثقلت الحكومة على البقية الباقية من دافعى الضرائب ، ولكن الناس كانوا قد أرهقوا بما فيه الكفاية فلم يتورعوا عن أن يمطروا جامعى الضرائب — إذا ما حلوا بقراهم — بوابل من السباب والحجارة . ولكن الحكومة أرهبتهم بالقوانين المجحفة لتبقيهم حيث هم « البقرة الحلوب » ولم تدر السلطات أن اللبن قد جف من ضرعها . ومضت الحكومة فى سياستها الظالمة فحرمت عليهم بيع الأرض أو التنازل عنها ، كما منعتهم من ممارسة حرفة أخرى غير الزراعة ، ثم أغلقت فى وجوههم باب الدخول إلى الجندية . ولا ندهش إن علمنا أن الكثيرين قد هربوا سراً من بيوتهم وذويهم وعملوا عبيداً عند النبلاء . والأدهى من هذا أن الحكومة أصدرت قانوناً يجعل هذه الطبقة (Decūrio) وراثية ؛ وكان هذا يعنى أن الأبناء يرثون تعاسة الآباء ، مما خلق عزوفا فى قلوب هذه الطبقة عن الرغبة فى الإنجاب كلية .

هذه المأساة التى حولت خير طبقة فى العالم الرومانى — الطبقة الوسطى التى هى عماد الدولة — إلى عبودية ممقوتة كانت واحدة من العوامل الكبرى فى هدم كيان الإمبراطورية الرومانية .

ولم تكن الحال بأحسن حالا مع التجار وأرباب الحرف : ففى نهاية القرن الثالث صدر قانون يقضى بمبدأ الوراثة بين أرباب الحرف فصارت الحرفة بذلك إلزاماً وكادراً

طبقيًّا (Status) . وكان ذلك يعنى أن أبناء الخباز مثلا لابد وأن يستمروا خبازين إلى الأبد ، وأن أبناء بائعى اللحوم لابد وأن يصبحوا قصابين هم أيضاً ، رغبوا فى ذلك أم كرهوا .

وكنا قد قلنا فى مكان سابق أن ظاهرة وفرة العبيد كانت دليلا على الرخاء ووفرة مجالات العمل فى الإمبراطورية ، ولكن الظاهرة الجديدة هي أن عدد العبيد أخذ يتناقص بشكل ملحوظ ، مما يدل على أن عدد الموسرين قد تناقص تباعا . لم يكن ملاك الأرض بعد بقادرين على شراء العبيد ولا حتى على إطعام أفواه القلة من الذين بقوا فى حوزتهم . واختفت جماعات العبيد التى كانت تعمل فى الضياع السيناتورية فى كل من إيطاليا وغالة وإسبانيا . ولقد نتج عن هذا تطور هام ظل صفة مميزة للحياة الاقتصادية فى أوربا على مدار العصور الوسطى : فلقد اضطر أصحاب الأرض إلى إبرام عقود مع الفقراء من جيرانهم بل ومع عبيدهم المعتقين على أن يقوم هؤلاء بحرث الأرض وزراعتها مقابل نسبه معينة من المحصول ، وسمح لهم بجزء صغير من الأرض يزرعونه لحسابهم مقابل العمل على أرض هذا السيد أو ذاك . وعرف هؤلاء الأجراء باسم Coloni وهم البذرة الأولى للقنية أو جماعة الأقنان Serfdom من زراع الأرض المرتبطين بها فى مجتمع غرب أوربا الإقطاعى . وقد استقدم أصحاب الأرض فى القرن الخامس بعض المتبربرين لزراعة أراضيهم بنفس الشروط السابقة ، وعرف هؤلاء باسم Inquilini .

والواقع أنه لولا هذا النظام لاختفت الزراعة كلية من غرب أوربا فى القرن الخامس . وقد شجعت الدولة هذا الاتجاه فوزعت الأراضى البور والمهجورة المجاورة للأراضى المنتزعة على الملاك ليقوموا باستصلاحها ودفع ضريبة مخففة عنها .

وأما عن الجالس على عرش الإمبراطورية الرومانية — القيصر المؤله Divus Caesar — فقد حدثت فى وضعه هو أيضاً تغيرات خطيرة ابتداء من عصر أوريليان (٢٧٠ — ٢٧٥) . لقد كان « المواطن الأول » — منذ عهد أوكتافيانوس أغسطس — يجمع فى يديه كل سلطات الجمهورية ، ولكن القضاء على بيت يوليو — كلوديوس وآل فلاڤيوس فى القرن الأول قد حال دون قيام ملكية وراثية فى روما . وفى

القرن الثانى كان التقليد أن يتبنى الأباطرة من يخلفهم على العرش . أما فى القرن الثالث فقد أصبح « المواطن الأول » هو ذاك المرشح الذى تنادى به الفصائل الرومانية ودهماء العاصمة ، وكثيراً ما كان مرشح الأمس أضحية اليوم . ولقد نجح بعض الضباط المبرزين وأيضاً بعض الأوغاد الماكرين فى شراء منصب « المواطن الأول » برشوة أفراد الحرس البرايتورى .

وفى سنة ٢٨٤ رفع الجند فلاحاً من دلماشيا هو دقلديانوس ليجلس على عرش الإمبراطورية . وحكم عشرين عاماً أدخل خلالها إصلاحات هائلة فى جهاز الدولة المتهالك . وجاء من بعده قنسطنطين فحكم ثلاثين عاما . وعلى عهدى هذين الامبراطورين نجد أن « المواطن الأول » قد تحول علانية إلى حاكم أبد ، إلى سلطان على المنوال الفرعونى أو الفارسى أو البطلمى .

والعلامة الأخرى التى ميزت هذه الفترة الدقلديانو — قنسطنطينية هى حقيقة أن الإمبراطورية قد انقسمت بالفعل إلى نصفين واحد شرقى وآخر غربى ، وأن الجيش والجيش وحده هو الذى صار يحكم الإمبراطورية سواء فى الوظائف الإدارية الكبرى أو فى بلاط الإمبراطور . وأن الضرائب كلها كانت تسخر لإرضاء الجيش ورجالاته فحسب .

والحقيقة الأخرى هى أن العاصمة الإمبراطورية قد نقلت بالفعل من روما إلى القسطنطينية (فى ١١ مايو ٣٣٠) . وأهم من كل هذا وذاك أن المسيحية ، التى اكتوت بمس من الجحيم فى موجات الاضطهاد المتتابعة — قد اقتربت من لحظة الانتصار على خصومها .

الفصل الثانى

ما بين دقلديانوس وقنسطنطين

قنسطنطين ونصرة المسيحية

« إنه الحوارى الثالث عشر »

(يوسبيوس)

كان والدا دقلديانوس من العبيد فى بيت السيناتور الرومانى أنولينوس . وكانت أمه أصلا من دلماشيا ، أما والده فقد أعتق وحصل على وظيفة كتابية صغيرة . دخل دقلديانوس الجيش بحثاً عن حظ أفضل ، وقد واتاه الحظ فترقى فى المناصب المختلفة فى الجيش حتى ولى الحكم على ولاية مائيزيا Macsia ، ثم حصل على القنصلية ، وفى آخر الأمر اختير قائداً للحرس الإمبراطورى . وقد أظهر دقلديانوس مقدرة فائقة فى الحرب ضد فارس ؛ أكسبته قلوب الجند ومهدت له الطريق إلى شرف حكم الإمبراطورية (٢٨٤ — ٣٠٥) .

اختار دقلديانوس شريكاً له فى الحكم هو ماكسيميان (٢٨٦ — ٣٠٥) وأنعم عليه برتبتى قيصر وأغسطس تباعاً . وكان ماكسيميان جندياً ممتازاً ، وهو أيضاً من أصل ريفى من ولاية سرميوم Sirmium ، ولكنه كان رجلا عنيفاً وقاسياً ، ولقد اتفق الأغسطسان على أن يحمل دقلديانوس لقب جوفيوس وأن يتخذ ماكسيميان لقب هرقوليوس ، الأول يدبر أمور الإمبراطورية بحكمته ، والثانى يحميها بذراعه الذى لا يقهر . ثم أدخل دقلديانوس تعديلا آخر فى حكم الإمبراطورية فعين قيصرين ليساعداه وزميله فى إدارة شئون الإمبراطورية وحكمها . ولقد وقع اختياره على كل من جاليريوس وقنسطانطيوس لهذا الغرض، وتبنى دقلديانوس الأول بينما تبنى ماكسيميان الثانى . وبعد أن أجبر الأغسطسان هذين القيصرين على تطليق زوجتيهما زوجاهما من ابنتين لهما[1]

(١) See Gibbon, E., Decline and Fall of the Roman Empire, "Reign of Diocletian".

اقتسم هؤلاء الأربعة حكم الإمبراطورية : فعهد إلى قنسطانطيوس بغالة وإسبانيا وبريطانيا ، أما جاليريوس فكانت عليه حراسة الدانوب وإلليريا ، فى حين أن ماكسيميان قد احتفظ بإيطاليا وإفريقيا ، وانفرد دقلديانوس — وهو سيد الثلاثة — بتراقيا ومصر والولايات الأسيوية ، وكان كل من الأربعة مستقلاً فى شئون ولايته ، وله تشريعاته الخاصة ، ولكنهم تعهدوا بتقديم العون واحدهم للآخر حفاظاً على مصالح الإمبراطورية . ولقد نجح ماكسيميان فى إخضاع ثورة قام بها الفلاحون فى غالة ، فى حين وفق قنسطانطيوس فى التخلص من كاراوزيوس والمتمردين فى بريطانيا ، وأدى جاليريوس مهمته فى الدانوب على خير وجه . أما دقلديانوس فقد قمع الثورة التى اندلعت فى مصر ، وساعد صديقاً له هو تريداتيس فى الحصول على عرش أرمينيا ثم عقد صلحاً مع فارس لمدة أربعين عاماً .

لقد أثار موقف دقلديانوس من المسيحية جدلاً كبيراً ، ولهذا يحسن بنا أن نستعرض موقف الإمبراطورية الرومانية من هذا الدين الجديد حتى قدر له الانتصار على الوثنية .

كانت بساطة الجماعة المسيحية الأولى — كما سبق أن ذكرنا — مدعاة لأن تنظر إليهم السلطات الرومانية بعين الاحتقار . وفى السنة العاشرة من حكم الإمبراطور نيرون (٥٤ — ٦٨ م) حل بروما حريق مدمر أتى على خير ما فيها من قصور ومعابد وتماثيل ، ولم يسلم من ألسنة النار سوى أربعة من أحياء العاصمة الأربعة عشر . وأشارت أصابع الاتهام إلى الإمبراطور نفسه : فهو كان بالأمس قد ذبح زوجه وأمه واليوم يحرق روما لتلهمه شياطين الشعر فيغنى ملحمة خراب طروادة . ولكى يبرئ نيرون نفسه اتهم المسيحيين بتدبير هذا الحريق .

ويقول المؤرخ المعاصر تاكيتوس Tacitus أن نيرون بعد أن تدبر الأمر أشاع بأن « الجماعة المعروفة باسمها السوقى « المسيحيين » السيئة السيرة هم الذين دبروا هذا الحريق . وهؤلاء يحملون اسمهم نسبة إلى المسيح الذى حكم عليه بنطس بيلاط بالموت على عهد طيبريوس (١٤ — ٣٧) . وهذه الشعوذة (العقيدة) التى قمعت ما لبثت أن ظهرت من جديد ، ولم يقتصر أمرها على مملكة يهوذا فحسب وإنما وصلت إلى روما ، الملجأ الكبير لكل خبث متطاير . وقد تم

القبض على عدد من هؤلاء المسيحيين وعند استجوابهم اكتشف أن لهم شركاء كثيرين فى جريمتهم وفى عقيدتهم . وحكم عليهم جميعاً بالإعدام لا لأنهم أشعلوا النيران فى العاصمة فحسب وإنما بسبب كراهيتهم للجنس البشرى ، ولقد قتلوا بطرق مختلفة : فبعضهم سمر على صلبان خشبية ، وآخرون ثبتوا (بالحياكة) على ظهور حيوانات مفترسة وتركوا نهباً للكلاب المسعورة ، وجماعة ثالثة منهم طليت أجسادهم بمواد ملتهبة وأشعلت فيهم النار ليكونوا شعلات تضئ فى ظلام الليل . وقد أقيم هذا المهرجان فى حدائق القصر ، وسط مباريات لسباق الخيل وقد شارك الإمبراطور فى الألعاب وارتدى لباس سائقى عجلات السباق . إن جرم المسيحيين كان حقيقاً بأن يقابل بعقاب صارم ، ولكن الناس كانوا فى ضجر شديد لأن العقاب الذى أنزل بهؤلاء التعساء لم يكن جزاء لهم على جرمهم ضد الشعب الرومانى وإنما حل بهم ما حل إرضاء لشهوة الدم عند هـذا الحاكم المستبد »(٢) .

وإذا وصلنا إلى عهد دقلديانوس نجد أنه هو ذاتياً لم يكن ليروقه كلام الفلاسفة ولا الفكر اللاهوتى الذى راحت الكنيسة تغرق نفسها فيه ، ولكنه كان يبجل الآلهة الرومانية القديمة ، وعلى النقيض من هذا الموقف كانت زوجه بريسكا

(٢) Tacitus, Annales, XLIV : "Ergo, abolendo rumori, Nero subdidit reos et quaesitissimis poenis affecit, quos, per flagitia invisos, Vulgus Christianos appellabat. Auctor nominis ejus Christus, Tiberio imperitante, per procuratorem Pontium Pilatum supplicio affectus erat; repressaque in praesens exitiabilis superstitio rursum erumpebat, non modo per Judaeam, originem ejus mali, sed per Urbem etiam, quo cuncta undique atrocia aut pudenda confluunt celebranturque. Igitur primum correpti qui fatebantur, deinde indicio eorum multitudo ingens haud perinde in crimine incendii quam odio humani generis convicti sunt. Et pereuntibus addita ludibria, ut ferarum tergis contecti, laniatu canum interirent, aut crucibus affixi, aut flammandi, atque ubi defecisset dies, in usum nocturni luminis urerentur. Hortos suos ei spectaculo Nero obtulerat, et circense ludicrum edebat, habitu aurigae permixtus plebi vel curriculo insistens. Unde, quanquam adversus sontes et novissima exempla meritos, miseratio oriebatur, tanquam non utilitate publica, sed in saevitiam unius absumerentur".

وابنته ڤاليريا قد أبديتا إعجاباً بالديانة المسيحية . ويرى إدوارد جيبون[٣] فى هذا الاهتمام بالمسيحية من جانب الإمبراطورة والأميرة مجرد تعبير عن الغريزة الدفينة عند المرأة فى حب الاستطلاع والاهتمام بكل ما هو جديد ، كما يعزوه أيضاً إلى الفراغ الذى كانتا تعيشان فيه ، كذلك اعتنق المسيحية عدد من خصيان القصر من بينهم اوسيان ودوروثيوس وجورجونيوس وأندروس ، وقد حذا حذوهم بعض موظفى القصر .

كان هذا التقدم الذى أحرزته المسيحية سبباً فى إثارة حقد الوثنيين عليها ، وقد رأى جاليريوس وماكسيميان — وهما لا يعترفان إلا بقوة السيف التى دفعت كليهما إلى المجد — أن مسلك المسيحيين يستوجب القصاص : فهناك قصة الشاب الأفريقى ماكسميليانوس الذى رفض فى عناد زائد دخول الجيش لتأدية الخدمة الإجبارية . وأعلن أمام قضاة المحكمة أن إيمانه بالمسيح لا يسمح له بحمل السلاح . وأمام هذا الموقف نفذ فيه حكم الإعدام على الفور . وسرت هذه الروح فى صفوف الجيش الرومانى ، فهاهوذا ضابط مرموق اسمه مارسيللوس يصيح أمام جنده أنه لن يطيع بعد اليوم أمراً إلا ليسوع المسيح ، ولذا راح يلقى بسلاحه ومنطقته على الأرض وهو يتناول الإمبراطور بالسباب على أنه سيد على أوثان ، وعلى الفور حوكم مارسيللوس وقطعت رأسه .

بعد النصر الكبير الذى حققه جاليريوس فى الحرب مع فارس ، أمضى فصل الشتاء مع دقلديانوس فى قصره الذى أقامه فى نيقوميديا ، وتدارس الاثنان المسألة المسيحية فى سرية تامة . ولقد كان من رأى دقلديانوس عدم اللجوء إلى العنف مع المسيحيين ، ولكن جاليريوس استسمحه فى عقد مجلس يضم كبار رجالات الدولة العسكريين والمدنيين لمناقشة الأمر بالتفصيل . وخرج المؤتمرون متفقين على أن المسيحية باتت تهدد أمن وسلام الإمبراطورية وقيصرها الأكبر . وأعلن الأباطرة الأربعة قرارهم بأنهم سيتخذون من الخطوات ما يكفل لهم القضاء على الكنيسة لأنها باتت تمثل الخطر الأكبر على الإمبراطورية . وفى فجر اليوم التالى زحف

---

(٣) Gibbon, Decline and Fall, Op. cit., loc. cit.

الحاكم البرائتورى لنيقوميديا هو وترابنته وضباطه قبالة كنيسة نيقوميديا : ثم حطموا أبوابها وأضرموا النار فى كتبها المقدسة . وفى نفس الوقت تسلح رجال دقلديانوس بكامل سلاحهم ثم انقضوا على كنيسة كانت قد بنيت فى القصر الإمبراطورى ودمروها تماماً . بعد هذا أذيع ونشر القرار الرسمى بالاضطهاد : إن كل من يرفض تقديم الأضحيات للآلهة الوثنية سيحرق حياً ، وأن كل الكنائس فى مختلف الولايات سوف تسوى بالأرض . وأن من يشارك فى اجتماعات سرية بغرض العبادة ينفذ فيه حكم الموت . وقد تضمن هذا المرسوم أيضاً قراراً بإحراق جميع الكتب المسيحية المقدسة ومصادرة أملاك الكنائس . وما إن رفع أحد هذه القرارات على الجدران فى مدينة نيقوميديا حتى تناولته يد واحد من المسيحيين . وقام بتمزيقه . قبض على هذا المسيحى ، وتفنن الجلادون فى وسيلة لتعذيبه فقاموا بإحراق جسده عضواً عضواً حتى الموت .

وقد حدث أن اشتعلت النيران مرتين فى داخل القصر الإمبراطورى فى نيقوميديا فى مدة لم تتجاوز الأسبوعين . وقد فزع دقلديانوس لأن واحدة من هذه الحرائق التهمت حجرة نومه ، وكان من الطبيعى أن يرتاب الإمبراطور فى المسيحيين ، وقيل وقتها أنهم كانوا يدبرون لحرقه هو وجاليريوس فى ليلة واحدة . ولقد ألقت السلطات القبض على كثيرين ممن دارت حولهم الشبهات وسلموا للجلادين لإعدامهم . على أن الذى حير دقلديانوس تلك الشجاعة التى قابل بها « الشهداء » مصيرهم : فقد قيل إن الضحايا كانوا يبتسمون والنار تشتعل فى أجسادهم ، والحق أن جاليريوس ، وهو المحرك الأول للاضطهاد ، قد خشى على حياته واضطر إلى مغادرة نيقوميديا . ويبالغ كتاب الكنيسة المعاصرون فى الأمر فيزعم بعضهم بأن جاليريوس هو الذى دبر حرائق القصر ليثير كراهية دقلديانوس ضد المسيحيين ، ومن قائل آخر بأن هذه الحرائق كانت ناراً إلهية انقضت من السماء على القصر لترهب عدو الله . على أنه يجب أن نضع فى اعتبارنا أن عدداً وافراً من عبيد القصر وخصيانه كانوا على المسيحية ، وأغلب الظن أن هؤلاء قد ساهموا فى إضرام الحريق .

ولقد اتبع دقلديانوس مرسومه هذا بقرارات أخرى تحدد عقوبات صارمة على

من يتستر على المسيحيين ويخفيهم من غضب الآلهة والقيصر ، وهلك الكثيرون من المسيحيين : ولا شك فى أن موجة الاضطهاد كانت قاسية ، ولكن الأرقام التى وردت فى حوليات كتاب الكنيسة مبالغ فيها ويجب أن نتناولها بالحذر .

هذا ولقد اعتبر العام الذى جلس فيه دقلديانوس على العرش وهو عام ٢٨٤ عام الشهداء .

وفى سنة ٣٠٠ اعتزل كل من دقلديانوس وماكسيميان الحكم بمحض إرادتهما ، وبقى فى السلطة كل من جاليريوس وقنسطانطيوس .

كان قنسطانطيوس لا يقر سياسة العنف مع رعاياه ، والمعروف أن غالبية رجال قصره كانوا من المسيحيين . وكان يحبهم ويقدر فيهم وفاءهم ، وبرغم أنه قد اضطر إلى تنفيذ أوامر دقلديانوس بهدم الكنائس ، إلا أنه قام بحماية المسيحيين من إيذاء غوغاء المدن ، ولما أن رقى قنسطانطيوس إلى شرف الأغسطسية فى سنة ٣٠٥ بالاشتراك مع جاليريوس ، تمكن من التحرك من مركز القوة لتخفيف وطأة الآلام عن الرعايا المسيحيين داخل ولاياته ، ولكن مدة حكمه كانت قصيرة ، وقد ترك لابنه قنسطنطين من بعده لينفذ سياسة للتسامح مع الرعايا المسيحيين لافى الولايات الغربية فقط وإنما فى الإمبراطورية جميعاً .

أما جاليريوس فقد صار أقوى الأباطرة بعد اعتزال دقلديانوس وماكسيميان الحكم . وقد امتد حكم جاليريوس من ٣٠٥ إلى ٣١١ ، وأشرك معه فى الحكم كلا من قنسطانطيوس كلوروس ، ثم سيڤيروس الثانى ، ثم ليسينيوس ، ثم قنسطنطين الأول ، ثم ماكسيمين دازا على التوالى . وعلى هذا ففى عام ٣٠٩ كان هناك ستة أباطرة يحكمون الإمبراطورية الرومانية معاً .

ولقد استبد جاليريوس برعاياه المسيحيين فى النصف الشرقى من الإمبراطورية فى تراقيا وآسيا وسوريا ومصر . واستمرت موجة الاضطهاد فى قسوة بالغة حتى عام ٣١١ ، ولم تفلح القسوة الزائدة فى القضاء على المسيحية ، واكتشف جاليريوس أن سياسته قد أتت بعكس ماكان يرجوه منها : لقد ازدادت الجماعة المسيحية صلابة وإيماناً ، ولم تعد النار تخيفهم . وفى عام ٣١١ ، وهو قاب قوسين أو أدنى من الموت ، تراجع جاليريوس فى موقفه فأصدر مرسومه الشهير يعلن

فيه تسامحه مع الرعايا المسيحيين فى الإمبراطورية ، على الوجه الآتى :

« إن من بين المهام التى تشغل بالنا ونحن نعمل للحفاظ على سلام وقوة الإمبراطورية اهتمامنا بتقويم سائر الأمور وإعادة بنائها وفقاً للقوانين القديمة والنظم الرومانية المتعارف عليها . لقد كنا على وجه الخصوص شديدى الرغبة فى إرجاع المسيحيين إلى مناحى العقل والصواب بعد أن أنكروا دين الآباء وأعيادهم ، وراحوا يحتقرون التقاليد بعد أن اخترعوا لأنفسهم قوانين متطرفة ومعتقدات وهمية وكونوا لهم رابطة فى مختلف ولايات الإمبراطورية . ولما كانت تلك المراسيم التى كنا قد أصدرناها سلفاً من أجل مراعاة عبادة الآلهة قد تسببت فى تعريض الكثيرين من المسيحيين إلى الخطر والمعاناة . ولما كانت أعداد وفيرة منهم ما زالت تمضى فى طريقها ، فإننا نرغب فى أن نمد لهؤلاء التعساء رحمة من لدينا : فنحن نأذن لهم بالمجاهرة بمعتقداتهم الخاصة وبأن يمارسوا طقوسهم الدينية فى جمعياتهم دون خوف من أن يتعرضوا للأذى ، طالما أنهم يظهرون الاهتمام الواجب للقانون والحكومة . وإنا سنتبع هذا بقرار آخر يوضح سياستنا هذه للقضاة ورجال العدالة وإنا لنأمل أن قرارنا هذا بالعفو والتسامح للمسيحيين سوف يدعوهم إلى الابتهال للمعبود الذى يقدسونه لكى يمن على شخصنا بالسلامة وعليهم وعلى الجمهورية جميعاً بالرخاء والسعادة[٤] .

وكان جاليريوس قد حاول عزل الشاب قنسطنطين عن والده ولكنه لم يفلح فى هذا ، ولحق الابن بأبيه فى بريطانيا . وعند وفاة قنسطانطيوس فى عام ٣٠٦ فى مدينة يورك هتف الجنود بابنه قنسطنطين أغسطساً خلفاً لأبيه . وفى نفس الوقت نجح ماكسنتيوس وهو ابن الإمبراطور المعتزل ماكسيميان فى إشعال ثورة فى روما ، ثم سيطر على كل من إيطاليا وأفريقيا . وقد ظهر على مسرح السياسة من جديد العجوز ماكسيميان ليؤيد ثورة ابنه ماكسنتيوس ، بل واتخذ الآن لقب إمبراطور من جديد .

ثم قامت الحرب الأهلية التى هلك فيها ماكسيميان . وبعد ذلك عقد

---

(٤) Eusebius, Op. cit., VIII, 17, 5.

قنسطنطين تحالفا مع الأغسطس الجديد ليسينيوس ، وأوقع الحليفان هزيمة نكراء بخصمهما ماكسنتيوس عند قنطرة ملفى Milvian Bridge قرب مدينة روما ، ومات ماكسنتيوس غرقاً فى نهر التيبر وذلك فى عام ٣١٢ .

تقابل الحليفان المنتصران بعد ذلك فى مدينة ميلان حيث أصدرا تلك الرسالة الشهيرة إلى حاكم أسيا الصغرى والتى عرفت خطأ باسم « مرسوم ميلان » (فى عام ٣١٣) . على أن التفاهم بين الحليفين لم يدم طويلا ، فقد قامت الحرب بينهما ولم ينته الصراع إلا فى عام ٣٢٤ عندما مات ليسينيوس وصار قنسطنطين السيد الأوحد للإمبراطورية الرومانية .

وعلاقة قنسطنطين العظيم مع المسيحية مسألة معقدة ، لم يتفق فى تفسيرها اثنان من المؤرخين برغم الأبحاث الكثيرة التى قام بها الدارسون(٥) .

والسؤال المحير هو : لماذا وقف قنسطنطين وهو القائد الأول الذى انتصر على كل أعدائه إلى جانب المسيحية ؟ هل كان هذا حلاً سياسياً يحقق به الإمبراطور وحدة إمبراطوريته بعد القلاقل التى مزقتها على عصر الاضطهاد ؟ أم هل كان قنسطنطين يؤمن حقيقة بالدين الجديد ؟ والصعوبة التى أمامنا هى ذلك التضارب والتناقض فى النصوص التاريخية المعاصرة : فعندما نقرأ كتابات يوسبيوس أسقف قيسارية نجد صورة لقنسطنطين تختلف تماماً عن الصورة التى رسمها له الكاتب الوثنى زوزيموس .

أما عن المؤرخين المحدثين فقد تأثروا مدة طويلة بالنظرية التى قدمها المؤرخ Jacob Burckhardt ، والتى أوضح فيها أن قنسطنطين كان رجل غايات لا مبادئ : فهو يضحى بكل شيء فى سبيل تحقيق الهدف الذى يصبو إليــه ، فإن هذا السياسى الفذ كان متعطشاً للسلطان فحسب ، ورجل من هذا الطراز لا يجب علينا عند دراسة شخصيته أن نتساءل عن مسيحيته أو وثنيته ، وإنما ينبغى أن نبحث عن الهدف الذى من أجله ارتأى مصالحة المسيحية وكسب عطف أتباعها ، ولما كان هدف قنسطنطين الأسمى هو السلطة المطلقة على دولة متوحدة يعمها

---

(٥) See, Vasiliev, A.A., History of the Byzantine Empire, Ch. II.

« السلام » فيمكن القول بأن هذا الهدف كان كل شئ بالنسبة لقنسطنطين . والرجل الذى يكون على هذه الشاكلة هو بالضرورة رجل « لا دينى » Unreligios ومن آراء هذا المؤرخ أيضاً أن قنسطنطين قد تعاطف مع المسيحية لأنه رأى بنفاذ بصيرته أنها ستتغلب فى نهاية الأمر على الوثنية فسارع يكسب تأييد الكنيسة وبركاتها بدلا من لعناتها .

ولعل أكبر نقد وجه إلى نظرية ياكوب هذه تلك الإحصاءات العلمية التى قام بها الأستاذ V. Bolotov والتى أثبت بها أن عدد المسيحيين فى الإمبراطورية الرومانية على عهد قنسطنطين كان ضئيلا جداً إذ أنه لم يتعد عشر تعداد السكان وأن معتنقى هذه الديانة لم يكونوا يملكون من النفوذ ما حاول فريق المؤرخين الذين راحوا يشككون فى إيمان قنسطنطين ينسبونه إليهم . ولهذا الرأى وجاهته وهو يقلل من شأن « النظرية السياسية » التى أتى بها ياكوب ؛ إذ أنه ليس من المعقول أن يلقى سياسى ماهر مثل قنسطنطين بكل ثقله وآماله على أقلية لم يكن تعدادها يربو على عشر سكان الإمبراطورية ، كانوا من فقراء القوم ولم يكن لهم نشاط سياسى مرموق .

ولكن يجب ألا يغيب عن بالنا أنه إن كان قنسطنطين قد اعتنق المسيحية بالفعل فهو إنما قد تقبل المعمودية فى نفس العام الذى توفى فيه (٣٣٧) . كذلك ظل قنسطنطين طوال حياته محتفظاً بلقبـه الوثنى فهو الكاهن الأعظم Pontifex Maximus ، ولم يكن ليشير إلى يوم الأحد — وهو يوم الرب عند المسيحيين — إلا على أنه يوم إله الشمس الذى لا يقهر Sol invictus الذى لم يكن فى الواقع سوى الإله مثرا Mithras الفارسى وهو أبوللو فى ثوبه الرومانى .

كان طبيعياً أن يربط كتاب الكنيسة حياة قنسطنطين بالمسيحية ؛ وهنا اختلطت الوقائع التاريخية بالروايات الأسطورية الطابع : فيوسبيوس أسقف قيسارية اعتبر قنسطنطين الحوارى الثالث عشر للمسيح . ولعل أشهر الروايات عن قنسطنطين والمسيحية تلك التى تقول إن الإمبراطور قد شاهد علامة الصليب تظهر فى أفق السماء أثناء حربه ضد عدوه ماكسنتيوس ، وأنه بهذه العلامة التى آمن بها قد انتصر .

وأقدم نص لهذه الرواية هو ما جاء فى كتاب لاكتانتيوس المعنون De mortibus persecutorum ، ولكن هذا الكاتب لم يذكر شيئاً عن هذه الرؤيا وإنما أوضح أن الإمبراطور كان قد تلقى نصحاً — فى منامه — بأن يرسم علامة الصليب على دروع الحرب التى كان رجاله سيقاتلون بها العدو[٦] . أما قصة الرؤيا السماوية فقد وردت فى كتاب بعنوان « حياة قنسطنطين » ينسب عادة إلى يوسبيوس أسقف قيسارية[٧] . ومؤدى الرواية أن الإمبراطور قد أقسم لصحبه بأنه قد شاهد بعينيه صليباً مضيئاً فوق قرص الشمس وقد كتب من حوله هذه العبارة « بهذا ستنتصر » (In hoc signo vinces) Touto nika . وفى الليلة التالية — حسب الرواية ظهر المسيح لقنسطنطين فى المنام يحمل نفس العلامة ويأمره بأن يصورها علماً له ويسير بها ضد عدوه فيسحقه . وفى صبيحة اليوم التالى قص الإمبراطور هذا الحلم على أتباعه ، ثم طلب من ضباطه أن تصنع حربة طويلة على هيئة الصليب تتدلى من قمتها قطعة من الحرير مزينة بالذهب والأحجار الكريمة وتحمل صور قنسطنطين وولديه ، وفى قمة الصليب إكليل يحيط بصورة المسيح وقد عرف هذا العلم القنسطنطينى باسم « لاباروم »Labarum ومن وقتها أصبح العلم الرسمى للإمبراطورية البيزنطية .

أما عما يسمى « مرسوم ميلان » الذى صدر سنة ٣١٣ عن كل من قنسطنطين وحليفه ليسينوس ، فهو فى الحقيقة ليس مرسوماً بالمعنى السليم ، وإنما هو مجرد رسالة موجهة إلى حاكم نوقيميديا فى أسيا الصغرى لإبلاغه بقرار الإمبراطورين فى الاعتراف الحكومى بالديانة المسيحية جنباً إلى جنب مع الديانة الوثنية . وقد أفاض المؤرخون كثيراً فى القول بأن هذا لم يكن شيئاً جديداً ، وإنما هو تجديد لمرسوم التسامح الذى كان جاليريوس قد أصدره سنة ٣١١ — الذى سبق وأن أوردناه .

ولكن من الإنصاف فى القول أن نؤكد أنه بينما كان جاليريوس منذ البداية من أشد المضطهدين للمسيحية كان قنسطنطين قد أظهر تعاطفاً معهم منذ نشأته

(٦) Lactantius, De mortibus persecutorum, in P.L., Vol. VII.

(٧) Eusebius, Vita Constantini (Schaff's ed).

الأولى ، ولعله قد ورث هذا الاتجاه عن والده : كما وأن مرسوم جاليريوس لم يخل من تجريح للمسيحية واتهام صريح لأتباعها بالعناد . فى حين أن مرسوم قنسطنطين يفيض عطفاً على المسيحية . ولهذا فإنا نميل إلى اعتبار مرسوم جاليريوس قراراً إمبراطورياً برفع الاضطهاد وتقرير سياسة التسامح ، فى حين أن مرسوم قسطنطين يحوى أكثر من ذلك . ففيه تأكيد حكومى بالانتصار للمسيحية على خصومها . ولعل إيراد النص الكامل لمرسوم ميلان « المزعوم » يؤكد وجهة نظرنا :

« لقد كان رأينا منذ وقت بعيد ألا تنكر الحرية الدينية على أحد ، بل كنا نهدف إلى أن نضمن لكل فرد الحق فى ممارسة عقيدته التى يختارها . ولقد سبق وأصدرنا أوامرنا على نحو يكفل للمسيحيين وغير المسيحيين التمتع بمعتقداتهم الدينية وبعباداتهم . على أن الشروط الكثيرة التى رهنت بها الحرية الدينية عند إصدار هذا القرار لم تمكن البعض من التمتع بالحرية الدينية كما ينبغى .

وعليه فإنه من حسن الطالع عندما وصلنا نحن قنسطنطين أغسطس ونحن ليسينيوس أغسطس إلى مدينة ميلان ، ورحنا نتدارس سائر الأمور المتصلة بصالح الرعية ونفعها ، فأنه من بين الإجراءات الأخرى التى قصد بها الصالح العام ، أو بالأحرى من المسائل الحيوية التى استوجبت الأولوية فى العناية قرارنا بإرساء قواعد تؤكد وتضمن الاحترام والتبجيل للرب : بمعنى أن يعطى المسيحيون وغيرهم الحرية فى العبادة التى تروقهم ، لعلنا بهذا والرعية التى نحكم عليها نحظى بفضل ومحبة القوى الربانية والسلطات السماوية الأخرى . وهذا هو القرار الذى توصلنا إليه بعد تمحيص ودراسة ، وغايتنا أن يهبنا الرب عنايته وعطفه الشاملين مثلما أعطانا من قبل .

لقد وجدنا من الضرورى أن نرسل مرسوما يوضح هذا القرار إليكم[٨] حتى نؤكد لكم فيه أمرنا بإلغاء ما ورد من شروط فى المرسوم السابق[٩] بخصوص المسيحيين . هذا وعليكم مراعاة إلغاء كل التحفظات السابقة التى لم يكن لها من مبرر والتى لا تتفق وروحنا الممتلئة بالرحمة . والآن فإنه يتحتم أن يتمكن كل واحد

(٨) الكلام موجه إلى حاكم نيقوميديا .

(٩) مرسوم جاليريوس .

فرد له الرغبة فى اتباع تعاليم المسيحية وطقوسها من ممارسة هذا الحق كاملا ، دون تدخل يعوقه من تحقيق مراده هذا . كل هذه الأمور نحن نبسطها أمامكم لتتبصروا تماماً ، ولكى يتأكد لكم بصفة حاسمة أننا قد منحنا المسيحيين سابقى الذكر ترخيصاً مطلقاً فى أن يمارسوا عاداتهم فى حرية تامة . ولا يخفى على فخامتكم أننا بمنحنا هذا الحق على إطلاقه فإننا نسمح لمن يشاء من الرعية أن يمارس نوع العبادة التى يرتضيها لنفسه ، وهذا حق خليق بسمات عهدنا الميمون الذى يسود فيه الاطمئنان . ولا يعنى هذا أنا نقلل من شأن أية طقوس أخرى وعبادات أخرى .

وبالنسبة للمسيحيين فإننا نضيف القرار الآتى :

كنا قد حددنا فى الرسالة السابقة[10] إليكم تعليمات خاصة فيما يتصل بأماكن العبادة المسيحية والتى اعتادوا على الاجتماع فيها ، والآن فإننا نقرر أنه إذا اتضح أن أحداً ما قد اشترى أماكن العبادة[11] هذه فى شكل أو آخر بمال دفع من خزائننا أو من مصدر آخر ، فإن عليه المبادرة بإرجاع هذه الكنائس إلى المسيحيين دون أن يتقاضى مالا عنها ودون أن يطالب بأية تعويضات . وهذا أمر لا نريد فيه إهمالا ولا إمهالا . وإن كان أحد ما قد حصل على كنيسة من هذه الكنائس بصفة الهدية أو الهبة فعليه إرجاعها إلى المسيحيين دون تباطؤ . وإن رغب هؤلاء النفر من الناس المطالبة بتعويض فعليهم أن يلتمسوا هذا من أبواب كرمنا الإمبراطورى : بأن يتقدموا بطلباتهم إلى قضاة وحكام مناطقهم ، وسوف نجزيهم بكرمنا خيراً .

وعلى فخامتكم أن تتصرفوا فى همة زائدة وفورية لكى تسلم هذه الممتلكات جميعاً إلى المسيحيين دون إبطاء . ولما كانت للمسيحيين إلى جانب كنائسهم أماكن أخرى موقوفة على الجماعة المسيحية كجمعية هنا وهناك ، فإن هذه الممتلكات أيضاً يجب أن تعاد إليهم ويطبق فى صددها نفس القانون السابق ذكره ، وهذا أمر لا يحتاج إلى مماطلة أو مجادلة ، وتنسحب مسألة التعويض سالفة الذكر على هذا البند أيضاً .

---

(١٠) مرسوم جاليريوس .

(١١) الكنائس .

ونحن نحثكم على أن تبذلوا كل مافى وسعكم من طاقة وهمة لتنفيذ كل هذه الأوامر فى أسرع وقت ممكن . حتى يتعرف الناس على كرم قراراتنا . فتتوطد دعائم السلام والأمن لارعية جميعاً . ذلك لأنه على ثقل هذا القرار وبحسن نوايانا[١٢] كانت العناية الربانية معنا دواماً . ونأمل فى أنها ستظل علينا كما كانت من قبل إلى الأبد . ولكى يصل هذا القرار إلى آذان الكل فأنه يحسن بفخامتكم نشر ما جاء فيه ليذاع على الرعية ويصل إلى كل المواطنين »[١٣] .

بمقارنة نص جاليريوس الذى صدر فى سنة ٣١١ بهذا النص الذى أصدره قنسطنطين من ميلان فى عام ٣١٣ يتضح لنا الفارق الكبير بين المرسومين . ولا يخفى أن قنسطنطين يهاجم جاليريوس — فى مرسوم ميلان — هجوماً عنيفاً وينتقده فى مرارة بالغة بسبب الشروط القاسية التى وضعها جاليريوس عند سماحه للمسيحيين بممارسة شعارهم ، ولهذا كان إصرار قنسطنطين فى رسالته إلى حكم نيقوميديا على إلغاء كل ما ورد فى مرسوم جاليريوس من شروط مجحفة .

وخلاصة القول أن قنسطنطين حتى لو كان قد ظل وثنيًّا إلى آخر سنى حياته ، إلا أنه قد تبنى قضية المسيحية . فكان موقفه بهذا « انتصاراً » للمسيحية لا مجرد تسامح معها ، ومن هنا فإن موقفه يختلف تماماً عما كان قد سبقه من مواقف تجاه الكنيسة : ففى هذا المرسوم علامات أكيدة تشير إلى أكثر من التعاطف مع المسيحية ، هنالك خيط دقيق يمكن أن يلتقطه آباء الكنيسة ويدخلوا به قنسطنطينهم فى دائرة الإيمان الحق ، بل يجعلوا منه — مثلما فعل يوسبيوس — الرفيق الثالث عشر لصيادى السمك من جماعة الجليليين .

---

(١٢) تجاه المسيحيين .

(١٣) Eusebius, Op. cit., X, 5, 3.

الفصل الثالث

بين ردة يوليانوس (٣٦١-٣٦٣)

وإعلان ثيودوسيوس المسيحية

ديناً رسمياً للإمبراطورية (٣٧٨ - ٣٩٥)

نهاية الوثنية

« لقد حطموا سيرابيس »

يمثل عهد يوليانوس العاصي أو جوليان المرتد آخر محاولة للوثنية فى صراع الحياة أو الموت ضد المسيحية . وجوليان هو فلاثيوس كلوديوس يوليانوس ، ابن أخ غير شقيق لقنسطنطين العظيم[١] .

فى عام ٣٣٧ خلف قنسطانطيوس أباه قنسطنطين على العرش ، وكان أريوسيًّا متعصباً كما كان كل همه منصرفاً إلى التخلص من بقية أفراد الأسرة القنسطنطينية لينفرد وحده بالحكم . وقد تم له ما أراد : إذ قتل شقيقه قنسطنطين الأصغر فى عام ٣٤٠ ثم شقيقه الآخر قنسطانز فى عام ٣٥٠ . ثم انقلب على بقية أفراد الأسرة فتخلص منهم جميعاً عدا جاللوس ويوليان ، اللذين أبعدا عن العاصمة . ولما لم يكن لقنسطانيوس ابن يخلفه على العرش فقد خلع لقب قيصر على جاللوس ولكنه سرعان ما انقلب عليه وقتله فى عام ٣٥٤ . وفى سنة ٣٥٥ استدعى يوليان إلى القصر الإمبراطورى وأنعم عليه بلقب قيصر[٢] وزوجه من هيلينا أخته .

وقد كانت ألسنة خصيان القصر والمنافقين تحاول الانتقاص من قيمة يوليان ، فسخروا من بساطته وزيفوها إلى « خنوثة » ، أما شعره الغزير فقد رأوا فيه ضرباً

---

(١) راجع المخطوطة بعنوان « يوليانوس العاصى » فى حاشية الكتاب .

(٢) Gibbon, op. cit., "The Pagan Counter-Reformation".

من الوحشية فشبهوه « بقرد فى حلة أرجوانية » ؛ وأما تضلعـــه فى آداب اليونانية وفلسفتها الكلاسكية فقد رأوا فيه ضرباً من الغرور وضياع الوقت ؛ مما لا يليق بقائد الفيالق الرومانية[٣] .

ولكن يوليان كان قائداً مبرزاً فى ميدان الحرب ، تخشى اسمه القبائل الجرمانية : فكانت انتصاراته المتتالية على ضفتى الدانوب مدعاة لحقد الإمبراطور قنسطانطيوس عليه حقداً شديداً ؛ ذلك لأن الشعب راح يقرن اسم يوليان ببشائر النصر على البرابرة . ولما أرسل قنسطانيوس أمراً إلى يوليان فى غالة يطلب منه التحرك بجيشه إلى الجبهة الفارسية ، أدرك يوليان أن الإمبراطور مقدم على التخلص منه بدافع الغيرة فحسب . وفى غالة ثار الجند ضد الجالس على عرش البسفور الأبد وأعلنوا قائدهم المظفر يوليان إمبراطوراً بدلا منه . واستعد الطرفان للقتال ، ولكن قنسطانطيوس توفى فجأة فى عام ٣٦١ . وبذلك خضع الجيش كله ليوليان الذى اعتلى عرش الإمبراطورية الرومانية وهو فى الثانية والثلاثين من عمره .

كان يوليان فيلسوفاً يحب البساطة ويمقت أبهـــة القصور وعجرفة أصحاب الصولجان . ولذا فقد عاش صوفياً : فهو بعد وجبته النباتية الخفيفة يعتزل إلى مكتبته ليتزود بحكمة اليونانية . وكان نقياً طاهراً ؛ لم يعرف امرأة قبل زواجه ؛ وبعد أن توفيت زوجته ظل على طهره ونقائه . ولقد عاف يوليان حياة البذخ فى القصر ، ولذا فإن هذا الرجل الذى كان يفترش الأرض طرد العاطلين من الخصيان والخدم ، واكتفى بعدد قليل جداً لقضاء ضروريات القصر . وهنالك حادثة تبين لنا سمة التقشف التى تفرد بها هذا الإمبراطور الفيلسوف : فلما أن طلب « الحلاق »

---

(٣) "Omnes qui plus poterant in palatio, adulandi professores jam docti, recte consulta, prospereque completa vertebant in deridiculum; talia sine modo strepentes insulae; in odium venit cum victoriis suis; capella, non homo; ut hirsutum Julianum carpentes, appellantesque loquacem talpam, et purpuratam simiam, et litterionem Graecum : et his congruentia plurima atque vernacula principi resonantes, audire haec taliaque gestienti, virtutes ejus obruere verbis impudentibus conabantur, ut segnem incessantes et timidum et umbratilem, gestaque secus verbis comptioribus exortantem". (Ammianus Marcellinus, Res Gestae, 17, 11).

ليقص له شعره ، أتوا له بحلاق القصر ، فوجده الإمبراطور مرتدياً فاخر الثياب وكأنه أحد نبلاء السناتو ، فدهش لهذا وصاح فى وجهه ووجوههم :

"Ego non rationalem jussi sed tonsorem acciri".

وقد راح يوليان يصرح لرعيته فى إحدى مؤلفاته الساخرة بأنه يفخر بطول أظافره وبخشونة يديه وبشعره الغزير الذى يغطى جسده جميعاً وكذا بلحيته الطويلة .

كان يوليان يكره المسيحية ، ولقد رأى فى الجدل الذى أثاره المسيحيون وفى تكالب الأساقفة على المناصب الكنسية الرفيعة وفى مؤامرات طوائفهم الواحدة ضد الأخرى وفى صراعهم البشع حول الثالوث وطبيعة المسيح — رأى فى كل هذا دليلا على عقم المسيحية . وشجعه هذا على الارتداد عن المسيحية إلى الوثنية الآثينية التى كان يكن لها كل تبجيل منذ الثانية عشرة من عمره ، كما يعترف هو ذاته . ويصرح يوليان فى هذا الصدد أنه يتذكر لحظة عماده ولكأنها « لحظة كابوس جثم على أنفاسه » .

وتتلخص عقيدة يوليان الوثنية ، التى عبر عنها فى أسلوب أفلاطونى ، فى أن الكائن الأعظم قد جبل فى تتابع حثيث آلهة وأرواحاً وأبطالا وأبالسة ثم رجالا ، اشتقوا جميعاً وجودهم من العلة الأولى مباشرة ، فنالوا منها ضمان الخلود . ولقد وكل الخالق إلى آلهة دونه مقاماً مهمة تشكيل أبدان الخلائق وإرساء قواعد التناغم بين ممالك الحيوان والنبات والمعادن — وكان على هؤلاء النواب الإلهيين أيضاً تدبير أحوال العالم السفلى . ومن ثم فإن حكمهم بات عرضة للتردى فى الخطأ حينا . وقد قسمت الأرض وأهلوها بين هذه الآلهة الصغيرة ، كل يحكم نطاقه وفق سماته التى اختص بها . ولما كانت أرواحنا الخالدة حبيسة داخل أجساد فانية — أشبه ما تكون بالسجون — فإنه من واجبنا إن لم يكن من صالحنا ، نحن معشر البشر ، أن نستعطف الآلهة ونطلب ودها ورضاءها ، وأن نحول دون حلول غضبها علينا . وهذا لا يتأتى إلا بتقديم الأضحيات لها فى معابدها . هذا ، كما وأن الآلهة كثيراً ما يطيب لها أن تحل على الأرض بأرواحها النورانية فى عمق التماثيل والمعابد التى تشيد خصيصاً لها .

ولقد رأى يوليان فى النظام الدقيق المتكامل للشمس والقمر والنجوم دليلا على السرمدية وبرهاناً على يد قوة خارقة السلطان هى « الملك الأعلى القادر على كل شيء » . والشمس هى الكوكب السماوى الجدير حقاً بالعبادة ، فهو البرهان الساطع للكلمة (Logos) ، والصورة المشرقة الخيرة لرب النعم ، ومورد العقل . . . الله الآب . ولقد تلقن يوليان فلسفته هذه من منهل المعلم أيديزيوس صاحب المدرسة الأفلاطونية فى برغامة . كذلك تأثر يوليان بتعاليم الفلاسفة المعاصرين كريزانثيوس ويوسبيوس وماكسيموس . وقد عمده الأخير عضواً فى الديانة الوثنية وهو بعد فى العشرين من عمره فى مدينة أفيسوس . وفى آثينا احتضنته جماعة اليوزيس ابناً لها ؛ وهناك وجه يوليان الدعوة إلى كاهن تلك الجماعة الأكبر لزيارته فى بلاطه فى غالة .

وطبقاً لرواية صديقه المقرب ليبانيوس الفيلسوف الأنطاكى ، تعلم أن الآلهة قد فرحت بيوليان عظيم الإيمان ، وأنه كثيراً ما كانت الآلهة تنزل من عليائها للحديث والتسامر معه ومداعبته بأيديهم ، ولتبصيره بالغيب . وقد أصبحت هذه « التجليات » أمراً مألوفاً لدى يوليان حتى صار بمقدوره أن يميز صوت جوبيتر من صوت منرفا ، وهيئة أبوللو من هيئة هركيوليز .

على أن يوليان سرعان ما أدرك أن هذى الرؤى وذاك التجلى من جانب الآلهة ، إلى جانب حياة التقشف التى راح يحياها ، قد تهبط به إلى درك الزهد المسيحى الذى اعتاده أنطونيوس وباخوميوس فى صحراء مصر . ولذا فإنه كان يهب من معبده ليسلح نفسه بدرع القتال لأداء واجبات الحكم ولدحر أعداء روما .

كان طبيعياً أن هلل الوثنيون فرحاً لردة يوليان إلى الوثنية ، وكان طبيعاً أيضاً أن أصيب المسيحيون بهلع شديد . وسرعان ما أصدر الإمبراطور مرسوماً بفتح المعابد الوثنية ليرتادها أصحابها . ولكنه فى نفس الوقت سمح للأساقفة المسيحيين الذين كان سلفه قنسطانطيوس قد أرسل بهم إلى المنفى بالعودة إلى أوطانهم . ولم ينظر يوليان فى قراره هذا إلى اختلافات هؤلاء الأساقفة الطائفية ، سواءاً أكانوا من الدوناتيين أو النوفاتيين أو الأريوسيين أو الماسيدونيين ، أو من أتباع مجمع نيقيا . ولقد دعا يوليان زعماء هذه الفرق المتصارعة إلى قصره ليناقشهم ، فوجدهم على صخب

وشغب كبرين فصاح فيهم : « أليست لكم آذان تسمع ؟ أصغوا إلى قليلا . إن برابرة الفرنجة والألمانى كانوا يجيدون أدب الاستماع لى » . ثم طردهم جميعاً من مجلسه .
كان يوليان يجد لذة كبيرة فى مشاركة الشعب فى طقوسه الوثنية وتقديم الأضحيات للآلهة : فكان يحمل الحطب إلى داخل المعبد ويشعل النار ويمسك بالسكين ثم ينحر الأضحية ، ويغمس يديه المخضبتين بدم الأضحية فى أحشائها لينزع قلبها أو كبدها ثم يقرأ فيهمـــا طالع الغيب على جمهور المصلين . ويقال إن عدد الأضحيات التى كان ينحرها يوليان فى اليوم الواحد بلغ مائة من الثيران ؛ حتى إن الفكاهة القديمة وجدت من يرددها من جديد ، وكان لسان الحال « لئن سار الحال على هذا المنوال فعلينا — معشر الثيران — وعلى مملكة البهائم السلام » .

كان يوليان يحسد المسيحية على روعة كنائسها التى شيدت فى أورشليم على عهد قنسطنطين العظيم . ولذا فقد قرر مساعدة اليهود فى إعادة بناء هيكل سليمان الذى كان الإمبراطور تيطس قد محاه من الوجود سنة ٧٠ م . وكان هذا بطبيعة الحال نكاية فى الأبهة التى تفردت بها كنيسة القيامة فى القدس . ووكل الإمبراطور بهذه المهمة إلى وزيره الييوسى . وتبرعت اليهود بأموال طائلة لإقامة الهيكل . وفيما كان العمل يسير على قدم وساق إذ بزلزال عنيف يعصف بالعمال وجماعة اليهود المتجمعين حول الحجارة المعدة للبناء فيأتى عليهم جميعاً — وهذه الحادثة تاريخية تماماً ، اعترف بها الثقاة المعاصرون من أمثال جريجورى النازيانزين ، ويوحنا خرايزوستوم (ذهبى الفم)، والقديس أمبروز أسقف ميلان (فى رسالته إلى الإمبراطور ثيودوسيوس) ، وأهم من هؤلاء جميعاً شهادة أميانوس مارسيللينوس(٤).

ومنذ هذا اليوم لم يكن يوليان ليطيق سماع اسم « المسيح » وراح يشير إلى المسيحيين بلفظة « الجليليين » ؛ إصراراً منه على عدم استخدام لفظة المسيح . وعليه فقد حرم رجال الإكليروس من الحقوق والهبات التى كان قنسطنطين وأبناؤه قد منحوها

(٤) "Cum itaque rei fortiter instaret Alypius, juvaretque provinciae rector, metuendi globi flammarum prope fundamenta crebris assultibus erumpentes fecere locum exustis aliquoties operantibus inaccessum ; hocque modo elemento destinatius repellente, cessavit inceptum'. (Ammianus, 23, 1).

للكنيسة . ثم وهب الملك المرتد كل تلك الإمتيازات لكهنة معابدة الوثنية .

غير أن الضربة القاصمة التي سددها يوليان للمسيحية كانت فى ذاك المرسوم الإمبراطورى الذى حرم به على المعلمين المسيحيين تعليم العلوم اليونانية وكان هذا يتضمن بالطبع حرمان أبناء المسيحيين من التعليم لأنهم عزفوا عن دخول المدارس الوثنية . وكانت حجة يوليان فى قراره هذا أنه « لا يصح للذين يعتنقون الإيمان المسيحى الساذج أن يتمتعوا بمزايا العلوم الحقة (آداب وفلسفة اليونانية الوثنية) . » ثم راح يقول بأنه « على هؤلاء الذين يرفضون عبادة آلهة هومر وديموستينيز أن يحجموا عن التكسب من تدريس روائعهما ، وأن يقنعوا بإصحاحات متى ولوقا » . وكان « المرتد » يأمل بقراره هذا حرمان المسيحية وكنيستها ورجالها من الفلسفة والفكر فيحل العقم بها ويزداد عدد الجهل بين معلميها ، ومن ثم تندثر كلية من الوجود . وقد أتبع يوليان قراره هذا بفصل المسيحيين من المناصب العليا فى الحكومة والجيش . وكانت حجته فى ذلك أنه وفقاً لتعاليم الأناجيل لا يحسن لمسيحى أن يحمل سيفاً .

وقد اغتنم الوثنيون الفرصة التى أتاحها لهم سيدهم ، فراحوا ينتقمون من المسيحيين الذين كانوا فى عهود سابقة قد حطموا المعابد الوثنية . فتعرض مرقص أسقف أريثيوزا لعذاب شديد : إذ جلدوه بالسياط ونزعوا شعر لحيته ثم خلعوا عنه ثيابه وطلوه عسلا ثم علقوه فى شبكة بين السماء والأرض ؛ نهباً للدغات الذباب والحشرات ، فى صيف الشام القائظ .

كذلك شهدت أنطاكية صداماً خطيراً بين يوليان والمسيحية . فعلى بعد من المدينة بخمسة أميال كان السلوقيون قد شيدوا معبداً لأبوللو فى قرية دافنى ، وأقاموا تمثالا ضخماً لإله الضوء ازدان باللآلئ والذهب . وكان الإله أبوللو يمثل منحنياً بعض الشيء ، وفى يده كأس تنساب إلى الأرض ، ولكأنه يتوسل إلى الأرض الأم أن تضم إلى صدره دافنى الحلوة الرطبة لتخفف عنه حدة اللهيب المنبثق من عمقه . وقد صار لدافنى ووحى معبدها شهرة ذائعة حاكت تلك الشهرة التى اقترنت بوحى دلفى : كذلك ألحق بالمعبد أستاد شاسع لممارسة الألعاب الأولومبية : وأمست دافنى بمروجها الخضر وجداولها الرقراقة المنسابة من قمم التلال المجاورة نزهة المشتاق ومقصد الآلاف من الحجاج كل عام . وعرفت دافنى صنوفاً من الحب وألواناً

من الغرام حتى صارت تعرف بجنة العشق والمجون ، حتى إن أحد الأباطرة الرومان اضطر إلى أن يطرد من الجيش كل جندى زار دافنى هذه .

ولما آل العرش إلى يوليان قام بزيارة لمعبد دافنى ليقدم الأضحيات لأبوللو . وهاله أن يجد الحال وقد تبدلت : فلم يلق داخل المعبد سوى كاهنه ، ولم يجد من الأضحيات غير أوزة واحدة اشتراها الكاهن ببضع دراهم من جيبه . أما المذبح فقد بات مهجوراً ، وقد صم الوصى ، كما أن « الجليليين » قد دنسوا فناء المعبد برفات بابيلاس أسقف أنطاكية وبإقامة كنيسة فوق هذه الرفات . وفى الحال أمر يوليان بتطهير دافنى من « رجس النصارى » بنقل جثمان بابيلاس إلى ما وراء أسوار أنطاكية . ولكن المسيحيين هبوا جميعا يعانقون رفات القديس فى أكفانها ودوت الحناجر ملء الفضاء بالألحان الكنسية والمزامير ، فى تحد صارخ لمملكة الأوثان وسيدها يوليان . وعندما حل المساء إذ بنار ضارية تلتهم دافنى ومعبدها . وغلف الدخان إله الشمس فأتت ألسنة النار عليه . وغدا المسيحيون يذيعون أن لعنة القديس بابيلاس قد انصبت حمما على بيت الكفر فى دافنى . ولكن يوليان أيقن أن النصارى قد أحرقوا المعبد بفعل مكرهم ، فجن جنونه واضطهد أهل أنطاكية فى قسوة بالغة فقطعت رأس القس ثيودوريت ، وأغلقت أبواب كاتدرائية أنطاكية ، كما صودرت أملاكها جميعا[٥] .

هذا وقد قاسى مسيحيو غزة وعسقلان وقيسارية اضطهاداً شديداً على يد رجال يوليان : فقد أقدم هؤلاء على سحل الأساقفة ، وبقر بطون العذارى ، وحشو أمعاء الضحايا العديدين بالشعير ليقدم وجبة دنسة لخنازير المدينة . بل بلغ الحد أحياناً إلى أن شرب جند الوثنية دم أكباد الشهـــداء وقلوبهم ، كما يحدثنا عن ذلك تفصيلا — وفى صدق — جريجورى النازيانزين وفيلوستورجيوس وسوزومين .

كذلك كانت مصر مسرحاً لهذا الاضطهاد الدموى الذى ألقت به السلطات الوثنية فى ثقل على النصارى . ذلك أن جورج الكبادوكى الآريوسى المذهب كان قد تمكن

---

(٥) "Quo tam atroci casû repente consumpto, ad id usque imperatoris ira provexit; ut quaestiones agitare juberet solito acriores, et majorem ecclesiam Antiochiae claudi."

فى عهد الإمبراطور قنسطانطيوس من أن يجلس على كرسى الإسكندرية بدلا من مار أثاناسيوس المصرى بطل الأرثوذكسية . وكان جورج إلى جانب تعصبه الشديد لتعاليم آريوس يضمر عداوة بالغة للوثنية وجماعات التجار الأثرياء الوثنيين فى الإسكندرية . ولقد أعلن غداة تربعه على عرش البطريركية السكندرية : « حتى متى نسمح لبيوت الأصنام أن تقف بين ظهرانينا ؟ » ولذا فقد اضطهد وثنيى الإسكندرية اضطهاداً مريراً . على أنه بمجىء يوليان إلى العرش انتهى عهد جورج الكبادوكى . فقد ألقت السلطات الإمبراطورية القبض عليه وعلى اثنين من مساعديه هما ديودوروس ودراكونتيوس . ثم كبلهم الجند بالأغلال وزجوا بهم إلى السجن . وسرعان ما هجم غوغاء المدينة من الوثنيين على السجن واقتحموه وقتلوا جورج وصاحبيه . ثم جروا أجسادهم وعرضوها فى شوارع المدينة محمولة فى مهانة بالغة على ظهر جمل . وبعدها ألقوا بتلك الجثث إلى قاع اليم .

ومع أن جورج كان أريوسيًّا ، وبرغم أن حزب مار أثاناسيوس كان كارهاً له تماماً إلا أن المسيحية جمعاء ، أريوسية وأثاناسيوسية ، راحت تهلل لجورج الكبادوكى وقدمت له إكليل الشهداء . وفى سيرة جورج هذه وجد البعض نبعاً استقوا منه إحدى الأساطير لشخص مار جرجس أو سان جورج الذائع الصيت .

وفى الوقت نفسه الذى كانت الإسكندرية تشهد إبانه هذا الاضطهاد اليوليانى ، أصدر المرتد أوامره بضرب الأريوسية فى الرها : فصودرت أملاك كنائسها ووزعت أموالها وكنوزها على الجند . وعندها أعلن الإمبراطور فى سخرية لاذعة : « إنى بهذا أبرهن للجليليين على إخلاصى لهم ! أو ألم توص أناجيلهم بترك مال العالم وبالتطلع إلى ملكوت السموات . إننى بتجريدى لهم من أملاكهم أخفف عنهم أحمالهم الدنيوية وأزودهم بسلاح الفقراء والمحتاجين . احترسوا — أيها الجليليون — فإنى لضارب بيد من النار والحديد على كل شغب تنسجونه » .

وبعد انتهاء الثورة فى الإسكندرية صار عرش بطريركية الإسكندرية خالياً بسبب مقتل جورج الكبادوكى . فالتف الشعب حول مار أثاناسيوس وأجلسوه على كرسى القديس مرقص الرسول . ولكن يوليان كان شديد الكراهية والحقد لأثاناسيوس . فراح يقول بأنه قد دهش للغاية لأن مجرماً أثيماً — هو أثاناسيوس — قد تجرأ برغم

إدانته السابقة عدة مرات على أن يجلس نفسه على كرسى الإسكندرية فى تحد صارخ لقوانيننا الإمبراطورية ولإرادتنا السنية . ولذا أرسل إلى أكدكيوس حاكم الإسكندرية أمراً بنفى أثاناسيوس . ولكن أكدكيوس كان يعلم أنه ليس بوسعه تنفيذ أمر يوليان هذا ؛ لأن شعب مصر عن بكرة أبيه قد التفوا حول أثاناسيوس لا كزعيم روحى فحسب وإنما باعتباره رمزاً حياً بطولياً للتحديات المصرية ضد حكومة بيزنطة المستبدة ومليكها العاصى . وكان تراخى أكدكيوس هذا مدعاة لغضب الإمبراطور ، فكتب له يقول : « نحن وإن كنا قد نغفر لك إهمالك فى الكتابة إلينا عن بعض الأمور فى الاسكندرية ، فإننا لن نغفر لك صمتك وتكاسلك فى أمر أثاناسيوس عدو الآلهة الألد . وإنى ، قسما بالإله سيرابس المعظم ، أعلمك بأنه ما لم يتم نفى أثاناسيوس عن الاسكندرية فى غضون شهر ديسمبر ، فإننا لفارضون غرامة مائة جنيه من الذهب على كل مسئول فى حكم ولاية الإسكندرية ... وأنتم على علم بالمدى الذى يدفعنى إليه الغضب : فلئن كنت ممهلاً فى الدينونة فإنى لن أتهاون فى العقاب » . ثم أتبع الإمبراطور رسالته هذه بخطاب مكتوب بخط يده ، قال فيه لأكدكيوس : « إن الإزدراء الذى تلقاه الآلهة فى الإسكندرية من جانب أثاناسيوس ليملأنى غيظاً وحزناً . إن قلبى لن يقر له قرار حتى أعلم بطرد أثاناسيوس من الإسكندرية — هذا الوغد اللعين . لكم يحز فى نفسنا أن نعلم أنه فى عهد حكومتنا يقوم أثاناسيوس هذا بعماد فضليات السيدات اليونانيات »(٦) .

أمام هذا اضطر أثاناسيوس إلى الهروب إلى صحراء مصر حيث ظلله آباء الصحراء بالحماية من « فخاخ الشيطان » ومكر يوليان ، الذى كان يعلن مهدداً بأن « سم المدرسة الجليلية قد تخثر فى شخص أثاناسيوس » .

غير أن مسيحيى الولايات الشرقية قابلوا اضطهادات يوليان بعناد وتحد شديدين : فنى پسينوس قام الأهلون من النصارى بهدم مذبح الإلهة سيبيل على مرأى من يوليان ذاته . وفى قيصرية دمر معبد فورتينا حتى لم يبق فيه حجر على حجر . وقامت المظاهرات الصاخبة فى أغلب الولايات ضد سياسة يوليان التعسفية الوثنية ، وواح

---

(٦) "Ton miaron, os etolmesen Hellenidas, ep emou, nunaikas ton episemon baptisai diokesthai."

الأهلون يكيلون له الاتهامات على أساس وعلى غير أساس ، فزعموا أنه بعد أن ينتهى من حملته الحربية ضد فارس سوف يغرق الإمبراطورية بدم المسيحيين . ولذا فإن صلواتهم باتت تاوى فى قباب الكاتدرائيات والكنائس ، تنذر عنق يوليان العاصى أضحية للرب فى الأعالى .

فى تلك المرحلة كتب يوليان رواية بعنوان « القياصرة » فى أسلوب يفيض روعة وسخرية . ففى هذه الرواية نجد أن روميلوس قد أقام وليمة لأحبائه من آلهة الأولب ، ودعى إليها أيضاً حكام روما الذين خلفوه تباعاً . وجلس الخالدون فى نظام على عروشهم السمائية ، فى حين أن مائدة القياصرة قد بسطت تحت القمر . أما الطغاة ، الذين كانت زمرتهم تثير اشمئزاز الآلهة والبشر ، فقد ألقى بهم إلى نيميسيز ليقبعوا فى الهاوية . بعد هذا تقدم القياصرة كل إلى مقعده المعد له . وفيما هم يتقدمون إلى أماكنهم كان سيلينيوس العجوز — ذاك الأخلاقى الضاحك الثمل — يرصد على كل سوءاته ورذائله . وبعد انتهاء الوليمة انطلق صوت ميركورى ليعلن إرادة جوبيتر فى عقد تحكيم بين القياصرة لاختيار سيد المكرمات من بينهم ليمنح من الآلهة تاجاً سمائيًّا . ونوديت أسماء يوليوس قيصر وأغسطس وتراجان وماركوس أنطونينوس ، ولم يحرم قنسطنطين « المخنث » من شرف الترشيح لهذه الجائزة العلوية ؛ كما دعى الإسكندر ذو القرنين ليشارك السادة الرومان فى مسابقة الخلود هاتيك . وسمحت الآلهة لكل من هؤلاء القياصرة بأن يعدد مكرماته . فتحدثوا تباعاً وراح كل منهم يعدد انتصاراته الرائعة وكانت كلماتهم ترن فخاراً وبطولة . غير أن مجمع الآلهة كان ممتعضاً ، إذ رأوا فى صمت ماركوس أنطونينوس « وتأملاته » حكمة تضاءلت أمامها بلاغة القياصرة جميعاً وأمجادهم العسكرية . ولما حان الوقت للقضاة من الآلهة ليعلنوا قرارهم كان الإكليل السماوى من نصيب ماركوس أنطونينوس الإمبراطور الفيلسوف الرواقى . وهنا فاق إسكندر وقيصر وأغسطس وتراجان وقنسطنطين من غفلة المجد الحربى ، واعترفوا فى خجل زائد بأن السلطان والشهرة والمتعة كانت تمثل هدفهم الأعلى ؛ وأيقنوا وقتها أنه لا يصبو إلى منال الرضى فى عينى الآلهة سوى الفضيلة والوقار وحب الحكمة — فى جهد جهيد للتحلى بالسمات الخلقية للأرباب ذاتهم .

كان يوليان معجباً أيما إعجاب بفلسفة ماركوس أنطونينوس ، ولكنه فى الوقت

نفسه كان يمجد سيرة الإسكندر الأكبر وبطولاته الحربية . والواقع أن يوليان جمع بين صفات الاثنين : فلم تشغله تأملاته الفلسفية وحياته الرواقية عن ميدان القتال . فلقد كانت الأمم ترهب اسمه ، كما قدم إلى بلاطه سفراء الهند وسيلان وجماعات القوط يقدمون له فرائض الولاء والطاعة . ولم يبق أمامه سوى ملك الفرس المتعجرف الذى كان يغير على ممتلكات الرومان فى بلاد ما بين النهرين .

وكان سابور الفارسى قد أرسل سفارة إلى يوليان يدعوه إلى الصلح . غير أن يوليان أعلن للسفراء أنه لن يقبل صلحاً فى وقت كانت فيه ألسنة النيران الفارسية تلتهم مدائن ما بين النهرين . ثم أضاف للسفراء وهو يبتسم بأن ليست هنالك ضرورة للتفاوض مع السفراء الفرس لأنه هو ذاته كان عازماً على زيارة البلاط الفارسى فى سرعة الرمح . كان هذا – بطبيعة الحال – إعلاناً للحرب ضد سابور . وسرعان ما قاد يوليان جيشه وعبر آسيا الصغرى ثم حل فى أنطاكية . على أن بلاد الشام ، حيث كانت غالبية الأهلين من النصارى ، قابلت يوليان فى فتور زائد . كذلك عندما حلت أعياد الساتورناليا Saturnalia اكتظت شوارع أنطاكية بالدهماء ممن راحوا ينشدون ، على مسامع الإمبراطور ، الأغنيات المبتذلة والأراجيز الساخرة التى كان فيها تعريض لشخص يوليان ولحيته . ولقد استاء تلميذ سقراط هذا استياءاً شديداً من مسلك أهل أنطاكية . ولذلك فإنه أصر على التعريض بهم بصنف سلاحهم ، فنظم قصيدة ساخرة عنوانها « كاره اللحية » Misopagon ، وفيها إعترف بنقاط ضعفه ، ولكنه هاجم حياة المجون والخلاعة التى كان يحياها أهل أنطاكية « المخنثين » . وبعد هذا قرر مغادرة المدينة ليعسكر وجنده فى طرسوسة بقيليقيا ، بعد أن عين إسكندر المتجبر المستبد حاكماً على أنطاكية ليقلم أظافر أهلها « الجاحدين فى وقاحة »[٧] .

على أن مواطناً واحداً من أهل أنطاكية كان يملك من الحكمة والصيت ما جعل يوليان يتغاضى عن حماقات بقية أهليها ، وذلكم هو ليبانيوس صاحب مدرسة

(٧) "Ipse autem Antiochiam egressurus, Heliopoliten quendam Alexandrum Syriacae jurisdictioni praefecit, turbulentum et saevum ; dicebatque non illum meruisse, sed Antiochensibus avaris et contumeliosis hujusmodi judicem convenire." (Ammian. 23, 2).

الفلسفة اليونانية الأنطاكية . وكان ليبانيوس معلماً للبيان والنحو والفيلولوغيا . وقد رأى هذا المعلم الضالع أن المسيحية قد أحلت بالعالم ظلاماً حالك السواد ، ضاعت فيه معالم الإشراق السمائى والسعادة الحقة . ولقد قرأ يوليان محاضرات ليبانيوس جميعاً فى نهم زائد ، ثم أصبح فيما بعد مقرباً إلى الفليسوف بل صديقاً حميماً له .

تقدم يوليان على رأس جيشه لمحاربة الفرس حتى وصل إلى الدجلة . وهناك قابله أحد نبلاء الفرس وأقنعه أنه متمرد على الملك سابور وأنه سيرشده وجيشه إلى طريق النصر . ونجح هذا الفارسى فى التغرير بيوليان . وعند هذه المرحلة أقدم يوليان على خطوة متهورة ، إذ أمر بإحراق سفن أسطوله ليقنع جنده أنه ماض لإذلال الفرس فى عقر دارهم . وأتت النيران على ألف ومائة سفينة رومانية بأمر الإمبراطور يوليان . ثم زود الامبراطور معسكره بمؤونة عشرين يوماً فحسب . وزحف ورجاله صوب جبال ميديا ، ولكن الأهلين أشعلوا النار فى الحرث والزرع وهربوا إلى الجبال . وسرعان ما نفذت المؤن فى معسكر الرومان ، بعد أن ضل يوليان الطريق بفعل خيانة النبيل الفارسى وأتباعه الذين أوقعوا يوليان فى الفخ الذى كان سابور قد نصبه له فى دهاء بالغ . وهنا اختفى النبيل الفارسى تاركاً وراءه بعضاً من رجاله ، الذين اعترفوا — تحت وطأة التعذيب — بتفاصيل المؤامرة . وفى الحال قرر يوليان التقهقر قبالة الدجلة . ولكن سابور وجيوشه انقضوا على مؤخرة الفرق الرومانية وقتلوا منها الكثيرين ، فسقط خيرة ضباط يوليان الواحد بعد الآخر . كل هذا والمجاعة تزداد فتكاً بالجند اليائسين .

ولكن يوليان لقن جنده درساً بطولياً ، إذ كان يقاتل بجوارهم فى بسالة فائقة ، وكانت همته سبباً فى تحويل الهزيمة والعار إلى ما يشبه بوادر الصمود بل النصر للرومان . ولكن سهام الفرس المنقضة من علٍ غطت موقع الإمبراطور بسحابة حجبت البصر . وفيما راح حراسه يصيحون توسلا إليه أن يأخذ الحذر ، إذ بسهم يسلخ جلد يده وينسل ليستقر فى كبده . حاول يوليان أن ينزع السهم من جنبه ، ولكن سلاحه الحاد قطع أصابعه ، وسقط القائد من على صهوة جواده مغشياً عليه[٨] .

(٨) "Clambant hinc inde candidati quos disjecerat terror, ut fugientium molem tanquam ruinam male compositi culminis declinaret." (Ammian. 25, 3).

كانت الكلمات الأولى التى تفوه بها يوليان بعد أن أفاق من الإغماء أن طلب جواده وسلاحه ، ثم حاول النهوض لمواصلة القتال . ولكن الضربة كانت قاتلة ، ورأى أطباؤه أن الموت لا محالة مختطف سيدهم . ولقد قارن الفلاسفة الذين كانوا فى حاشية يوليان فى ذلك الوقت خيمته بالسجن الذى احتوى سقراط بوم إعدامه . وأنصت الجميع من حول يوليان إلى كلماته الأخيرة فى رهبة وحزن بالغين . تكلم فقال :

« أيها الأصدقاء والرفاق من الجند . لقد آن الأوان لأرحل ، وإنى فى وفاء العهد للديان لعلى بشاشة . لقد علمتنى الحكمة فضل الروح على الجسد ، ولذا فإن انفصال قبس النور عن محتواه ينبغى أن يشيع السعادة لا الأتراح .

ولقد تعلمت من درس الدين أن المنية الباكرة من نصاب الأخيار . وعلى هذا فإنى أستقبل هذه الضربة القاتلة على أنها منة من الآلهة لحمايتى من العار ، فلقد سلحت حياتى بزاد الفضيلة والفخار . وإنى إذ ألفظ أنفاسى الأخيرة أعترف بأننى لم أخلف ضبغائن ورائى : لقد عافت يداى الإثم . لقد كانت سيرة نقية فى العلانية والخفاء ، فحفظت السلطان الإلهى فى يدى بغير عيب ولا دنس . ومن دافع مقتى للطغيان كان مراد حكومتى أبداً إدخال السعد على الرعية . . . لقد كان السلام مقصدى طالما كان السلم فى الصالح العام . ولكن عندما نادانى الواجب لحمل السلاح ، عرضت ذاتى لخطر الحرب ، برغم بصيرتى السابقة بأنى سأسقط بضربة السيف (لقد علمت هذا من استخاراتى للآلهة) ، وإنى الآن أرفع الشكر للخالق الأزلى الذى لم يسمح لكيانى أن يهلك على يد أحد الطغاة أو بواسطة خنجر المتآمرين أو بفعل مرض عضال ، وإنما حمداً للآلهة التى منت على بالرحيل عن هذا العالم وأنا فى شرف ساحة القتال . كل هذا أقوله لكم وأنا أشعر الموت يدنو منى . وإنى أتعمد ألا أؤثر عليكم فى اختيار إمبراطور يخلفنى ، خشية أن يأتى الرأى منحازاً أو متعجلا . ولكننى كمواطن رومانى آمل أن يمنح الله الرومان حاكماً فاضلا »[٩] .

---

(٩) Ammianus Marcellinus, XXV, 3 :

"Advenit, o socii, nunc abeundi tempue e vita impendie tempestivum, quam reposcenti naturae ut deqitor bonae fidei redditurus exsulto, non, ut quidam opinantur,

بعد هذا التفت يوليان إلى الفيلسوفين برسكوس ومكسنيوس وراح يناقشهما فى طبيعة الروح . وهنا ازداد الجرح نزيفاً ، وصعب على القائد شهيقه فطلب

=afflictus et moerens, philosophorum sententia generali perdoctus, quantum corpore sit beatior animus, et contemplans, quoties conditio melior a deteriore secernitur, laetandum esse potius quam dolendum, illud quoque advertens quod etiam dii coelestes quibusdam piissimis mortem tanquam summum praemium persolverant. Munus autem id mihi delatum optime scio, ne difficultatibus succumberem arduis, neve me projiciam unquam aut prosternam, expertus quod dolores omnes ut insultant ignavis, ita persistentibus cedunt.

Nec me gestorum poenitet aut gravis flagitti recordatio stringit, vel cum in umbra et angulis amendarer, vel post principatum susceptum : quem tanquam a cognatione coelitum defluentem, immaculatum, ut existimo, conservavi, et civilia moderatius regens, et examinatis rationibus bella inferens et repellens, tamesti prosperitas simul utilitasque consultorum non ubique concordent, quoniam coeptorum eventus superae sibi vindicant potestates. Reputans autem justi esse finem imperii, obedientium commodum et salutem, ad tranquilliora semper, ut nostis, propensior fui, licentiam omnem actibus meis exterminans, rerum corruptricem et morum, gaudensque abeo gestiensque quod, ubicumque me, velut imperiosa parens, consideratis periculis objecit res publica, steti fundatus, turbines calcare fortuitorum assuefactus.

Nec fateri, pudebit, interiturum me ferro dudum didici, fide fatidica praecinente; ideoque sempiternum veneror numen, quod non clandestinis insidiis, nec longa morborum asperitate vel damnatorum fine decedo, sed in medio cursu florentium gloriarum hunc merui clarum e mundo digressum : aequo enim judicio juxta timidus est et ignavus, qui cum non oportet, mori desiderat, et qui refugiat, cum sit opportunum. Hactenus loqui, vigore virium labente, sufficiet. Super imperatore vero creando caute reticeo, ne per imprudentiam dignum praetereám, aut nominatum quem habilem reor, anteposito forsitan alio, in discrimen ultimum trudam. Ut alumnus autem rei publicae frugi, opto bonum post me reperiri rectorem".

ماء ، وما إن شربه حتى فاضت روحه فى غير ما ألم فى منتصف تلك الليلة تماماً .

كانت محاولة جوليا هى آخر محاولات الوثنية اليائسة فى صراعها مع المسيحية ، ولقد خسرت الوثنية المعركة بصفة قاطعة . ولقد استطاع آباء الكنيسة إقناع الأباطرة بأن عبادة الأوثان ما هى إلا تعبد للشياطين ؛ وهى جريمة كبرى تجلب سخط الرب . وعلى هذا فإن كهنة روما الخمسة عشر Augurs الذين كانوا يتفحصون الكون ويحددون مسار الأبطال ، كان ولا بد أن يجردوا من هذا السلطان . ولقى عرافو الأسرار السيبيلينية Quindecemvirs نفس المصير ، هم والعذارى الست . ودارت الدائرة أيضاً على سدنة الآلهة السبعة Epulos ، وعلى حملة المشاعل الثلاث للأرباب جوپيتر ومارس وكورينوس . وجرد ملك القرابين والأضحيات — الذى كان يمثل الملك نوما العظيم — من صولجانه .

وكان الإمبراطور جراتيان (٣٦٧ — ٣٨٣) قد رفض أن يتسلم من روما الأرواب الأرجوانية الخاصة بالكاهن الأعظم لأنها « ملطخة بوصمات الوثنية » . أما عن السيناتو الرومانى فقد ظل حتى ذلك الوقت قلعة وثنية بحق ، وكانت قاعة المجلس الموقر مزدانة بتمثال ومذبح ربة الانتصار الرابضة على الكرة فى أروابها الفضفاضة ؛ بينما أجنحتها منسابة ، وهى تمسك بالتاج فى يدها الممتدة . ولقد كانت العادة أن يقسم أعضاء السيناتو يمين الولاء لروما على هذا المذبح لربة الانتصار ، وكان يصحب هذا القسم تقدمـــة من الخمر والبخور للربة . وكان الإمبراطور قنسطانطيوس (٣٤٠ — ٣٥٥) قد نقل هذا الرمز الهائل إلى بيزنطة . ولكن جوليان المرتد أعاده إلى موقعه اللائق به فى قاعة الشيوخ الرومان ، وتغافل الإمبراطور ڤالنتينيان الأول (٣٦٤ — ٣٧٥) عنه . ولكن جراتيان حكم بإزالة ربة الانتصار من عرينها مرة أخرى . ولقد حفظ لنا التاريخ أخبار بعثة أوفدها السيناتو إلى الإمبراطور ڤالنتينيان الثانى (٣٧٥ — ٣٧٨) فى بيزنطة لتتوسل إليه من أجل إعادة مذبح ربة الانتصار إلى السيناتو . ولقد وكل السيناتو تلك المهمة الصعبة لرفيقهم المرموق سيماخوس Symmachus ، ذلك الشيخ النبيل الذى كان سجله ينطق بالفخار : فهو كاهن وعراف وقنصل سابق ومحافظ لمدينة روما . وكان سيماخوس يعلم بحساسية

مهمته الدبلوماسية ، فهو يتجنب أية إشارة إلى الدين المسيحى الذى كان الإمبراطور يدين به ، ولذا فإنه يلجأ إلى التوسل والتضرع « فهما سلاحنا المتبقى » . على أن هذا الرومانى العجوز يحاول أن يثير خيال الفتى الجالس على عرش أغسطس فيعدد له مكرمات روما ربة الانتصار : ففى ظلها أخضعت الأرض لقانون الرومان ، ودان لقيصر هانيبال ونجى الكابيتول من كيد الأعداء . لماذا إذن ينكر على روما الربة حقها فى الحرية التى هى صاحبتها ، ولماذا تجبر على نبذ تقاليد السلف الصالح[١٠]. ولقد تعمد سيماخوس أن تأتى توسلاته على لسان الربة روما ذاتها ، ولكنه كان يدافع عن قضية قضى عليها بالخسران .

لقد انبرى أمبروز Ambrose رئيس أساقفة ميلان الشهير يفند أسانيد الوثنية واحدة فواحدة . فأوضح أن حجج روما لا تعدو أن تكون خطابة جوفاء ، ونادى بأن الضمان الوحيد للخلاص يكمن فى المسيحية . أما الوثنية فهى الشرك الذى يؤدى بأهله إلى الهلاك . وكان أمبروز يتمتع بشعبية عريضة وكان الأباطرة أنفسهم يجلونه ولقد كانت جهود أمبروز من بين الأسباب الأساسية التى أحبطت محاولة سيماخوس فى إرجاع مذبح الانتصار إلى روما .

ولما تولى ثيودوسيوس العظيم حكم الإمبراطورية (٣٧٨ ــ ٣٩٥) عقد مجلس السيناتو وطرح على الشيوخ ــ وفقاً لتقاليد الجمهورية ــ السؤال الآتى : من ينبغى له أن يبقى جوبيتر أم المسيح ؟ وحدثت المفاجأة الكبرى إذ قرر السيناتو بأغلبية ساحقة إسقاط جوبيتر . وهذا التحول الفجائى فى مشاعر النبالة الرومانية أمر محير للغاية : هل رأى الشيوخ فى نفى رفيقهم سيماخوس نذيراً فآثروا عدم إثارة غضب ثيودوسيوس عليهم ، أم أنهم قد أيقنوا أن جواد جوبيتر هو الخاسر لا محالة ، أم

---

(١٠) Symmachus, Relationes, III :

"Optimi principum, patres patriae, reveremini annos meos, in quos me pius ritus adduxit ! Utar caeremoniis avitis, vivam meo more, quia libera sum ! Hic cultus in leges meas orbem redegit, haec sacra Hannibalem a moenibus, a Capitolio Senonas repulerunt. Ad hoc servata sum, ut, longaeva reprehendar ? Videro quale sit quod instituendum putatur : sera tamen et contumeliosa est emendatio senectutis."

أن زوجات هؤلاء السادة وعبيدهم — الذين كانوا من أتباع المسيح — قد أثروا عليهم بتعاليمهم الجديدة ؟

كانت أول الأسرات الرومانية التى اعتنقت المسيحية أسرة أنيشيوس : وحذا حذوها بيت باسوس وآل باولينوس ثم آل جراكوس . وقد وصف الشاعر المعاصر كلمنس برودنتيوس (ولد فى ٣٤٨ م) هذه المناسبة بقوله : « إن رفاق كاتو وشيشيرون لم يعودوا يطيقون أردية الكهانة الوثنية على أجسادهم فألقوا بها عن ذواتهم مثلما تخلع الثعابين جلدها القديم . ثم تقمطوا الأرواب البيضاء فى لون الثلج لينعموا بمـــاء المعمودية » . بعد هذا زحفت جماهير الشعب وفوداً على كنيسة اللاتيران وكنيسة الفاتيكان حيث صلوا صلاة سقوط جماعة الكابيتول . ويرى إدوارد جيبون فى هذا التحول المذهل « خضوعاً رومانياً لطغيان الإنجيل »[١١] .

بعد هذا الانتصار على قلعة الوثنية أصدر ثيودوسيوس العظيم قانوناً يحرم على الرعية فى شتى أرجاء الامبراطورية تقديم الأضحيات . ثم صدرت الأوامر لكل من سنجيوس Cynegius حاكم الشرق وجوفيوس Jovius وجودنتيوس Gaudentius القائدين المرموقين فى الغرب بإغلاق المعابد الوثنية وتحطيم أوثانها ومصادرة أملاكها ، على أن تؤول هذه إلى الكنائس والجيش الإمبراطورى . وفى غالة قاد مارتن أسقف مدينة تور مظاهرة مسلحة من الرهبان لتحطيم المعابد الوثنية . وفى سوريا قاد الأسقف مارسيللوس مظاهرة مماثلة لإشعال النار فى معابد آپاميا ، برغم أنه كان أعرج لا تسعفه قدمه على هذا العنف . ولما أن أجهده الطريق استراح على مسافة من أعمال التدمير ، حيث هجم عليه نفر من الوثنيين وقتلوه . ولما اكتشف الرهبان مقتل أستاذهم الأسقف انقضوا على الأهلين وقاموا بأعمال السلب والنهب فى صورة أبشع من الصورة التى كانوا يضجون منها عندما كانت الكلمة للوثنية على المسيحية . ولهذا نجد الفيلسوف الوثنى الكبير ليبانيوس Libanius يسخر من هؤلاء الرهبان المسيحيين « أصحاب العباءات السوداء القاتمة الذين يفوقون الفيلة الشملة فى شراهتها . . . لا إن الفيلة تعاف أن تشبه بهم » .

ثم دارت الدائرة على سيرابيس Serapis . وسيرابيس هو إله الإسكندرية الذى

---

(١١) Gibbon, E., Decline and Fall, Ch. 28 : "Rome submitted to the yoke of the Gospel."

كان قد ظهر لبطليموس الأول فى المنام (فى القرن الرابع ق. م) وطلب منه أن يعمل على نقله من مدينة سينوبى على شواطىء بنطس إلى الإسكندرية . ولما تفرس الكهنة المصريون فى هذا الإله الوافد من بنطس تعرفوا فيه على ملامح الإله المصرى الطيب أوزوريس الشهيد زوج إيزيس الجميلة الوفية . وقد عبده المصريون والأغارقة على حد سواء . ولقد تفنن البطالمة فى إقامة معبد رائع له هو سيرابيوم الإسكندرية الشهير ، الذى صار البيت الأكبر للعبادة على مر العصرين البطلمى والرومانى .

ومع أن ثيودوسيوس العظيم قد أمر بتحطيم الأوثان ، إلا أنه تغافل عن أمر سيرابيس ، وظل الوثنيون فى الإسكندرية يقدمون له الأضحيات . ويبدو أن مسيحيى الإسكندرية أنفسهم كانوا يخشون إثارة غضب سيرابيس ، فهو أوزوريس الذى يجلب الفيضان كل عام ، وهو الذى يكسى الوادى خضرة والسنابل قمحاً ، ويملأ بطون السكندريين ويغذى دهماء روما والقسطنطينية .

ولكن مسيحياً واحداً فى الإسكندرية قام بتحدى سيرابيس وجبروته ، ذلكم هو ثاوفيلوس بطريرك الإسكندرية . وثاوفيلوس هو رجل المتناقضات : فهو لايتحدث إلا عن الفضيلة ، ويكرس حياته لنصرة المسيحية ، ولكن يده كانت ملطخة بالدم وبيصمات الذهب . وكان ثاوفيلوس قد نجح فى هدم معبد باخوس (باكوس) إله الخمر ، وخشى الوثنيون أن تكون غزوة البطريرك التالية ضد رب الأرباب سيرابيس . ولهذا فإن فيلسوف الوثنية السكندرى أوليمبيوس استنفر قومه ليذودوا عن إلههم العظيم ، وهبت جموع مسلحة من الوثنيين للدفاع عن السيرابيوم حتى الموت . وزحف المسيحيون وضربوا حصاراً حول سيرابيس ورعيته ، واشتبك الطرفان فى عنف بالغ وقتل الكثيرون من الجانبين . وتدخلت السلطات الرومانية فى الأمر ووفق القضاة إلى إبرام هدنة بين الطرفين حتى يكتبوا إلى الإمبراطور ثيودوسيوس ليحكم فى أمر سيرابيس . ولما أن وصل القرار الإمبراطورى اجتمع الطرفان فى الميدان العام فى الاسكندرية ، وتلى المرسوم فإذا به ينص على إزالة كل الأوثان من الإسكندرية . وعندها علت صيحات المسيحيين تدوى فى السماء وتوارى الوثنيون كاسفى البال ، خوفاً من الهلاك على يد الجماعة التى أسكرها النصر .

وتقدم ثاوفيلوس موكب الانتصار الزاحف على السيرابيوم ، وعملت معاول الهدم

فى بيت العبادة السكندرى فحولته إلى كومة من رماد . وكان تمثـــال سيرابيس يقف شامخاً ، يحمل الصولجان بيده اليسرى ، والمكيال على رأسه ، ويده اليمنى تمسك بالتنين الذى له جسد ورأس الثعبان، وذيول ثلاثة تنتهى بثلاثة رءوس إحداها لكلب والأخرى لأسد والثالثة لذئب . وكانت هنالك أسطورة فى الإسكندرية تقول إنه إن امتدت يد لتهين كرامة هذا الإله فإن السماء تنطبق على الأرض ويسود العالم خراب شديد . على أن جندياً مسيحياً أخذته الحمية وقد تسلح بالبلطة ، فصعد الدرج وانقض بثقل سلاحه على وجنة سيرابيس فسقطت الوجنة على الأرض . ولم تهتز السماء ، ولا الأرض مادت ! وتتابعت ضربات الجندى على سيرابيس فمزقته إرباً ، وتخاطفت غوغاء المسيحيين قدمى الإله وأطرافه وعرضوها فى مواكب السخرية فى شوارع المدينة وملاعبها ومسارحها . وظن الوثنيون أن النيل لن يفيض وأن أبا الهول سينهار . ولكن هذا لم يكن . وأيقن عباد سيرابيس أنه إله عاجز تماماً أصم كالحجر ، فقلبوا له ظهر المجن ودخلوا أفواجاً فى كنيسة الإسكندرية .

الفصل الرابع

هراطقة وأرثوذكس

« إنى أتعجب أنكم تنتقلون هكذا سريعاً . . . :
كما سبقنا فقلنا أقول الآن أيضاً إن كان أحد
يبشركم بغير ما قبلتم فليكن أناثيما » .

« بولس الرسول »

تمسك آباء الكنيسة الأولون بالسيرة التى تواترت عن تلاميذ المسيح وبإيمانهم الذى كان من إلهام الروح القدس . والرسل هم أول من عقدوا مجمعاً مسكونيًّا ، أى عالميًّا ، بمعناه الصحيح ، ونجد أخباره فى سفر أعمال الرسل :

« ولما حضر يوم الخمسين كان الجميع معاً بنفس واحدة . وصار بغتة من السماء صوت كما من هبوب ريح عاصفة وملأ كل البيت حيث كانوا جالسين . وظهرت لهم ألسنة منقسمة كأنها من نار واستقرت على كل واحد منهم . وامتلأ الجميع من الروح القدس وابتدأوا يتكلمون بألسنة أخرى كما أعطاهم الروح أن ينطقوا . . . فرتيون وماديون وعيلاميون والساكنون ما بين النهرين واليهودية وكبدوكية وبنتس وأسيا وفريجية وبمفيلية ومصر ونواحى ليبية التى نحو القيروان ، والرومانيون المستوطنون يهود ودخلاء كريتيون وعرب » .

وللرسل قانون للإيمان ورد فى رسالة تعرف باسم « رسالة الرسل » Epistola Apostolorum ، وهى قد كتبت أصلا باللغة اليونانية ، وليس لدينا الآن سوى صيغتها الأثيوبية ، كما حفظ جزء منها باللغة القبطية وجزء صغير آخر حفظ باللغة اللاتينية . ويكاد معظم الدارسين يجمعون على أن تاريخها يسبق عام ١٥٠ م ، ورسالة الرسل على هذا هى أقدم نص تاريخى يحدد قوامه الإيمان وأركانه ومن ثم يوضح المفهوم

الأول للأرثوذكسية السليمة . ولأهمية هذه النقطة رأينا أن نورد مضمون كل من رسالة الرسل ، وقانون الإيمان فى الكنيسة القبطية ، وقانون ارينايوس ، ثم قانون الإيمان الإفريقى على الترتيب[١] .

رسالة الرسل : « أؤمن بالله الأب ، وبيسوع المسيح مخلصنا ، وبالروح القدوس البارقليط ، وبالكنيسة المقدسة ، وبغفران الخطايا » .

قانون الإيمان القبطى : « أؤمن بإله واحد الله الأب ، وبابنه الوحيد مخلصنا يسوع المسيح ، وبالروح القدس معطى الحياة ، وبالكنيسة الأرثوذكسية المقدسة ، وبالحياة الأبدية » .

قانون ارينايوس : « أؤمن بالله الأب ، وبيسوع المسيح ابنه الذى تجسد ، ومات ، وقام من الأموات ، وبالروح القدس ، وبغفران الخطايا ، وبالحياة الأبدية » .

ولا يختلف قانون الإيمان الإفريقى كثيراً عن قانون ارينايوس[٢] .

والمشاكل العويصة فى اللاهوت المسيحى تدور حول الثالوث (الأب ، الابن ، الروح القدس)

---

(١) See Badcock, F.J., The History of the Creeds, pt. II.

(٢) "Credo in Deum Patrem omnipotentem universorum Creatorem,
Credo in Jesum Christum, Filium Eius unicum, Dominum nostrum, qui natum est,
Crucifixus, resurrexit;
Credo in Spiritum Sanctum;
Remissionem peccatorum;
Carnis resurrectionem
Et vitam aeternam per sanctam Ecclesiam."
(Enchiridion Symbolorum Definitionum et Declarationum, Auctore Henrico Denzinger).
See Bibliography.

في القضايا الآتيـــة : هل الابن مساو للأب في الجوهر ؟
هل للابن طبيعة واحدة أم طبيعتان ؟
هل الروح القدس إله كامل ؟
هل العذراء مريم أم للمسيح في طبيعته البشرية أم في طبيعته الإلهية ؟

هذه القضايا التي اختلف حولها الأولون وتنازعوا هي التي من أجلها عقدت المجامع المسكونية لمدارستها ولاتخاذ قرارات صار الالتزام بها هو الشرط الأساسي لتحديد الأرثوذكسية . ومن خرج على ما اتفق عليه الآباء في هذه المجامع دمغ بالهرطقة .

انعقد المجمع المسكوني الأول في مدينة نيقيا سنة ٣٢٥ برياسة الإمبراطور قنسطنطين العظيم لمناقشة تعاليم آريوس القس السكندري ، الذي نادى بأن الابن (المسيح) أقل من الآب في الجوهر ، بل ووضع المسيح بين سائر المخلوقات . حقيقة أنه قال بسمو هذا المخلوق ، ولكنه وضعه بين سائر البشر . وبعد نقاش طويل تجلت خلاله مواهب اثناسيوس السكندري وقوة حجته رفض المجلس آراء أريوس وأدانها بالهرطقة لأن « ألوهية المسيح هي الأمل الوحيد الذي يربطنا بالله الآب ؛ لأنه لا أحد سوى الله وحده بقادر على احتواء المخلوق وضمه في الخالق . والمسيح على هذا من نفس جوهر الآب (Homoousios) ، وهو ليس بشبه إله أو مخلوق مميز بل إله حق من إله حق ، نور من نور ، مولود غير مخلوق قبل كل الدهور ، مساو للآب في الجوهر »[٣] .

وإلى جانب هذه المشكلة اللاهوتية عالج المجمع وسائل تنظيم الكنيسة فرتب القانون السادس الكنائس الرسولية على الوجه الآتي : روما ، الإسكندرية ،

---

(٣) "Credo in unum Dominum, Jesum Christum,
Filium Dei, natum de Deo, Deum de Deo,
Lumen de lumine,
Deum verum de Deo vero,
Natum ante omnia saecula, non factum!.."

أنطاكية . أما أسقفية أورشليم ، التى كانت واقعة تحت إشراف أبروشية قيسارية ، فيأتى ترتيبها بعد هذه الكنائس الثلاث سالفة الذكر[٤] . وبالطبع لم يرد ذكر بيزنطة فى هذا التنظيم الكنسى لأن مدينة القسطنطينية لم تفتتح إلا بعد مجمع نيقيا بخمسة أعوام لتكون عاصمة للإمبراطورية . ولقد ظلت كنيسة بيزنطة خاضعة – كما كانت الحال من قبل – لأبروشية هيراقليا .

أما المجمع المسكونى الثانى فقد انعقد فى القسطنطينية فى سنة ٣٨١ على عهد الإمبراطور ثيودوسيوس العظيم ، لمناقشة آراء ماسيدونيوس الذى علم بأن الروح القدس أقل من الآب والابن فى الجوهر . ولذا عرف ماسيدونيوس وأتباعه باسم « أعداء الروح القدس » Pneumatomachoi . وكانت هذه النظرية تهدد أقنوما من الأقانيم الثلاثة – هو الروح القدس – بنفس القدر الذى هددت به الأريوسية نظرية التثليث . ولذلك جدد الآباء المؤتمرون فى مجمع القسطنطنية قانون الإيمان النيقى ، وأكدوا ألوهية الروح القدس « الرب المحيي المنبثق من الآب المسجود له مع الآب والابن الذى نطق به الرسل الأطهار »[٥] .

استقرت مسألة الثالوث بعد مجمع القسطنطينية هذا . على أنه يجب أن نذكر أن الكنيسة اللاتينية قد أضافت إلى قانون الإيمان النيقو قسطنطينى عبارة تقول بانبثاق الروح القدس « من الابن أيضاً » Filioque . وهذه الإضافة الدخيلة على قانون الإيمان ظهرت أول ما ظهرت فى إسبانيا فى مؤتمر طليطلة (٥٨٩ م)[٦] ، ثم تبنتها الكنيسة الفرنجية . وقد كان لهذا آثار بالغة الخطورة فى تعميق الخلاف بين الكنيسة الشرقية وكنيسة روما مما أدى إلى الشقاق بين الجانبين[٧] .

---

(٤) راجع المخطوطة الخاصة بقوانين مجمع نيقيا فى حاشية الكتاب .

(٥) "... et in Spiritum Sanctum, Dominum et vivificantem, ex Patre procedentem, cum Patre et Filio adorandum et conglorificandum, qui locutus est per sanctos prophetas. Et unam Sanctam catholicam et apostolicam Ecclesiam.

(٦) انظر باب القوط الغربيين .

(٧) راجع الفصل الأول من كتاب « روما وبيزنطة » الدكتور إسحق عبيد . دار المعارف ١٩٧٠ .

ولقد قرر الآباء المجتمعون فى هذا المجمع المسكونى الثانى رفع كنيسة بيزنطة إلى الرتبة الثانية بعد كنيسة روما ؛ لأنه لم يكن من اللائق تجاهل عاصمة الإمبراطورية المسيحية . وعلى هذا فإن القانون الثالث لهذا المجمع وضع كنيسة القسطنطينية قبل كنيسة الإسكندرية ذاتها ، وصار أسقف بيزنطة « يتمتع بالشرف الذى يتلو الشرف الذى يتمتع به أسقف روما لأن القسطنطينية هى روما الجديدة » .

كان قانون الإيمان الذى اتفق عليه فى مجمعى نيقيا والقسطنطينية والمعروف باسم Symbolum Nicaeeno Constantinopolitanum نتيجة لجهود القديس آثاناسيوس السكندرى بطل الأرثوذكسية الذى اهتدى إلى كلمة Homoousios « مساو للآب فى الجوهر » والتى سهلت على الآباء مشكلة صياغة قانون الإيمان هذا[٨] . ولقد حمل رسالة الأرثوذكسية من بعد القديس آثاناسيوس ثلاثة من آباء كبادوكيا هم القديس جريجورى من نازيانزوس الشهير بجريجورى اللاهوتى (٣٢٩ — ٣٩٠) ، وبازيل الأعظم (٣٣٠ — ٣٧٩) ، ثم شقيقه الأصغر جريجورى من نيسا (توفى سنة ٣٩٤) .

ولقد ظهرت صيغة لاتينية لقانون الإيمان فى غرب أوربا نسبت إلى القديس أثاناسيوس ذاته ، وهى الصيغة المعروفة باسم « إلى من يريد الخلاص »[٩] Quicumque vult salvus esse . ولقد دس الغرب اللاتينى على هذا النص قول القديس أثاناسيوس بانبثاق الروح القدس من الابن مثلما هو منبثق من الآب[١٠] . وهذا تزييف مؤكد :

---

(٨) "Credimus in unum Deum Patrem omnipotentem, .. Et in unum Dominum Iesum Christum .. Et in Spiritum Sanctum, Dominum et vivificantem, ex Patre procedentem.. Et unam Sanctam Catholicam et apostolicam Ecclesiam. Confitemur unum baptisma in remissionem peccatorum. Exspectamus resurrectionem mortuorum, et vitam futuri sacculi. Amen."

راجع النص الكامل لهذا القانون فى الحاشية .

(٩) انظر النص الكامل باللاتينية فى حاشية الكتاب .

(١٠) "Fides autem Catholica haec est, ut unum Deum in Trinitate, et Trinitatem in

يمكننا أن نلمس من قصة المجامع إلى جانب الجدل اللاهوتى العميق تطلعات إلى الزعامة الكنسية بين الآباء الأساقفة ، ذلك أن كل كرسى من كراسى الأسقفيات الرسولية أراد أن يجعل من مدرسته الحكم الأوحد للأرثوذكسية ، مما أدى إلى بروز النعرات المصرية والأنطاكية والطموح البيزنطى والمطامع الرومانية .

والواقع أن كلا من الإسكندرية وروما قد غضبتا من القانون الثالث لمجمع القسطنطينية الذى رفع كنيسة بيزنطة من العدم إلى المرتبة الثانية على حساب الإسكندرية ، وتحرشاً بنفوذ روما . والإسكندرية حتى ذلك الوقت كانت صاحبة القول الفصل فى المسائل اللاهوتية ، فهى كرسى القديس مرقص ، ويكفيها اثناسيوس على مدى التاريخ لتطالب بصلاحياتها الأرثوذكسية وبتفوقها فى تفهم المشكلات اللاهوتية المستعصية . أما روما فقد رأت فى تحركات أسقفية بيزنطة ما يدعو إلى الريبة :

فالقسطنطينية وهى العاصمة الجديدة للإمبراطورية ومقر الإمبراطور المسيحى قد لا تكتفى بالرتبة الثانية بين الكنائس وإنما قد يأتى اليوم الذى تتطلع فيه إلى المكان الأول مما يضيع على أسقفية روما ما تستند إليه من مقومات رسولية وادعاءات فى الإمارة على الكنيسة العالمية . ولذا فقد رفضت روما الموافقة على هذا القانون الثالث إلى أن انعقد مجلس اللاتيران فى عام ١٢١٥ ؛ أى أن روما لم توافق على هذا القانون إلا بعد مرور ٨٣٤ عاماً من إصداره ، وذلك حينما كانت الإمبراطورية البيزنطية قد سقطت بالفعل فى أيدى جنود الحملة الصليبية الرابعة (١٢٠٤) التى كان قد بشر بها البابا أنوسنت الثالث . ومعنى هذا أن البابوية لم تعترف لكنيسة بيزنطة بالمرتبة الثانية بين الكنائس الرسولية الخمس إلا بعد أن أصبحت بيزنطة خاضعة بالفعل للسلطان البابوى . هذا عن موقف روما .

أما عن الإسكندرية فقد دخلت بعد صدور هذا القانون الثالث فى صراع عنيف مع بيزنطة دام سبعين عاماً ، وكان النصر خلال هذه الفترة فى جانب مدرسة

= unitate veneremur .. et tamen non tres domini, sed unus est Dominus..

Spiritus Sanctus a Patre et Filio, non factus nec creatus, nec genitus, sed procedens."

الإسكندرية التى نجحت بالفعل فى إذلال أساقفة بيزنطة فى أكثر من موقف . والانتصار الأول الذى أحرزه السكندريون على بيزنطة كان فى عام ٤٠٣ عندما نجح ثاوفيلوس أسقف الإسكندرية فى خلع ونفى يوحنا ذهبى الفم من منصب الأسقية لبيزنطة(١١) . أما الانتصار الثانى للإسكندرية فكان فى المجمع المسكونى الثالث الذى انعقد فى أفيسوس سنة ٤٣١ على عهد الإمبراطور ثيودوسيوس الثانى . وفى هذا المجمع نوقشت آراء نسطور Nestorius أسقف القسطنطينية الذى تبنى آراء المدرسة الأنطاكية التى كانت تنادى بضرورة التمييز بين طبيعتى المسيح البشرية والإلهية . وراح نسطور يفصل فى أمر الطبيعة الناسوتية للمسيح إلى حد بدا معه أن هنالك ازدواجاً فى شخصية المسيح : من ذلك قول نسطور أن مريم العذراء لم تكن أماً للمسيح فى طبيعته الإلهية وإنما هى أم للمسيح فى طبيعته البشرية فقط (والدة المسيح وليست والدة الإله) . ووجد كيرلس أسقف الإسكندرية — وهو ابن أخ وخليفة ثاوفيلوس سابق الذكر — فرصته لإذلال أسقف بيزنطة مرة أخرى ، فأخرج للآباء المجتمعين فى أفيسوس الإصحاح الأول من إنجيل يوحنا وقرأ عليهم « لقد صارت الكلمة جسداً » . وأدين نسطور والنساطرة بالهرطقة ، وقرر مجمع أفيسوس أن

---

(١١) يوحنا ذهبى الفم : ولد فى أنطاكية فى عام ٣٤٧ وتوفى فى كومانة ببنطس فى ١٤ سبتمبر عام ٤٠٧ . وكان يوحنا الابن الوحيد لأحد القواد فى الجيش الإمبراطورى ، ولقد ربته والدته على تعاليم المسيحية ، ولكنه لم يعمد إلا فى سن الرجولة . ولقد درس يوحنا القانون وتتلمذ على يد الفيلسوف الوثنى العظيم ليبانيوس . على أنه غير رأيه فجأة وتوحد فى الجبال ، وفى عام ٣٨١ سيم قسا فى أنطاكية . ولقد ذاعت شهرة يوحنا كواعظ ينطق بدرر الكلام وبالحكمة فسمى بذهبى الفم . وفى عام ٣٩٨ اختير اسقفا لكرسى بيزنطة . ولقد اصطدم يوحنا بالإمبراطورة يدوكسيا زوج اركاديوس لأنه كان يوبخها علانية بسبب إسرافها ومجونها . وفى عام ٤٠٣ نجحت المؤامرة التى دبرتها يدوكسيا ضد الأسقف واجتمع مجلس خارج القسطنطينية برياسة ثاوفيلوس أسقف الإسكندرية ، ولفق المجلس بعض الاتهامات ضد ذهبى الفم وقرروا عزله . ولقد نفاه الإمبراطور ولكنه سرعان ما استدعاه من المنفى . ولكن مؤامرات الأعداء كانت لاتكف فنفاه الإمبراطور مرة أخرى إلى أرمينيا ، وفى عام ٤٠٧ أمر بترحيله إلى بتيس فى إيبيريا ، ولكن القديس توفى أثناء هذه الرحلة المضنية .

ويعتبر ذهبى الفم واحداً من الأربعة المعلمين للكنيسة البيزنطية . وأهم مؤلفاته تعليقاته على رسائل القديس بولس ، ومواعظه العديدة ، ومدائحه لسيرة الشهداء ، وشروحه لطقوس المعمودية . . .

العذراء مريم هى « والدة الإله »[(١٢)] Theotokos وكسبت الإسكندرية الجولة الثانية وصار شعارها « الجوهر الواحد ووالدة الإله » — للتدليل على انتصارها على كل من الأريوسية والنسطورية — واتخذ منهما مبرراً لزعامتها فى الأرثوذكسة .

على أن النصر على ما يبدو كان قد أسكر السكندريين فتجاوزوا الحدود : ذلك أنهم عقدوا مجمعاً آخر فى أفيسوس سنة ٤٤٩ لتأكيد ألوهية المسيح . ولقد أدى حرص أتباع كيرلس على تأكيد هذا المعنى إلى أن جاءت براهينهم لتهدد ناسوت المسيح ، فبدا وكأن لاهوته قد استوعب ناسوته . ومن وجهة نظر هذا الفريق لم تعد للمسيح طبيعتان بل طبيعة واحدة هى الطبيعة الإلهية ، ومن ثم عرف السكندريون وعلى رأسهم أسقفهم ديوسقورس بأصحاب مذهب الطبيعة الواحدة : المنافزة أو المونوفيزيتيين Monophysites (مونو = واحد ، فيوزيس = طبيعة) .

وكان لديوسقورس السكندرى مؤيد مونوفيزى كبير هو أوطاخيا Eutyches الذى كان وكيلاً لأحد الأديرة فى القسطنطينية . ولقد لقيت تعاليم ديوسقورس وأوطاخيا قبولا وتأييداً من جانب الإمبراطور ثيودوسيوس الثانى (٤٠٨ — ٤٥٠) . ولكن أسقف القسطنطينية والبابا ليو الأول العظيم وقفا بشدة يعارضان فكرة الطبيعة الواحدة . وبرغم هذا نجح ديوسقورس فى إقناع الإمبراطور بعقد مجمع فى أفيسوس سنة ٤٤٩ . وقد ترأس ديوسقورس هذا المجمع وأجبر أعضاءه — برغم أنفهم — على الاعتراف بتعاليم أوطاخيا المونوفيزية .

ولقد صدق الإمبراطور على قرارات المجلس . ولكن البابا ليو لم يهدأ وشن حرباً ضد هذا المجمع حتى أسقط من عداد المجامع المسكونية وعرف باسم « مجمع اللصوص » Latrocinium .

وفى سنة ٤٥١ انعقد المجمع المسكونى الرابع فى خلدونية على عهد إمبراطور مارقيان (٤٥٠ — ٤٥٧) وبدعوة من البابا ليو الأول العظيم ، وذلك لمحاكمة تعاليم

---

(١٢) Anathematismi Cyrilli Contra Nestorium :

"Si quis non confitetur, Deum esse veraciter Emmanuel, et propterea Dei genitricem sanctam virginem : peperit enim secundum carnem factum Dei verbum, anathema sit."

الإسكندرية المونوفيزية . وأكد الآباء المجتمعون فى خلقيدونية أن للمسيح طبيعتين : بشرية وإلهية . والحق أن الفضل فى حسم هذا النزاع يرجع إلى البابا ليو الذى قدم مقولته الشهيرة باسم Tomus وفند فيها آراء أوطاخيا وديوسقورس ، وأكد أن ناسوت المسيح كامل كما أن لاهوته كامل أيضاً فى غير لبس ولا امتزاج ، فهو إنسان كامل وإله كامل(١٣) . وبهذا أدينت تعاليم المنافزة على أنها غير أرثوذكسية . وإلى جانب ذلك أكد مجمع خلقيدونية من جديد القانون الثالث لمجمع القسطنطينية الخاص برفع مركز أسقفية بيزنطة إلى الرتبة الثانية بعد أسقية روما . وكان هذا إذلالا آخر للسكندريين الذين فقدت كنيستهم المركز الثانى . كذلك منح آباء خلقيدونية أساقفة الكنائس الخمس لقب بطريرك ، وهى بالترتيب الخلقيدونى : روما ، القسطنطينية ، الإسكندرية ، أنطاكية ، وأورشليم .

غير أن البابا ليو قد عارض القانون الثامن والعشرين لخلقيدونية الذى أعطى لكنيسة بيزنطة المركز الثانى بعد روما ، فكتب إلى الإمبراطور مارقيان يستنكر هذا القرار ويلقى تبعة هذا التطرف فى أطماع كنيسة بيزنطة على أناتوليوس أسقف القسطنطينية متهماً إياه بالطمع الزائد والتطاول على حقوق روما ، مذكراً الإمبراطور والبطريرك بأن القسطنطينية أصلا لم تكن لتستحق حتى مجرد لفظة « أسقفية » لأن ليس لها أصل رسولى(١٤) .

ولعله من الضرورى هنا أن نوضح أن مبدأ الطبيعتين للمسيح ، هذا المبدأ الذى أكده مجمع خلقيدونية هو من قول كل من ثيودور من مصيصه (موبوستيا)

(١٣) "Unum eundemque Christum Filium Dominum unigenitum, in duabus naturis inconfuse, .. unum eundemque confiteri Filium et dominum nostrum Iesum Christum consonanter omnes docemus, eundemque perfectum in deitate, et eundem perfectum in humanitate.."

"Qui enim verus est Deus, idem verus est homo, et nullum est in hac unitate mendacium, dum invicem sunt et humilitas hominis et altitudo Deitatis."

(١٤) "Satis sit praedicto Anatolio quod vestrae pietatis auxilio, et mei favoris assensu, Episcopatum tantae urbis obtinuit. Non dedignetur Regiam civitatem, quam apostolicam non potest facere sedem; nec ullo speret modo, quod per aliorum possit offensiones augeri."

ونسطور ذاته . ولكن الغريب أن مجمع خلقيدونية وقد أمر بإعادة الأساقفة من أتباع مدرسة نسطور وثيودور إلى أبروشياتهم ، إلا أنه أصر على إدانة نسطور بالاسم وذلك بسبب تجديفه السابق على العذراء مريم . والحق أن هنالك تناقضاً مريباً بين قرارات المجمع المسكونى الثالث فى أفيسس وبين قرارات المجمع المسكونى الرابع فى خلقيدونية : فالأول يمثل انتصار آراء مدرسة كيرلس السكندرية القائلة « بتجسد الكلمة » فى طبيعة واحدة ، بينما يمثل الثانى انتصار مدرسة البابا ليو والمدرسة الأنطاكية أو النسطورية القائلة بالطبيعتين الكاملتين للمسيح . ويتضح هذا جليًّا إذا علمنا أن أتباع ديوسقورس السكندرى كانوا قد أصدروا قراراً بالحرمان ضد النساطرة وأيضاً ضد البابا ليو ذاته بسبب مسألة الطبيعتين .

لم يشارك الآباء المصريون فى أعمال مجمع خلقيدونية أو بالأحرى لم يسمح لهم بذلك ، وقد أدانهم المجمع بالهرطقة فنعتوا تارة باسم المنافزة وأخرى باسم اليوطاخية . ولعل النقطة التى يمكن أن تميز بين المنافزة وبين آراء أوطاخيا هى أنه فى حين علم المنافزة بالطبيعة الإلهية الواحدة للمسيح قال أوطاخيا بوجود طبيعتين فى المسيح قبل أن تتحدا ، وطبيعة واحدة بعد الاتحاد ، ولعله يقصد بذلك بعد قيامة المسيح من الأموات بعد الصلب .

ولقد ظهر فريق من غلاة المنافزة فى مصر وسوريا الذين نادوا بأن جسد المسيح لا يمكن أن يكون فاسداً ، ولهذا فإنه لم يتألم وقت الصلب إلا ظاهريًّا . وقد عرف هؤلاء باسم اليوليانيين أى أتباع يوليانوس من هاليكارناسوس الذين أطلقوا على أنفسهم لقب افثارتودوكيتاى Aphthartodocetae أو فانتازياستيس Fantasiastes أى الذين يؤمنون بنقاوة جسد المسيح ، ومن ثم فإن هذا الجسد لم يكن أكثر من طيف عارض للمسيح الله .

على أن منافزة مصر تنكروا لتطرفات اليوليانيين وراحوا يتكلمون عن « خاصتين » للمسيح بدلا من « طبيعتين » ، الأمر الذى قربهم بهذا من آراء خلقيدونية . على أن النقطة الكبرى للخلاف بين الفريقين هى عدم اعتراف المنافزة بوجود طبيعة بشرية دائمة للمسيح ، خاصة بعد القيامة .

والواقع أنه لو شارك آباء الإسكندرية من الفريق الأخير المعتدل ربما كان

سيقدر لهم أن يشرحوا وجهة نظرهم هذه . ولكن بطريركيتي بيزنطة وروما قد تعمدتا إذلال المدرسة السكندرية وانتزاع الزعامة منها . ويحدد عام ٤٥١ انفصال الكنيسة المصرية عن الكنيسة الأرثوذكسية ، فبعدها نبذ المصريون كل ما هو يونانى ولاتينى وانطوت الكنيسة المصرية على نفسها واستخدمت اللغة الوطنية وهى اللغة القبطية فى قداساتها علامة على سخطها . وتسمت الكنيسة القبطية بالكنيسة الأرثوذكسية ، ولكن أتباع خلقيدونية من لاتين ويونان لا يعترفون لها بهذا الاسم وإنما ما زالوا يدمغونها بوصمة المونوفيزية . أما فريق الكتاب الذين يقللون من قيمة الخلافات اللاهوتية بين المنافزة والخليقيدونية فهم يعالجون تاريخ الفترة بروح « أقيومينيقية » أى مسكونية تهدف إلى تبسيط الخلاف بين الطرفين سعياً وراء الفكرة الهادفة إلى وحدة الكنائس العالمية ، فيما يعرف بالحركة المسكونية Ecumenical Movement .

أما المجمع المسكونى الخامس فقد انعقد سنة ٥٥٣ فى القسطنطينية بأمر من الإمبراطور جستينيان العظيم (٥٢٧ — ٥٦٥) وذلك للبحث عن حل وسط يرضى المنافزة فى سوريا وفلسطين ومصر . والمعروف أن الإمبراطورة ثيودورة زوج جستينيان كانت متعاطفة مع المنافزة هى وأنثيموس بطريرك القسطنطينية . ولكن البابا أغابيتوس وحزب الأرثوذكس المتطرفين من جماعة أكويميتوى Akoimetoi ، أى السهارين الذين يواصلون الليل بالنهار فى الصلاة والطلبات من أجل نصرة قرارات خلقيدونية الأرثوذكسية ، هاجموا سياسة البطريرك أنيثميوس والإمبراطور جستنيان اللينة تجاه المنافزة . وأمام هذا اضطر جستينيان إلى التراجع فى موقفه فأقال أنثيميوس وأحل محله ميناس وهو من غلاة أتباع خلقيدونية . ولكن جستينيان ظل يسعى — برغم هذا — لمصالحة المنافزة ومال نحو تأييدهم فى ضرورة إدانة الآراء النسطورية فى كتابات كل من ثيودور من مصيصه وثيودوريت من قورس وعباس الرهاوى والمعروفة باسم « الفصول الثلاثة Tria Capitula » بل ذهب إلى حد أنه عاب على مجمع خلقيدونية تواطؤه فى هذا الشأن . وعليه فقد استدعى البابا ڤيجيليوس إلى القسطنطينية ، ثم وجه الدعوة إلى ساويرس بطريرك أنطاكية المونوفيزى الثائر لمدارسة الأمر . ولما وصل ساويرس إلى القسطنطينية أعلن أنه لن يتنازل عن مطالبه فى

ضرورة إنزال اللعنة بمقولة البابا ليو (Tomus) وبإدانة مجلس خلقيدونية « الحقير المدنس » . وقد كانت هذه الآراء العلنية المتهورة سبباً فى إثارة الرأى العام فى القسطنطينية ضد جستنيان ، فاضطر إلى إيداع ساويرس السجن لمدة عامين ، ولكن ثيودورة أطلقت سراحه وهرب بعدها إلى مصر . ولقد نجح الإمبراطور جستنيان فى إقناع البابا فيجيليوس بضرورة إدانة آراء أصحاب « الفصول الثلاثة » سابقى الذكر ، ووافق البابا على ذلك وأصدر إدانته ضدهم بالفعل فيما عرف باسم Judicatum . ولكن موقف البابا قوبل باحتجاج شديد خاصة من جانب أساقفة أفريقيا الذين استنكروا إدانة الموتى فى قبورهم ، واضطر البابا إلى سحب قراره هذا .

والواقع أن البابا ڤيجيليوس قد تهرب من حضور جلسات المجمع المسكونى الخامس متعللا بأسباب واهية . ولقد قرر المجمع إدانة الآراء النسطورية فى « الفصول الثلاثة » وإنزال اللعنة على أصحابها . ولما لم يوافق البابا فيجيليوس على هذه القرارات نفى إلى إحدى جزر بحر مرمرة ، ولم يسمح له بمغادرة منفاه إلى روما إلا بعد أن وقع على قرارات المجمع الخامس[١٥] . على أن البابا قد مات أثناء رحلة العودة . ولم يعترف غرب أوربا بالمجمع المسكونى الخامس هذا إلا على عهد البابا جريجورى الأول العظيم وذلك فى أواخر القرن السادس (٥٩٠ — ٦٠٤) .

كان المنافزة يشكلون شوكة فى جنب الإمبراطورية ، وظهرت المشكلة بشكل حاد بعد أن استردت الإمبراطورية البيزنطية أقاليم سوريا وفلسطين ومصر من يد

---

(١٥) "Si quis defendit impium Theodorum Mopsuestenum, qui dixit alium esse Deum Verbum, et alium Christum a passionibus animae et desideriis carnis molestias patientem, talis A.S. ..

Si quis defendit impia Theodoriti conscripta, quae contra rectam fidem et contra primam EPHESINAM sanctam Synodum, et Sanctum Cyrillum et duodecim eius Capitula exposuit, talis A.S.

Si quis defendit epistolam, quam dicitur Ibas ad Marin Persam haereticum scripsisse, quae abnegat quidem Deum Verbum de sancta Dei genitrice semper virgine Maria incarnatum.., talis A.S."

الفرس . ولهذا فقد اقترح الإمبراطور هرقل (٦١٠ — ٦٤١) مشروعاً لإعادة الوئام بين كل من النساطرة والمنافزة من جانب وبين أتباع مجمع خلقيدونية من جانب آخر : ويقضى اقتراح هرقل بأن يعترف الخلقيدونيون بوجود طبيعتين للمسيح وإرادة واحدة (Thelema) ، ومن هنا جاءت كلمة « مونوثيليتية » Monotheletism أى مذهب الإرادة الواحدة . ولقد وافق على هذا الحل الوسط كل من بطارقة أنطاكية والإسكندرية والقسطنطينية كما أيده البابا هونوريوس (٦٢٥ — ٦٣٨) . غير أن الراهب الفلسطيني سوفرونيوس ، الذى كان يعيش فى الإسكندرية ثم اختير بطريركا لأورشليم فيما بعد ، عارض هذا الحل معارضة كاملة . ولما اشتد الجدل أصدر هرقل مرسوماً يعرف باسم Ecthesis أى « تفسير الإيمان » على أساس الاعتراف بطبيعتين للمسيح وإرادة واحدة له . ولكن البابا سيفيرينوس (٦٤٠) استنكر موقف سلفه هونوريوس ورفض المشروع الهرقلى « المونوثيليتى » ودمغه بالهرطقة .

ولما توفى هرقل خلفه على الحكم ابنه كونستانس الثانى (٦٤١ — ٦٦٨) الذى كان أيضا متحمساً للمذهب المونوثيليتى فأصدر مرسوماً جديداً عرف باسم Typus أى « أنموذج الإيمان » يقضى بالاعتراف بطبيعتين للمسيح وبإرادة واحدة فى أسلوب غامض . ولكن « أنموذج » كونستانس هذا جاء ليزيد من بلبلة الأفكار وتعقيد الأمور . وعليه فقد عقد البابا مارتن الأول (٦٤٩ — ٦٥٥) مجلساً لاتيرانيًّا فى روما عام ٦٤٩ ، حضره ممثلون من رجال الكنيسة البيزنطية ، وفيه اتخذ قرار اللعنة ضد مشروعى هرقل وكونستانس[١٦] .

ولقد عاقب الإمبراطور كونستانس هذا البابا على موقفه ، فأرسل إليه حاكم رافنا البيزنطى الذى قبض عليه وأرسله إلى القسطنطينية حيث حوكم واتهم بالخيانة ثم نفى إلى جزيرة القرم حيث خضع لصنوف من التعذيب والتجويع حتى مات بائساً

(١٦) ".. et super haec impiissimam Ecthesim, quae persuasione eiusdem Sergii facta est ab Heraclio quondam imperatoreadversus orthodoxam fidem, unam Christi Dei voluntatem.. et cum illis denuo scelerosum Typum, qui ex suasione praedicti Pauli nuper factus est a serenissimo principe Constantino imperatore contra catholicam Ecclesiam.."

فى منفاه . ولقد اضطر خلفه البابا ڤيتاليان (٦٥٧ — ٦٧٢) إلى عقد صلح مع الإمبراطور البيزنطى قنسطنطين الرابع (٦٦٨ — ٦٨٥) خوفاً من أن يحل به نفس المصير الذى كان كونستانس قد أوقعه بمارتن .

وفى عام ٦٨٠ — ٦٨١ دعا الإمبراطور قنسطنطين الرابع إلى عقد المجمع المسكونى السادس فى القسطنطينية ، حيث تقرر إدانة المذهب المونوثيليتى ، واعترف الآباء المجتمعون بطبيعتين وإرادتين للمسيح[١٧] . وكان هذا كافياً لإرضاء مشاعر روما ، على حساب مشاعر المنافزة بطبيعة الحال .

أما المجمع المسكونى السابع والأخير فقد انعقد فى نيقيا سنة ٧٨٧ لفض النزاع الطويل الذى دار حول الأيقونات . والأيقونات هى صور المسيح والعذراء والقديسين ، وتشمل أيضاً الصلبان والتماثيل والمخلفات المقدسة ، التى كانت بيوت العبادة فى الإمبراطورية البيزنطية وبخاصة البيوتات الديرانية تزخر بها . ولقد تورط المجتمع المسيحى فى العصور الوسطى فى تبجيل هذه الأيقونات إلى حد وصل إلى مصاف العبادة ، مما يعيد للأذهان تجدد العادات الوثنية القديمة . ومنذ وقت مبكر حذر الآباء الرعية من هـــذه الشعوذة : فذكر المؤرخ الكنسى يوسبيوس أنها عادة وثنية ، كما وأن المجلس الذى عقد فى الڤيرا Elvira بإسبانيا فى بداية القرن الرابع أدان عبادة الأيقونات أيضاً . كذلك عبر البابا جريجورى العظيم (٥٩٠ — ٦٠٤) عن معارضته لعبادة الأيقونات ورأى فى هذه الصور « مجرد أدوات للتعليم الدينى للعامة الذين لا يجيدون القراءة » .

والأباطرة الذين شنوا حرباً على عبادة الأيقونات هم أفراد الأسرة الأيسورية أو السورية التى أسسها ليو الثالث (٧١٧ — ٧٤١) وانتهت بانتهاء حكم ثيودورة (٨٢٩ — ٨٤٢) . ويعرف الأباطرة الذين حاربوا الأيقونات « بمحطمى الأيقونات » Iconoclasts ، فى حين أن عبادها يعرفون باسم Icondules . وقد

---

(١٧) . "Et duas naturales voluntates in eo, et duas naturales operationes indivise, inconvertibiliter, inseparabiliter, inconfuse secundum sanctorum Patrum doctrinam adaeque praedicamus.."

كانت حرب الأيسوريين ضد الأيقونات على فترتين : الأولى من عام ٧٢٦ إلى ٧٨٠ ، والثانية من ٨١٣ إلى ٨٤٣ [١٨] . ولقد اتسمت هذه الحركة بالشدة والقسوة ، وكان جل الضحايا من الرهبان الذين عارضوا هذه السياسة اللاأيقونية فى عناد شديد . ويرى المؤرخون فى هذه السياسة الأيقونية إصلاحاً اجتماعياً واقتصادياً ودينياً فى حين واحد : فهى محاولة من جانب الأباطرة لتطهير الكنيسة من العادات الوثنية ، كما وأنها كانت فرصتهم أو حجتهم لتجريد البيوت الديرانية من أموالها الطائلة التى تكدست فيها من النذور والهدايا الوفيرة ، وهى فى نفس الوقت تأكيد من جانب الجالس على عرش قسطنطين بأنه صاحب صلاحيات الرأس الأعلى للكنيسة إلى جانب مهامه كقيصر : فالإمبراطور ليو الثالث (٧١٧ — ٧٤١) عندما كتب إلى البابا جريجورى الثانى أكد له أنه ذاتياً لا غبار على أرثوذكسيته ، وإنما هو ثائر على العادات الوثنية الرذيلة المتفشية فى كنائس الإمبراطورية ، ثم أصر على حقه فى أنه « رجل دين وقيصر » فى آن واحد ، وهذا هو حقه التقليدى المعروف بالقيصر — بابوية Caesaropapism الذى كان العامل الأكبر فى الصراع على مدار العصور الوسطى بين البابا وبين الإمبراطور .

والملاحظ أن جميع الأباطرة الذين أقدموا على تحطيم الأيقونات كانوا من أصل شرقى ، ولعل هذا يعكس أثر الديانتين اليهودية والإسلامية على طريقة تفكير هؤلاء الأباطرة ، ولقد عبر عن هذا المعنى المؤرخ المعاصر ثيوفانيس فى قوله بأن ليو الثالث كان صاحب « عقلية متأثرة بالتعاليم الإسلامية » . ومما يلفت النظر أيضاً أن إرجاع عبادة الأيقونات قد تم على يد سيدتين من أصل إغريقى وهما : الإمبراطورتين إيرينى (٧٩٧ — ٨٠٢) وثيودورة (٨٢٩ — ٨٤٢) .

هذا وفى سنة ٧٥٤ عقد الإمبراطور قسطنطين الخامس كوبرونيموس (٧٤١ — ٧٧٥) مجلساً فى القسطنطينية حضره ثلثمائة من رجال الدين ، ولكن لم يشارك فى هذا المجلس أحد من كراسى روما وأنطاكية وأورشليم والإسكندرية . وقرر المجلس اعتبار من يعبد الأيقونات عدواً للأرثوذكسية وللدولة وحقت لذلك محاكمته . واستمرت

(١٨) See Vasiliev, op. cit., "The Isaurian Dynasty."

موجات العنف بين أنصار الأيقونية ودعاة اللا أيقونية إلى أن تولت الحكم الإمبراطورة إيريني فدعت بمعونة البطريرك تارازيوس إلى عقد المجمع المسكونى السابع فى القسطنطينية فى عام ٧٨٦ . وقد حضر إلى هذا المجمع مندوبون من قبل البابا هادريان الأول . وبدأت الاجتماعات فى كنيسة الرسل بالقسطنطينية ، غير أن كتائب الجند التى كانت ما زالت تؤيد الأباطرة الراحلين فى سياستهم اللا أيقونية هجموا على أعضاء المجمع شاهرين سيوفهم فى وجه البطريرك وأعضاء مؤتمره . واضطر المؤتمرون إلى الهروب والتفرق . ولكن الإمبراطورة إيرينى سرعان ما نجحت فى طرد العناصر المعارضة لسياستها من صفوف الجيش . ثم تابع المؤتمر جلساته فى سنة ٧٨٧ فى نيقيا هذه المرة . وقد عقدت الجلسة الختامية للمجمع المسكونى السابع فى القصر الإمبراطورى فى مدينة القسطنطينية ، وفيها تقرر إعادة تبجيل الأيقونات كما كانت الحال من قديم ، كما قدم المؤتمرون الشكر للإمبراطورة الأم إيرينى ولابنها القاصر قنسطنطين السادس وخلع عليهما لقب « قسطنطين الجديد وهيلانه الجديدة[١٩] » .

* * *

هذا عن الهرطقة وتاريخها فى النصف الشرقى من الإمبراطورية الرومانية . أما عن الهرطقة فى الغرب فإنا نكتفى هنا بالحديث عن طائفتين فقط هما الدوناتية والبيلاجية[٢٠] .

وترجع جذور الدوناتية إلى عهد دقلديانوس وشركاءه فى الحكم على زمن

---

(١٩) "... Regiae quasi continuati semitae, sequentesque divinitus inspiratum sanctorum Patrum nostrorum magisterium, et catholicae traditionem Ecclesiae, definimus in omni certitudine ac diligentia, sicut figuram pretiosae ac vivificae crucis..: tam videlicet imaginem Domini Dei et Salvatoris nostri Iesu Christi, quam intemeratae dominae nostrae sanctae Dei genitricis, honorabiliumque anglorum, et omnium sanctorum simul et almorum virorum.."

(٢٠) See Fliche et Martin, Histoire de l'Eglise; Hughes, P., A History of the Church; Hefele et Leclercq, Histoire des Conciles.

الاضطهاد . وقد ظهرت هذه الفرقة فى شمال أفريقيا ، الذى كان واقعاً تحت نفوذ الإمبراطور ماكسيميان الذى ابتلى المسيحيين الأفريقيين بنار الاضطهاد ما بين عامى ٣٠٣ — ٣٠٥ . فلقد أمر ماكسيميان محاكم التفتيش بإرهاب الكنائس الإفريقية ، وكانت هذه القسوة سبباً فى أن البعض من رجال الإكليروس فى الشمال الإفريقى قد ضعفوا واضطروا إلى تسليم الكتب المقدسة والأوانى الخاصة بخدمة الأسرار الكنسية إلى السلطات التى تناولت هذه المقدسات بالتدنيس أو التدمير . ولقد ندم نفر كبير من هؤلاء الذين ضعف إيمانهم وقت الشدة ورغبوا فى التوبة والعودة إلى حظيرة الأرثوذكسية ، ولكن فريقاً مغالياً رفض السماح لهم بالعودة ووصمهم بلقب الخونة Traditores أو المرتدين . ولعل فى قصة منصور (منسوريوس) أسقف قرطاجة ما يكشف عن أبعاد الموقف : فهو لم يقاوم السلطات عندما أقدمت على إزالة الكتب المقدسة من كنائس أبروشيته ، ولم يتحرك وهو يرى المراسيم الوثنية تقام فى بعض الكنائس . ولهذا اتهمه فريق « المعترفين » أو « المتطهرين » ، وهم ذلك النفر الذين لاقوا صنوف التعذيب والآلام فى صبر وجلد ، بالخيانة والردة . ولم يكتف هؤلاء الغلاة بهذا الموقف وإنما نصبوا من أنفسهم حكاماً للكنيسة وراحوا يتحرشون بالحقوق الشرعية للأساقفة ومن بينهم منصور أسقف قرطاجة . ولكن منصور أعلن أن هنالك فرقاً شاسعاً بين الضحايا الحقيقيين للاضطهاد وبين بعض الناس الذين يتخذون من الاضطهاد ذريعة كاذبة لتحقيق مكاسب ذاتية مادية على حساب النظام الكنسى وشرعية الأساقفة . ورداً على هذا قامت جماعة « المعترفين » بقطع منصور من شركة التناول فى الكنيسة . ولما توفى منصور فى عام ٣١١ انتخبت الكنيسة القرطاجية خلفاً له الشماس سيسيليان الذى قرر السير على سياسة سيده الراحل تجاه جماعة « المعترفين » الغلاة . ودبت الفرقة والحزازات الشخصية بين الجماعتين :

فريق سيسيليان وجماعة المعترفين التى برز من بين أنصارها الخطرين امرأة مرموقة هى لوسيلا ، وعدد من أساقفة نوميديا ثم دوناتوس Donatus أسقف مدينة Casae Nigrae فى نوميديا والذى كان يعيش وقتها فى قرطاجة . وإلى دوناتاس هذا تنسب الطائفة الدوناتية .

ولما احتدم الخلاف اضطر رئيس أساقفة نوميديا إلى الحضور إلى قرطاجة وفى معيته سبعون من الأساقفة للفصل فى هذا الموقف المتأزم . غير أن سيسيليان تجاهل هذا المجمع تماماً ، فأعلن المؤتمرون أن سيسيليان غاصب لعرش الأسقفية وعينوا بدلا منه واحداً من حاشية السيدة لوسيلا واسمه مايورينوس . كذلك قرر المؤتمر أن فيلكس أسقف أبتونجا ، الذى كان قد رسم سيسيليان للأسقفية ، هو أيضاً من « المرتدين » الخونة ، ومن ثم فإن نعمة الاكليروس يجب أن تسقط عنه لأنه لا يصح لمرتد أن يمارس أسرار الكنيسة من عماد وميرون وتناول وزيجة إلخ . وهذه الآراء ليست بالشئ الجديد على كنيسة شمال إفريقيا فهى ترديد لنظرية القديس كبريان .

ولقد تفاقم الموقف فى شمال إفريقيا فى عام ٣١٢ ، وهو نفس العام الذى شهد انتصار قنسطنطين العظيم على أعدائه فى واقعة قنطرة ملڤى ، وهو أيضاً نقطة التحول فى موقف قنسطنطين إلى جانب الديانة المسيحية بوجه عام . ولما وصلت تفاصيل النزاع إلى مسامع الإمبراطور جاء حكمه فى جانب الأسقف سيسيليان ، كما أمر بخلع الأساقفة الدوناتيين عن كراسيهم . ولكن الدوناتيين احتجوا على هذا القرار وطعنوا فى شرعية حكم سيسيليان ، طالبين تحكيم أساقفة غالة .

وافق قنسطنطين على مطارحة المسألة من جديد ، وشكل محكمة فى روما من عدد من أساقفة غالة وإيطاليا وعلى رأسهم البابا ذاته للفصل فى النزاع الدوناتى ، وكان ذلك فى أكتوبر ٣١٣ . وانعقدت المحكمة فى قصر اللاتيران Lateran ، واستمع القضاة إلى رأى كل من الفريقين ، وانتهوا إلى قرار بأن دوناتوس ليس على صواب فى موقفه ، وبأن سيسيليان هو الأسقف الشرعى لقرطاجة . ولكن هذا القرار لم ينه الصراع وإنما زاد النار ضرماً ؛ إذ تحفز لكل أسقف كاثوليكى خصم دوناتى ينغص عليه حياته وعلى أبروشيته السلام . وأمام هذا أمر الإمبراطور قنسطنطين موظفيه المدنيين بفحص الأمر عن كثب . وتركزت القضية الآن حول شخصية فيلكس الذى اتهمه الدوناتيون بالخيانة والردة أيام الاضطهاد . ونبش موظفو الإمبراطور فى ملفات محاكم التفتيش كما عثروا على القاضى الذى قيل إنه كان قد أصدر قراراً

بالقبض على فيلكس . وأدلى القاضى بشهادته ونفى جميع الشبهات عن فيلكس ، فهو لم يقبض عليه ألبتة . وكشفت التحقيقات أيضاً عن أن الدوناتيين قد زيفوا بعض الوثائق لتجريم فيلكس البرىء . وقد أرسل الإمبراطور بهذه الوثائق الخطيرة إلى المجمع المنعقد فى مدينة أرلس Arles بغالة (أغسطس ٣١٤) . وقرر المجلس أن طائفة الدوناتية « متهوسة تعصباً » ، وأنها خطر يهدد المسيحية ذاتها . وانتصر المجلس لسيسيليان على خصومه .

لم يكف الدوناتيون عن شغبهم واحتجوا مرة ثالثة إلى قنسطنطين . واضطر الإمبراطور إلى أن يستدعى كلا من دوناتوس وسيسيليان للاجتماع به فى مدينة بريشيا ، وبعد مدارسة الأمر مع مستشاريه قرر فى صالح سيسيليان ، وأمر بأن تنزع الكنائس التى فى يد الدوناتيين وتسلم للكاثوليك ، كما حرم على الدوناتيين عقد أية اجتماعات فيما بينهم . وقد تبع هذا قيام عدة ثورات خاصة فى نوميديا حيث كان الدوناتيون يسيطرون على الموقف ، فأرهبوا الكاثوليك وقتلوا منهم أعداداً وفيرة .

والدوناتية ، هذا التعبير عن الخلاف المذهبى فى ظاهرها ، إنما كانت ثورة اجتماعية عارمة فى حقيقة أمرها ، فهى الفرصة التى أتاحت الانفلات للعواطف المكبوتة والكراهيات القديمة والأحقاد الدفينة ضد السادة الرومان والنبالة الرومانية الفاحشة الثراء . وليس أدل على صدق ذلك من حُقيقة أنه حينما انتصرت الدوناتية انقضت عصابات من المفلسين والمعدمين ، وهم يرفعون لواء الأسقف الدوناتى تميمة تحميهم ، ترتكب جرائم السلب والقتل . وهكذا هلك كثير من كاثوليك شمالى إفريقيا وبخاصة من الأثرياء ، فالدوناتيون كانوا يبغون من النبلاء والأساقفة الأعداء رؤوسهم ورؤوس أموالهم على حد سواء . أما هذا النفر من الكاثوليك الذين رفعوا راية الاستسلام للدوناتية فقد أجبروا على قبول المعمودية من جديد وفق المراسيم الدوناتية ، وإن كانوا من الإكليروس أعيدت مراسيم سيامتهم مرة أخرى . وأما الكنائس الكاثوليكية التى سقطت فى أيديهم فقد غسلت ثم أعيد غسلها لتتطهر من طقوس الردة ، فى حين أن ما تبقى فيها من قربان التناول فقد ألقى به على قارعة الطريق وجبة ممقوتة للكلاب الضالة .

ولم تهدأ الأمور إلا فى عام ٣٢١ عندما أصدر الإمبراطور قنسطنطين قراراً بالتسامح للدوناتية ، وأمنهم على عقيدتهم وحقوقهم فى المناطق التى كانوا قد سيطروا عليها . واستغل الدوناتيون هذا القرار وراحوا يثبتون مراكزهم ويدعمون حركتهم لمدة خمسة وعشرين عاماً . وفى عام ٣٤٧ رأى الإمبراطور كونستانس (قنسطانز) ضرورة تحرير كاثوليك شمالى إفريقيا من إرهاب الدوناتيين ، فقبض على جميع الأساقفة الدوناتيين فى نوميديا ونفاهم ، ثم سلم كنائسهم إلى الكاثوليك . وساد السلام حتى ارتقاء جوليان المرتد العرش : فلقد رأى المرتد أن أكبر ضربة يمكنه أن يسددها للمسيحية هى أن يعيد الأساقفة الدوناتيين من المنفى ، وذلك ليثير الفتنة من جديد بينهم وبين الكاثوليك فتضعف بذلك شوكة المسيحية . ولكن جوليان توفى بعد عام من إصدار هذا القرار .

ظلت الاضطرابات تعكر صفو الكنيسة فى شمال إفريقيا على عهود الأباطرة ڤالنتينيان الأول وجراتيان وڤالنتينيان الثانى . ولكن باعتلاء ثيودوسيوس العظيم العرش انكسرت شوكة الدوناتية ؛ ذلك أن هذا الأمير الإسبانى الكاثوليكى العنيد لم يكن ليعرف أنصاف الحلول . ولعل العامل الآخر الذى ساهم فى كسر جناح الدوناتية هو ارتقاء القديس أغسطينوس عرش الأسقفية فى مدينة هپو فى عام ٣٩٦ . ولقد جادل أغسطينوس بحسن منطقه الأساقفة الدوناتيين وحاول إقناعهم بشتى الطرق ، ولكنه تعفف عن سبل العنف والاضطهاد برغم أنه قد تعرض للهلاك ذات مرة على أيديهم . ولم يتوان أغسطينوس فى إصدار سيل من الرسائل والمواعظ والمقولات والأناشيد الكنسية لتفنيد النظريات الدوناتية ، وكانت هذه تعلق على أبواب الكنائس والمساكن العامة لسد الطريق أمام الدوناتية . وقد وقف الأساقفة الكاثوليك صفاً واحداً وراء أغسطينوس فى جهاده هذا ضد الدوناتية ما بين عامى ٤٠١ — ٤٠٣ . وفى عام ٤٠٥ أصدر الإمبراطور هونوريوس مرسوماً باعتبار الدوناتيين هراطقة يجب استئصال شأفتهم . وفى عام ٤١١ قرر مجمع قرطاجة إدانة الدوناتية واستمطرها اللعنات . وفى عام ٤١٢ أصدر هونوريوس أوامره بتنفيذ قرارات مجمع قرطاجة هذا ، وبالفعل تم القضاء على فرقة الدوناتية أو هرطقتها — إن شئت .

أما عن البيلاجية فهى تنسب إلى بيلاجيوس الراهب الإنجليزى الأصل الذى

عاش فى روما فى أواخر القرن الرابع ، واشتهر بالزهد والتقشف . ويرتبط بالبيلاجية اسمان آخران هما سلستيوس البريطانى ، وجوليان من اكلانوم الذى كان أرسطاطيلى النزعة . والنظرية البيلاجية تؤمن بحرية الإرادة عند الإنسان فى قضايا الخير والشر ، وبأن ليست هنالك ثمة عوائق تتدخل فى حرية الاختيار للبشر ، وعلى هذا فإنه فى مقدور الإنسان القوى الإرادة أن يعيش حياة تصل إلى مرتبة الكمال .

وفلسفة بيلاجيوس هذه تهدم الرأى الكاثوليكى التقليدى الذى يقول بأن الخطيئة الكبرى للإنسان الأول — آدم — قد أسقطت عن بنى البشر الامتيازات الفضال التى كان الله قد أودعها فى آدم وقت الخلق . كما ترفض البيلاجية من هذا المنطلق فكرة أن السقوط الأول فى جنة عدن قد أورث بنى آدم جميعاً نزوعاً نحو الإثم . وإنما بشر بيلاجيوس بأن الطبيعة البشرية لكل مخلوق فرد تشبه طبيعة آدم البكر النقية وقت الخلق ؛ أى قبل السقوط ، وهذا يعنى أنها لم ترث أوزار الإثم الأول . ومن هنا فالإنسان حر تماماً ، بل وليس فى حاجة إلى أى عون خارجى لكى يسلك الصواب . وإذا كانت البشرية قد ضلت فإنها ضلت بمحض اختيارها وبحرية إرادتها : « لقد اختطفت لنفسها الاختيار الخطأ » . وفى وسع البشر أن يمارسوا ما زودهم الله به من ملكات تبيح لهم حق الاختيار للصواب ، ولا يستلزم هذا إعادة لخلق الآدمية من جديد ، ومن ثم فليس هنالك مبرر لمعمودية جديدة ولا لنظرية الفداء . وطقوس العماد — عند البيلاجيين — مراسيم ظاهرية لا تمس روح الإنسان فى شىء ، فما هى إلا طقس خلقى يقصد به الموعظة ، ويمكن الاستغناء عنه تماماً .

والصلاح إنما يكمن فى أعماق النفس البشرية التى هى من صنع الله ، الخير الأعلى . وهكذا أفرغ بيلاجيوس سر « الفداء » المسيحى من مغزاه الحقيقى ، بل إن تجسد « الكلمة » ذاتها لم يعد أكثر من معجزة كبقية المعجزات الأخرى كإحياء الموتى مثلا . وأخيراً يخلص بيلاجيوس إلى رأى جرىء : لئن نجح الإنسان فى الحصول على الخلاص تلقائياً ، أى دون عون خارجى ، فإن هذا يعنى أنه غنى بذاته عن وسطاء السماء (الإكليروس والكنيسة) بل عن السماء ذاتها . ويتساءل الفيلسوف

الإنجليزى : هل هنالك إذن حاجة إلى الدين ؟ والصلاة بشكلها المعروف تصبح عند بيلاجيوس مجرد هراء وعبث ؛ لأن الله لا يهتم إلا بالقلوب وبالأفعال .

وصل بيلاجيوس ورفيقه سيلستيوس إلى شمالى إفريقيا فى عام ٤١٠ فراراً من جحافل آلاريك المحاصرة لروما . وتقدم سيلستيوس إلى أسقف قرطاجة ليرسمه قساً ، ولكن الأسقف رفض طلبه واتهمه بالهرطقة ثم أصدر ضده قراراً بالحرمان . ولهذا ترك سيلستيوس شمالى إفريقيا مخلفاً وراءه نفراً من الأتباع . ولما وصل إلى أفيسوس نجح فى الحصول على منصب كنسى دون عناء . أما بيلاجيوس فقد سافر إلى أورشليم وقوبل هناك بالترحيب الزائد ، وافتتن الكثيرون بعظمة لسانه وحياته الزاهدة . ولكن القديس جيروم ، الذى كان مقيماً آنذاك فى أورشليم ، لم يلبث أن هاجم آراء بيلاجيوس برغم الحماية التى كان أسقف أورشليم قد بسطها على بيلاجيوس . ولما اشتد الجدل حول البيلاجية عقد مجلس فى أورشليم، ولكن المجلس لم يصل إلى نتيجة حاسمة فأحال الأمر إلى روما فى عام ٤١٥ . كذلك التأم مجلس آخر فى مدينة ديوسبولس Diospolis فى عام ٤١٥ ، حضره أوروزيوس الإسبانى نيابة عن القديس أغسطينوس ، وأسقفان من غالة ، وتدارس المؤتمرون النظرية البيلاجية ولكنهم لم ينتهوا فيها إلى شىء . وفى عام ٤١٦ تلقى البابا أنوسنت الأول رسالة من القديس أغسطينوس ضمنها شرحاً وافياً لطبيعة الجدل حول البيلاجية ، وبناء على هذا قرر البابا التصديق على قرارات الحرمان ضد بيلاجيوس وسيلستيوس . وفى عام ٤١٨ أرسل البابا زوزيموس قراره المعروف باسم « تراكتوريا » Tractoria إلى شمالى إفريقيا يدين فيه البيلاجية صراحة بالهرطقة . وقد أصدر مجمع قرطاجة السادس عشر (سنة ٤١٨) قراراته بالآناثيما ضد أتباع البيلاجية[٢١] . أما جوليان

---

(٢١) Carthaginense Conc., Can. 2.: "Item placuit, ut quicunque parvulos recentes ab uteris matrum baptizandos negat, aut dicit in remissionem quidem peccatorum eos baptizari, sed nihil ex Adam trahere originalis peccati, quod lavacro regenerationis expietur, unde sit consequens, ut in eis forma baptismatis "in remissionem peccatorum" non vera, sed falsa intelligatur-A. S."

من أكلانوم فكان واحداً من أساقفة جنوب إيطاليا المناصرين للبيلاجية ، وقد هرب إلى الشرق عندما أصدر البابا زوزيموس ضده قراراً بالحرمان . وقد وصل جوليان إلى مصيصه حيث تعرف على اللاهوتى الشهير ثيودور أسقف المدينة ، وقد تأثر ثيودور بالبيلاجية إلى حد كبير .

ولقد أفاض القديس أغسطينوس فى الرد على البيلاجية ، وجاء رده متوافقاً ، بطبيعة الحال ، مع آراء الكنيسة الكاثوليكية . يقول القديس : إن الله خلق آدم ولم يكن محتاجاً إلى عبوديته بل إن البشر هو المحتاج إلى الربوبية . وزود الرب أبانا الأول بهبة الخلود وبإرادة خيرة تماماً ، كما صاغ فيه العقل والحواس وتوج آدميته بالمعرفة . ولكن آدم « اشتهى » ثمرة الشجرة المحرمة ، ثم أكل منها بغواية الحية وحواء وبهذا يكون آدم قد « هجر الله »[٢٢] . وتعرى آدم وعرف حواء وولدت بالإثم ، وتوارث بنو آدم هذا الإثم[٢٣] . وتشهد سجلات التاريخ بتعاسة البشرية منذ هذا السقوط الأول . ولن يفلت من البشر واحد بسبب الخطيئة الكبرى وهى الجنس ، فابن آدم يجرى وراء الشهوة فيطأ بقدميه القوانين والضوابط .

وهذه النوازع الآدمية الآثمة الموروثة قد وأدت فى ذرية آدم عنصر الخلود وحرية الإرادة التى كان الله قد أودعها أصلا فى « الوعاء النقى » ، فى آدم الطيب قبل السقوط الأكبر . ولولا « الرعاية » الربانية والعطف السماوى لظلت البشرية متردية فى هلاك الهاوية إلى الأبدية ، ولكن الله أرسل « الكلمة » فصارت فى

---

(٢٢) De Civitate Dei, Liber Decimus Tertius, Cap. XV, Col. 387 :

"Nam in eo quod inobediens motus in carne animae inobedientis exortus est, propter quem pudenda texerunt, sensa est mors una in qua deseruit animam Deus. Ea significata est verbis ejus, quando timore dementi sese abscondenti homini dixit, Adam, ubi es ? non utique ignorando quaerens, sed increpando admonens, ut attenderet ubi esset in quo non esset Deus. Cum vero corpus anima ipsa deseruit aetate corruptum et senectute confectum, venit in experimentum mors altera, de qua Deus peccatum adhuc puniens homini dixerat, Terra es, et in terra ibis.."

(٢٣) "Hoc est malum peccati in quo nascitur omnis homo."

بطن العذراء جسداً ، وولد المسيح ليفدى البشرية ويغسل آثامها . أما وقد صعد المسيح إلى السموات ، فقد ترك لنا على الأرض كنيسته بأسرارها المقدسة مجسماً للفداء والخلاص ، وما شركة التناول إلا تكرار للفداء وغفران دائم للذنوب والخطايا . والمسيحية على هذا رسالة كنسية تقوم على الفداء وتحيا « بالنعمة » الإلهيـة التى لا خلاص للبشرية من إثم هذا العالم بدونها .

وبهـذه النظرية يكون أغسطينوس قد محا حرية الإرادة وحكم على الجنس البشرى بشيء أشبه بالإعدام ، لأنه لا خلاص إلا من فوق ! أليست هذه ردة إلى القدرية واليأس ؟ !

الفصل الخامس

الإمبراطورية الرومانية تحت أقدام المتبربرين

« ولا تدخلنا فى تجربة لكن نجنا من أتيللا »

لعله من المفيد أن نأخذ فكرة عن الشعوب الجرمانية المتبربرة التى اكتسحت الإمبراطورية الرومانية من مصدر هام هو المؤرخ تاكيتوس صاحب كتاب « جرمانيا » Germania الشهير [١]. ولد كورنيليوس تاكيتوس سنة ٥٥م وتوفى سنة ١١٨ . وكابن لأحد الفرسان الرومان تلقى تاكيتوس تربية ممتازة ، ثم تدرج فى سلك الوظائف حتى صار عضواً فى مجلس السيناتو ، وعين قنصلا لعام ٩٧ ثم حاكماً لولاية آسيا سنة ١١٢/١١٣. وكان تاكيتوس صديقا مقرباً لبلينى الصغير Pliny الخطيب المرموق .

وبلاد الجرمان — فى دراسة تاكيتوس — محوطة من الشمال بالمحيط ، ويفصلها الراين والدانوب عن بلاد الغال ، وتفصلها سلاسل جبلية عن سرماتيا وداكيا . وهى بلاد كئيبة ماحلة ، مناخها بالغ القسوة ، وليس فيها ما يسر البصر أو يمتع الأذن — على حد تعبير تاكيتوس ذاته . وأشهر آلهة الجرمان القدامى Tuisto وابنه Mannus ، والأخير هو الجد الأكبر للجرمان القاطنين بالقرب من المحيط . وهؤلاء اتخذوا أسماءهم القبلية من أسماء أبناء الإله مانوس الثلاثة ، وهذه القبائل هى : Ignaevones و Herminones و Istaevoncs . وبعض الروايات تسجل أسماء أخرى لبعض القبائل التى تنسب لأبناء آخرين للإله مانوس ، من قبيل Marsi و Gambrivii و Suebi ثم Vandilici .

والجرمان — فى رأى تاكيتوس — لم يدخلهم دم غريب لأنهم لا يتزاوجون مع الأجانب . وهم على هذا يكونون عنصراً نقياً ويحملون ملامح واحدة تتمثل فى العيون الزرقاء اللامعة ، والشعر الأحمر ، والبنيان الضخم . وبلادهم مليئة بالغابات

---

(١) Tacitus, On Britain and Germany, trans. by H. Mattingly, The Penguin classics, 1954.

والأحراش ، وهى رطبة ومعرضة للرياح القاسية . وغالبية الشعوب الجرمانية لا يعرفون العملة النقدية ، وإنما يقضون حوائجهم بالمقايضة .

أما المحاربون الجرمان فإنهم قليلاً ما يستخدمون السيف أو الحربة في القتال وإنما يقاتلون بالرماح التى يطلقون عليها فى لغتهم اسم Frameas[٢]. وقوام المعارك عندهم فرق المشاة . والمقاتل الجرمانى لا يعرف الهزيمة ، بل إن فقدان الدرع يعد عاراً كبيراً . أما القتلى الذين يسقطون فى أرض المعركة ، فإن رفاقهم يحملونهم معهم إلى المعسكر مهما بلغت خطورة الموقف . ومن يشاع عنه الجبن فى القتال يقدم على شنق نفسه هروباً من العار . والمرأة الجرمانية عامل هام فى تقديم الخدمات للرجال فى المعركة وفى استنفارهم لإحراز النصر ، وإذا لاحت فى الأفق بوادر هزيمة ولولت النساء بصراخ عال وهن يكشفن عن صدورهن ليحذرن الرجال من العار الذى سيتعرضن له إن خسر الجرمان المعركة . ومن بين النسوة المؤلهات عند الجرمان ڤيليدا وأورينيا . ويقدم الجرمان الأضحيات للآلهة ميركورى وهرقل ومارس ، وتقدم بعض قبائل السويبى الأضحيات للإلهة إيزيس[٣]. ولا يقدم الجرمان على الحرب إلا بعد أن يستشيروا الآلهة وتبشرهم بالنصر على العدو . ولديهم طريقة غريبة للتعرف على نتيجة الحرب ، وذلك بأن يختطفوا واحداً من رجال العدو ثم يجعلونه يقاتل أحد رجالهم ويحددون نتيجة الحرب على ضوء ما تسفر عنه هذه المبارزة الفردية .

ويعقد الجرمان مجالسهم عندما يكون القمر هلالا أو عندما يكتمل بدراً . والحساب التقويمى عندهم ليس بعدد الأيام وإنما بالليالى . وعندما يجتمعون للاستماع لملكهم أو كاهنهم يكونون مدججين بالسلاح ، فإن كانت الأنباء التى يذيعها عليهم الزعيم غير سارة زأروا بالضجيج مستنكرين ، وإن كانت الأخبار سعيدة تبادلوا التحية بقرع أسنة الرماح بعضها فى بعض .

ويحق لأى جرمانى أن يرفع مظلمته لمجلس الكبار للفصل فيها . ويتنوع العقاب

---

(٢) "Rari gladiis aut majoribus lanceis utuntur : hastas, vel ipsorum vocabulo, frameas gerunt angusto et brevi ferro.."

(٣) "Herculem ac Martem concessis animal ibus placant; pars Sueborum et Isidi sacrificat.."

عندهم حسب نوع الجريمة : فعقوبة العنف الشنق على الأشجار ، وعقوبة الجبن والتخاذل فى الحرب دفن المذنب حيًّا فى مستنقع وحل مغطى بأخشاب مغراة بالطمى. ويقصد من هذا التمييز فى العقوبة أن تتم عمليات عقاب جرائم العنف فى العلانية لتكون درسا ، فى حين أن الجرائم التى يخزى منها المجتمع الجرمانى لأنها ليست خليقة بجنسهم ، يتم عقاب مرتكبيها فى الخفاء وبالطريقة السالفة الذكر ، تعبيراً عن احتقارهم للمذنب فى حق الشرف الجرمانى . أما فى المخالفات القانونية الصغيرة ، فتفرض على مرتكبيها غرامات مما يملكون من خيول أو ماشية ، على أن يحصل زعيم القبيلة من هذه الغرامة على جزء ويعطى الجزء المتبقى لأهل من حل به الضرر .

وعندما يبلغ الابن فى القبيلة سن الشباب يقلده ولى أمره بالرمح والدرع فى المجلس القبلى . أما الشباب من أبناء المقاتلين القدامى فيؤلفون جماعة تعرف « بجماعة الرفاق » وينضمون فى خدمة أحد الزعماء . وهم موضع احترام القبيلة كلها لأنهم نموذج الشجاعة والبطولة . ولا يليق بالزعيم أن يتفوق عليه فى القتال واحد من هؤلاء الرفاق ، وإن سقط الزعيم فى أرض المعركة فإنه من العار على الرفاق أن يعودوا من الميدان أحياء ، ذلك لأن خلق البطولة يحتم عليهم حماية زعيمهم بالدم ، وهذا عرفهم السائر المعروف « بالولاء » Alligantia . ويجرى المثل عندهم « حرب الزعيم للفوز ، وقتال الرفاق من أجل الزعيم[٤] ». وكثيراً ما يهجر شباب النبالة العسكرية القبيلة إذا ماركدت فيها الحياة القتالية ، بحثاً عن ميادين أخرى للفروسية ، فالحرب رياضتهم الفضلى ومنها يجنون الأغنام والأسلاب . ويؤمن الجرمانى إيماناً قاطعاً أن القتال أشرف السبل للحصول على العيش، فلا وقت عنده لجر المحراث وتسوية الأرض، فهذا عمل العاجزين ، وشعاره وداعاً « بالدم لا بالعرق يأتى الخبز ... الخبز الوفير ».

والجرمان لا يعرفون حياة المدن بل يعشقون الحياة فى الهواء الطلق ويسكنون بيوتات خشبية متباعدة متناثرة فوق الجبال ووسط الغابات والأحراش . وهم يحفرون

(٤) "Cum ventum in aciem, turpe principi virtute vinci, turpe comitatui virtutem principis non adaequare; jam vero infame in omnem vitam ac probrosum superstitem principi suo ex acie recessisse : illum defendere, tueri, sua quoque fortia facta gloriae ejus assignare praecipuum sacramentum est : principes pro victoria pugnant, comites pro principe."

كهوفاً في بطن الأرض يخفون فيها كنوزهم ، ويهرولون إليها فى موسم الصقيع : والزواج عندهم بواحدة فقط ، ومهر العروسة يتألف من بضع ثيران وخيول وأسلحة، وعندما تزف العروس إلى رجلها تحمل إليه هدايا من الدروع النادرة والرماح الجيدة . والثور إشارة إلى أن العروس جاءت لتشارك رجلها العناء ، وترمز الخيل إلى أن الزوج قد يمتطي جواده ويحمل درعه عندما ينفخ فى البوق فى أية لحظة . والزوجة الجرمانية وفية الوفاء كله لزوجها وأطفالها وبيتها، وهى تقوم بالخدمة المنزلية بنفسها حتى ولو كان زوجها يملك عددا كبيراً من العبيد .

والمجتمع الجرمانى لا يعرف الربا فى المعاملات ، والأرض كلها مشاع للقبيلة يزرعها لمدة عام ثم ينتقلون إلى قطعة أخرى من الأرض حيث التربة بكر ولا تحتاج إلى جهد . والغلة الرئيسية عندهم هى القمح . وتنقسم السنة الزراعية إلى ثلاثة فصول فقط هى الشتاء والربيع والصيف ، فهم لا يعرفون فصل الخريف ولا الغلة الخريفية .

وتتسم المراسيم الجنائزية فى المجتمع الجرمانى بالبساطة ، فهم يحرقون جثة المتوفى ثم يلقون بأسلحته وأحياناً بجواده فى النار . ولكن العويل غير معروف لديهم ، حقيقة أن بعض النساء قد ينفجرن بالبكاء أمام الناس حزناً على الراحل البطل ، ولكن البكاء علانية أمر لا يليق بخلق الرجال عندهم ، فليس من شيم الجرمانى أن ينتحب على شاكلة النساء .

وقبائل الجرمان لا حصر لها ولا عد ، ولكن نظراً لأهمية التعرف على معظم أسماء هذه القبائل فإننا نورد هنا عددا كبيراً منها نقلا عن مصدرنا تاكيتوس : وأهم هذه القبائل : هلفيتى ، بوبى ، أرافيسكى ، أوزى ، ترفيرى ، نرفيى ، فانجيونيز ، تريبوكى ، نيميتز ، أوبيى ، باتاڤى ، شاتى ، ماتياكى ، أوزيبى ، تنكتيرى ، بروكتيرى ، شاماڤى ، انجريفارى ، دوبلجوبنى ، شازيوارى ، فريزى ، تشوسى ، شريوسكى ، فوزى ، كمبرى ، سويبى ، تنكيترى ، ريودجنى ، آفيونز ، أنجليى ، ڤارينى ، أيدوسيز ، سوارينى ، نيوتونيز ، هرمندورى ، ناريستى ، ماركومانى ، كوادى ، مارسينى ، كوتينى ، بورى ، هارى ، هلڤيكونيز ،

مانيمى ، هليزى ، ناهارفالى [٥] . ويحكى تاكيتوس عن قبائل هارى أنهم يطلون دروعهم وأجسامهم باللون الأسود ، وأنهم يختارون الليالى المظلمة تماماً لخوض معاركهم حتى يبثوا الرعب « رعب الشياطين » فى قلوب الأعداء .

وهنالك أيضا قبائل الجوثونيز (القوط) والروجى والليموڤى والسيونى والأيستى والسيتونز والبيوكينى والڤندى والفنى [٦] .

ظلت هذه الشعوب الجرمانية عدة قرون حبيسة عند الجوتلاند والأودر تحت ضغط قبائل الغال . وكانت السلطات الرومانية آنذاك تخلط بين الشعوب الجرمانية والعناصر الغالية . ثم تحرك الجرمان غرباً واستقرت جماعة تونجرى Tungri على الضفة اليسرى للراين . ولم تكن روما لتدرك من هم الجرمان حتى سنة ١١٣ ق . م عندما زحفت قبائل الكمبرى والتيوتونى من مواطنها فى أقاصى الشمال نحو إيطاليا. وفى سنة ١٠٨ ق.م ظهر هؤلاء فى وادى الرون وألحقوا هزيمة قاسية بالقنصل سكاوروس . وفى ١٠٥ ق . م حطم الجرمان جيشين قنصليين عن آخرهما عند واقعة أورانج ، ولو كانت هذه القبائل قد تقدمت بعد هذا النصر الرائع على إيطاليا لما استطاعت قوة أن تصدها . غير أن الجرمان لم يزحفوا على إيطاليا وإنما يمموا شطر إسبانيا ، ثم مالبثوا أن عادوا إلى بلاد الغال .

استجمعت روما قوتها وتمكن ماريوس (١٥٧ — ٨٦ ق . م) من أن يلحق هزيمة بالتيوتونى فى واقعة اكس — إن — بروڤانس Aix-en-Provence فى عام ١٠٢ ق . م. ، ثم دمر قوات الكمبرى فى واقعة فرسلاى Vercellae فى عام ١٠١ ق.م. وبعد هذين الانتصارين الحاسمين ساد السلام بين البرابرة وروما قرابة أربعين عاما. وفى سنة ٥٨ ق . م قام أريوڤستوس Ariovistus ملك السويبى بغزو بعض الأراضى فى غالة ، فاضطر يوليوس قيصر إلى مقاتلته ورده ورجاله إلى ما وراء الراين .

---

(٥) Helvetii, Boii, Aravisci, Osi, Terviri, Nervii, Vangiones, Triboci, Nemetes, Ubii, Batavi, Chatti, Mattiaci, Usipi, Tencteri, Bructeri, Chamavi, Angrivarii, Dulgubnii, Chasuarii, Frisii, Chauci, Cherusci, Fosi, Cimbri, Suebi, Tencteri, Reudigni, Aviones, Anglii, Varini, Eudoses, Suarini, Nuitones, Hermunduri, Naristi, Marcomanni, Quadi, Marsigni, Cotini, Buri, Harii, Helvecones, Manimi, Helisii, Naharvali.

(٦) Gothones, Rugii, Lemovii, Suiones, Aestii, Sitones, Peucini, Venedi, Fenni.

ولكن قيصر عقد صلحاً مع أريوفستوس وأغرى السيناتو الرومانى على قبول هذا الملك المتبربر « صديقاً » للجمهورية . وقد أتاح هذا الموقف من جانب قيصر الفرصة لأعدائه لأن يتهموه بالخيانة . ثم سادت فترة سلام أخرى بين روما الجرمان ، فلم يتحرك هؤلاء المتبربرون أثناء الحرب الأهلية التى اندلعت بعد اغتيال قيصر (٤٤. ق م). ولما آل الأمر إلى أوكتافيانوس أغسطس قرر تقليم أظافر الجرمان وردهم إلى ما وراء نهر الإلب ، وقد عهد بهذه المهمة الوعرة إلى ابنى زوجته نيرو دروسوس وطيبيريوس، الذين ألحقا هزائم متتالية بالجرمان . على أن ماربودوس Marboduus ملك الماكرومانى قام بثورة ضد روما ، وانتشرت ثورته إلى بانونيا Pannonia وبين قبائل شريوسكى اللذين تمكن زعيمهم أرمينيوس (هرمان) فى عام ٩ م من إلحاق الدمار والعار بفيالق كونكتيليوس ڤاروس Quinctilius Varus الثلاثة وذلك فى الواقعة الشهيرة باسم تيوتوبرجر ڤالد Teutoburger Wald بين نهرى وزر Weser وإمز Ems . وبعد هذه الكارثة نقلت حدود الإمبراطورية (Limes) مع الجرمان إلى نهر الرين مرة أخرى . وفى عهد طيبيريوس قام جرمانيكوس Germanicus ابن أخيه بجهود جبارة لاستعادة الأقاليم الشمالية العربية من أيدى الجرمان . وقد دمر جرمانيكوس الكثير من الأراضى وقتل العديد من السكان فى هذه المناطق ما بين عامى ١٤ و١٦ م ، ولكن أرمينيوس الزعيم الجرمانى المتمرد لم يهتز . وفى نهاية الأمر اضطر الإمبراطور طيبيريوس إلى أن يستدعى جرمانيكوس وينصحه بالعدول عن خطته ضد أرمينيوس .

بعد هذا قسمت حدود الراين إلى منطقتين عسكريتين هما الراين العليا والراين السفلى . وعمل الأباطرة الفلاڤيون (ڤسباسيان ، تيتوس ، دومتيان : ٦٩ — ٩٦) على تقوية الجبهة الواقعة بين الراين العليا وأعالى الدانوب . وعلى عهد الإمبراطور ماركوس أوريليوس (١٦١ — ١٨٠) قامت القبائل الجرمانية من بوهيميا وهى الماكرومانى والكوادى بعدة غزوات عبر الدانوب ، واستولوا على بانونيا، ثم توغلوا فى إيطاليا حتى اكويليا. ولقد بذل الإمبراطور جهوداً مضنية ليجبر الغزاة المتبربرين على إخلاء الأراضى الرومانية المحتلة .

١ — الهون : The Huns

يمكن تقسيم الشعوب المتبربرة التى كانت تهيم وراء الراين والدانوب إلى قسمين

متمايزين هما الشعوب الجرمانية والشعوب المغولية . والشعوب المغولية جاءت أصلا من مناطق الاستبس فى أواسط آسيا ، ثم ضغطت على الشعوب الجرمانية التى اضطرت تحت هذا الضغط إلى تحطيم الحدود بينها وبين الإمبراطورية الرومانية . والشعوب الجرمانية الأولى هم الأجداد الحقيقيون للدول الأوربية الحديثة سواء أكانوا من القوط Goths أو الفندال Vandals أو النورديين Norsemen (أهل الشمال) أو السويد Swedes أو الدانيين Danes أو الروس أو الألمان Germans أو الفرنجة Franks أو الأنجلوسكون أو اللومبارد . وهؤلاء جميعاً كانوا يتكلمون لغة مشتقة من أصل هندو – أوربى Indo-European . والكلمات الأولية لهذه اللغة الأوربية المبكرة لها أصول مشتركة مع الكلمات الأصول فى اللغات السنسكريتية والفارسية : فكلمات من قبيل أب وأم وأخت وخبز فى صيغها الفارسية والسنسكريتية والإغريقية واللاتينية والإيرلندية القديمة والإنجليزية والروسية ترجع جميعها إلى أصل واحد .

ولكن لغة الشعوب المغولية تختلف عن هذه اللغات الهندو – أوربية الأصل ، فى حين أنها قريبة من اللغة الصينية . أمر آخر يميز الشعوب الجرمانية عن الشعوب المغولية هو أن الجرمان كانوا أهل زراعة وقرى فى حين أن العناصر المغولية كانت بدوا رحلا تعيش على تربية الخيل . ولم تكن هنالك فواصل بين الشعوب المغولية والشعوب الجرمانية ، ولذا فإنه كلما اشتد الجفاف فى مناطق الاستبس ضغطت الشعوب المغولية على القبائل الجرمانية واضطرتها إلى التحرك غرباً مما ترتب عليه عبور الجرمان الراين والدانوب ثم غزوهم روما فى نهاية الأمر .

ونجد فى كتابات جوردان Jordanes ، الذى لخص لنا مؤلف كاسيودوروس – الذى فقد – بعنوان Getica أى « تاريخ القوط » ، كراهية شديدة للعناصر المغولية الضاربة فى البربرية والعنف . فهو فى حديثه عن جماعة الهون من أتباع آتيلا Atilla يقول(٧) :

« هؤلاء ليسوا ببشر وليس لهم لسان مفهوم كسائر خلق الله . ولا حرفة عندهم إلا الصيد وإدخال الرعب فى قلوب الأعداء ، لأن منظرهم مخيف فهم لا يملكون رأساً كالآدميين وإنما لهم كتلة من العظام تقف على العنق وبها ثقبان صغيران يمثلان

(٧) Jordanes, De Origine actibusque Getarum (ed. Th. Mommsen).

العينين . وقسوتهم لا تعرف حدوداً ، كما وأنهم يعاملون مواليدهم بفظاظة زائدة : فى اليوم الأول من مولد الطفل عندهم يخدشون وجناته بالسيف قبل أن يسمحوا له بالرضاع من ثدى الأم . ويقصدون من وراء هذا أن يشعروا كل طفل من أطفالهم بآلام الجراح قبل أن يستشعر لذة لبن الأم . ولهذا فإنهم يشبون على الشراسة ، وهم بطبيعة الحال ليسوا أصحاب لحى (٨) :

وقد تمكن الهون وحلفاؤهم من الآلان Alans من تحطيم مملكة القوط الشرقية وأجبروا قبائلها على الفرار أمامهم فى كل صوب فى أوربا . ولم يكن هذا الانتصار إلا نتيجة لاكتشافات حربية هائلة توصل إليها الهون ألا وهى حدوة الخيل وسروجها : فالحدوة سهلت على الخيل قطع المسافات البعيدة فى وقت قصير ودون كلل ، والسرج مكن المقاتلين من دخول الحرب وهم على ظهور جيادهم . ولقد تفنن الهون فى ركوب الخيل إلى حد أنهم كانوا يتناولون وجباتهم الغذائية وهم على ظهور الخيل ، بل كانت مجالسهم السياسية تعقد وهم أيضاً على ظهور الخيل ، مما دعا البعض إلى الاعتقاد بأن الهون لا يعرفون السير على الأقدام . وكان اكتشاف الحدوة والسروج فى ذلك العصر يمثل انقلاباً حربياً خطيراً ، وكانت هجمة الهون بخيولها وسيوفها دفعة واحدة أشبه ما تكون فى الحروب الحديثة بهجوم مفاجئ للمدرعات أو الدبابات . ولقد ذهل القوط من هول المفاجأة الهونية وانهارت مملكتهم تحت حوافر الخيل المغولية . واتخذ الهون من بانونيا مقراً لهم وكانت قبائلهم تموج ما بين الراين والفولجا . أما القوط فقد فروا إلى شواطئ الدانوب وراحوا يستصرخون السلطات البيزنطية لكى تسمح لهم بعبور النهر وبالاستقرار فى الأراضى الواقعة جنوب الدانوب وكان ذلك فى عام ٣٧٦ . وفى عام ٣٧٨ وقع ما لم يكن هنالك بد منه ، وإذ اصطدم القوط بجيوش الإمبراطورية فى واقعة أدريانوبل وسقط الإمبراطور الرومانى ذاته — ڤالنس — صريعاً فى ميدان القتال . ويجب أن نلاحظ أن القوط قد أجبروا على مقاتلة الرومان لأن جحافل الهون كانت تلهب ظهورهم بالسيوف فاضطروا إلى عبور الدانوب .

---

(٨) Also Ammianus Marcellinus, Res Gestae, XXX, 2 :

".. Ubi ab ipsis nascendi primitiis infantum ferro sulcantur altius genae, ut pilorum vigor tempestivus emergens corrugatis cicatricibus hebetetur.."

لم يكن الهون فى ذلك الوقت قد اتحدوا تحت زعامة ملك واحد ، بل إن بعضا منهم قد خدموا جنداً مرتزقة مع القوط ضد بنى جلدتهم ، وهم الذين علموا العناصر الجرمانية فن ركوب الخيل والقتال من على ظهورها . ومما يلفت النظر أن الزعيمين اللذين قادا الأنجلو سكسون لغزو بريطانيا كانا يحملان كنية مشتقة من كلمة « الفرس » : فواحد منهما اسمه هنجست Hengest ومعناها « الحصان » ، والآخر عرف باسم هورسا Horsa وهو اسم لا يحتاج إلى تفسير (٩).

فزعت شعوب الإمبراطورية الرومانية من البرابرة الهون ، وتسابقت السلطات الحاكمة فى تقديم الهدايا الفاخرة من الذهب والفضة إلى زعمائهم لتشترى ودهم وتتقى شرورهم . وكان رجال الهون مثل نسائهم يتحلون بالجوهرات والبروشات والأقراط . ولقد وصف برسكوس Priscus سفير البلاط البيزنطى إلى بلاط أتيللا الثراء الفاحش الذى رآه هناك : فلقد شاهد منازلهم الفاخرة المصنوعة من أجود أنواع الخشب والتى لها أعمدة مطلية بالذهب . أما أرصفة الطرقات المؤدية إلى بيت زوجة آتيللا فكانت مغطاة بالسجاد .

وفى سنة ٤٥٠ عبر آتيللا نهر الراين وتوغل فى بلاد الغال ثم ضرب حصاراً حول مدينة أورليانز . ولكن ميروفيتش الزعيم الفرنجى السالى هب لنجدة المدينة ومعه رجاله من الفرنجة واللاثيت والأرموريك والبريون والسكسون والبرجنديين والسرماتيين والآلان والربواريان . وانضم إليه ثيودوريك ملك القوط الغربيين وولداه . كذلك خف لنجدة أورليانز الباتريكيان أئيتيوس قائد الجيوش الرومانية . وقد اضطر آتيللا إلى رفع الحصار عن مدينة أورليانز وأثناء تقهقره انقض عليه الحلفاء فى معركة هائلة فى حقول قطالونيا سنة ٤٥١ . انسحب آتيللا وجيشه بعد هذه الهزيمة إلى عاصمته فى بانونيا (فى قرية توكاى الحالية) . وفى العام التالى هاجم أتيللا شمال إيطاليا ولكن مطاردة أئيتيوس وفصائله له إلى جانب الوباء الذى انتشر بين جنود الهون أجبر آتيللا على الانسحاب من إيطاليا . وهناك رواية أسطورية تتحدث عن مقابلة تمت بين البابا ليو الأول

(٩) For the Barbarian movements and Settlements, see Lot, Les Invasions Germaniques; L. Halphen, Les Barbares; Wallace Hadrill, The Barbarian west, 400-1000; R. Grousset, L'Empire des Steppes; Thompson, E.A., A History of Attila and the Huns.

العظيم وآتيلا على نهر Mincio ، وعندما دخل البابا معسكر الملك المتبربر ظهرت فوق رأس ليو هالات القديسين بطرس وبولس ، ففزع الملك من هذا المنظر وعدل عن غزوه لمدينة روما . وقد فر الكثيرون من سكان مصب نهر بو خاصة من عائلات اكويليا وبادوا إلى الجزر المجاورة هروباً من سيوف آتيلا ، وعلى هذه الجزر قامت النواة الأولى لمدينة البندقية .

بعد رجوع آتيلا من غزوته الفاشلة على إيطاليا أضاف إلى حريمه شابة صغيرة هى إلديكو Eldico لتخفف عنه مرارة الفشل . وفى صبيحة اليوم التالى اكتشف أتباعه أن نوبة جنونية قد انتابته من فرط الثمل فمات . وكان ذلك فى عام ٤٥٣ . كان آتيلا يحتقر الرومان وكانت خطته تبغى بناء إمبراطورية مغولية على أنقاض إمبراطورية الرومان . ويحكى عنه أنه عندما استولى على القصر الإمبراطورى فى ميلان قد استاء من اللوحات التى كانت تمثل الأباطرة الرومان جالسين على عرشهم فى حين أن أمراء سكيزيا Scythia المتبربرين قد انبطحوا أرضا يقبلون قدمى العاهل الرومانى ، فأمر الفنانين بتغيير مضمون هذه اللوحات بأن صوروا الأباطرة الرومان صاغرين يقدمون جزية الحرب من الذهب للعاهل الهونى آتيلا . هذا وقد كان من بين خدم آتيلا بعض الأغارقة الذين كلفهم الملك بالكتابة عنه لتخليد ذكراه . وبعد موت آتيلا تمزقت مملكة الهون ، وحاول ابنه إللا Ella قمع الثورات التى اندلعت بين القبائل ولكنه قتل أثناء هذا الصراع فى عام ٤٥٤ . وبهذا تحررت قبائل القوط والسلاف المستعبدة من أغلال آتيلا وولده ، وبدأت هذه القبائل تهيم على وجهها تقذف بها الظروف إلى حيث شاءت .

(٢) القوط الغربيون Visigoths

(٣) أدواكر (٤) البرجنديون (٥) القوط الشرقيون Ostrogoths

أما عن الشعوب الجرمانية الغربية فهى تظهر أول ما تظهر فى التاريخ مستوطنة حول الحافة الغربية القصوى لبحر البلطيق ، فى السويد وجوتلاند وشلزويج هولشتين ، وعلى الشواطئ الجنوبية للبلطيق . تحرك بعض هؤلاء الجرمان جنوباً قبالة مصب الراين ، وفى عام ٢٥٨ تمكنت فرقة من جماعة الألمانى Alemani من عبور الراين واحتلت رائيتيا Rhaetia فى حين حاولت جماعة أخرى هى الفرنجة الهجوم على غالة ولكنها صدت عنها فاستقرت على الحافة اليمنى للراين التى عرفت فيما بعد باسم فرانكونيا وهى الدوقية الوسطى لألمانيا المتمركزة فى حوض نهر المين ومدينة فرانكفورت .

وفى الوقت نفسه كانت شعوب جرمانية شرقية – قوامها من القوط – تتحرك هى أيضا صوب الجنوب قبالة أحراش پريپت Pripet . وفى سنة ٢٥٠ تمكنوا من إرساء إمبراطورية شاسعة على شواطئ البحر الأسود الشمالية . وكان يجاورهم جماعة الفن Finns من الشمال الغربى والآلان Alans من الشرق . ثم ما لبثوا أن زحفوا على بلاد البلقان الغنية لنهب خيراتها . ولقد صادف القوط فى تحركاتهم نجاحاً رائعاً يرجع الفضل فيه إلى تعلمهم فن الفروسية من أعدائهم المغول : ولقد هزموا الجيش الإمبراطورى وقتلوا الإمبراطور ديكيوس فى واقعة دوبروجا Dobrudja سنة ٢٥١ ، وفى عام ٢٦٠ توغلوا إلى قلب البلقان ولم يستطع الإمبراطور ڤاليريان أن يقاومهم . وقد أقام هؤلاء القوط الشرقيون Ostrogoths عاصمتهم فى كيرش Kerch فى شبه جزيرة القرم ، وفى عام ٣٥٠ كانوا يخضعون جميعاً لزعيم واحد هو الملك أرمانارك . ولكن الهون حطموا مملكة أرمانارك فى عام ٣٧٦ وانتحر الملك من اليأس والفزع . وحاول خلفه آثانارك مقاومة عدوان الهون دون جدوى . وتحت ضربات الهون التى لم تكف اضطر القوط الشرقيون إلى عبور الدانوب ، ثم دارت الحرب بينهم وبين السلطات البيزنطية وقتلوا الإمبراطور ڤالنس فى واقعة أدريانوبل سنة ٣٧٨ .

أما بقية شعب القوط فى شمال البحر الأسود فقد صاروا عبيداً للهون . وفى أثناء تلك الفترة المضطربة الغامضة من التاريخ تمكن أولفيلا Wulfila من نشر المبادئ المسيحية بين بنى جلدته القوط . وكان أولفيلا أريوسيًّا . ولذا فإن الشعوب الجرمانية جميعاً (اللهم إلا الفرنجة) كانوا على المذهب الأريوسى . وقد ترجم أولفيلا الكتاب المقدس إلى اللغة القوطية التى كان قد اخترع لها أبجدية خاصة لهذا الغرض . وقد مات أولفيلا فى عام ٣٨٨ واستحق لقب « رسول القوط » .

سمح الإمبراطور ثيودوسيوس للقوط الغربيين بالاستقرار فى شمال البلقان وقدم لهم الهدايا والعطايا . وعند وفاة ثيودوسيوس توقفت الهدايا الوافدة من البلاط البيزنطى إلى المعسكر القوطى . ثم اختار القوط لهم ملكا هو ألارك Alaric الذى كان من بيت بالثى Balthi العريق والذى معناه « الشجعان » . وفى سنة ٤٠٠ أعد ألارك جيشاً ضخماً لغزو إيطاليا ، ثم عبر قنطرة كانديديانوس التى تقع على مشارف مدينة رافنا . وحاصر آلارك روما لمدة ثلاثة أعوام ، ولم تفلح جهود القائد ستيليكو Stilicho ضد حصار ألارك . وكان ستيليكو من أصل متبربر ، ولقد ساورت الإمبراطور هونوريوس الشكوك فى نوايا ستيليكو واعتقد أنه متعاطف مع آلارك فأعدمه فى عام ٤٠٨ . وفى عام ٤١٠ سقطت روما فى يد آلارك ، وعمل القوط نهباً وتخريباً فى بيوت نبلاء الرومان . ولكن آلارك منع رجاله من قتل الناس بالجملة ، ومع أنه كان أريوسيًّا إلا أنه لم يمس الكنائس الكاثوليكية فى روما .

فزع العالم لسقوط روما فى أيدى هذا المتبربر ، وظن المسيحيون أن نهاية العالم قد اقتربت . وبعد هذا قرر آلارك عبور البحر الأبيض للسيطرة على شمال أفريقيا ، ولكن عاصفة حطمت أسطوله ، ثم توفى آلارك فى نهاية عام ٤١٠ . ولم يرغب قوط آلاريك فى دفن زعيمهم فى ضريح يتركونه وسط الإيطاليين الأعداء ، بل أرادوا تكملة شوطهم صوب شمالى إفريقيا ، ولذا قرروا دفنه فى قاع أحد الأنهار فى ضريح مجهول حتى لا تمتد إليه يد الأعداء [١٠] . واختاروا خلفاً له صهره أثولف Athaulf الذى رأى فى نفسه « باعث الإمبراطورية الرومانية » Restitutor Orbis Romana

(١٠) . Jordanès, De origine actibusque Getarum, éd. Th. Mommsen, p. 99 : "Qua adversitate depulsus Halaricus, dum secum quid ageret deliberaret, subito inmatura morte

وقد عدل أثولف عن مشروع سلفه الأفريقى وقرر الاستيطان برجاله فى غالة ، ووقع اختياره على مدينة تولوز عاصمة لمملكة القوط الغربيين . ويبدو أن الإمبراطورين الأخوين أركاديوس وهونوريوس قد رغبا فى كسب ود هذا الزعيم المتبربر فوافقا على زواجه بأختهما جاللا بلاسيديا Galla Placidia ، التى كانت قد وقعت أسيرة فى يده فى روما ، وقد عقد أثولف قرانه عليها فى مدينة ناربون .

توفى أثولف سنة ٤١٥ وصار حكم القوط الغربيين إلى سيجرك Sigeric الذى قتل كل ذرية أثولف وأساء معاملة جاللا بلاسيديا ، ولهذا فقد اغتيل بعد أسبوع واحد من توليه العرش على يد زعيم اسمه ڤاليا Wallia . ثم قامت جاللا بلاسيديا بدور الوسيط بين ڤاليا والبلاط الرومانى ، واتفق على السماح لها بالعودة إلى إيطاليا مقابل إرسال شحنات من القمح إلى القوط والاعتراف بڤاليا حاكماً على أقطانيا (أراضى فرنسا الحديثة جنوبى نهر اللوار) ، على أن يتعهد هو ورجاله بتطهير غالة وإسبانيا من عناصر الآلان والسويف Sueves . أما عن جاللا بلاسيديا فقد تزوجت الباتريكيان قنسطنطينوس الذى شارك هونوريوس حكم الإمبراطورية فى عام ٤٢١ ، وعندما توفى هونوريوس فى عام ٤٢٣ صارت مقاليد الأمور فى النصف الغربى للإمبراطورية فى يدها لمدة خمسة وعشرين عاماً ، بوصفها وصية على ابنها الإمبراطور القاصر ڤالنتينيان الثالث . ولقد أقامت جاللا بلاطها فى مدينة راڤنا ، وهى تقف وسط ظلام هذا العصر العنيف مثلا واضحاً لنوعية العلاقات بين النبالة الرومانية والأمراء المتبربرين ، كما تفصح سيرتها عن روح العصر والتناقضات التى كانت تتحكم فيه وقد توفيت بلاسيدا فى روما فى عام ٤٥٠ م .

فى خلال ذلك الوقت نجح القوط الغربيون فى توطيد حكمهم فى غالة وإسبانيا ،

---

praeventus rebus humanis excessit. Quem nimia sui dilectione lugentés Busento anne juxta Consen-= tina civitate de alveo suo derivato — nam hic fluvius a pede montis juxta urbem dilapsus fluit unde salutifera — hujus ergo in medio alvei collecta captivorum agmina saepulturae locum effodiunt, in cujus foveae gremium Halaricum cum multas opes obruunt, rursusque aquas in suo alveo reducentes, et ne a quoquam quandoque locus cognosceretur, fossores omnes interemerunt...".

كما طهروا البلاد من عناصر الآلان والسويف ،. كما أجبروا جزريك Gaiseric زعيم الفندال على الإبحار إلى أفريقيا . وفى عام ٤٥١ حققوا معجزة كبرى بإيقاع الهزيمة بجيش أتيلا ملك الهون فى حقول قطالونيا .

هذا وقد أقامت جماعة جرمانية أخرى هم البرجنديون مملكة لهم فى غالة : ويصف جوردان هؤلاء البرجنديين بأنهم « أقوياء الحناجر ولهم شهية الخيل فى الطعام » وكان من عاداتهم تليين شعورهم الصفراء بالزبد . والبرجنديون أيضا من مواطن البلطيق ، ومنها زحفوا قبالة الراين . وفى سنة ٢٦٨ هجموا على مدينة مينز حيث قاتلهم الإمبراطور ماكسيميان ، وفى سنة ٤٠٦ فر البرجنديون هلعاً من ضربات الهون فعبروا نهر الراين ، وفى سنة ٤١٣ سمحت لهم السلطات الرومانية بالاستيطان كمعاهدين Foederati جنوبى مناطق استيطان الفرنجة حول مدائن ورمز Worms ومينز Mainz وسباير Speyer . على أنه فى عام٤٣٧ حرضت السلطات الرومانية زعماء الهون على استئصال شأفة البرجنديين لتطهير غالة منهم تماماً ، وقد ذبح الهون منهم أعداداً مهولة . أما الباقون فقد فروا واستقروا فى حوض الرون الأعلى ، حوالى عام ٤٤٣ ، وأصبحت منطقة سافوى هى برجنديا العصور الوسطى . وكان للملك برجنديا — جندوباد Gundobad — كلمة مسموعة فى السياسة الرومانية لأن عمة ريكيمير Ricimer كان يشغل منصب الباتريكيان فى روما ـ وبعد وفاته فى عام٤٧٢ صارت صلاحيات هذا المنصب إلى جندوباد . والبرجنديون كسائر العناصر الجرمانية الأخرى كانوا على المذهب الأريوسى . ولكن إحدى أميراتهم وهى كلوتلد Clotilde كانت على الكاثوليكية ، وقد قدر لها أن تؤثر على مستقبل الفرنجة جميعا بزواجها من كلوفيس Clovis زعيم الفرنجة ، إذ شجعته وشعبه على اعتناق المسيحية على المذهب الكاثوليكى .

ولقد تدفقت قبائل الفرنجة عبر الراين بعد أن كان الفندال والسويف والبرجنديون قد حطموا هذا الحاجز فى أعوام ٤٠٦ ، ٤٠٩ ، ٤١٣ على التوالى . وكان الفرنجة على الوثنية ، ولم يكونوا قد تأثروا بالأساليب والحضارة الرومانية ، ولكنهم كانوا على علاقات بالهون ومنهم تعلموا ركوب الخيل وأفانين الفروسية . وبعد اقتحامهم حدود الراين استقر الفرنجة فى نطاقين : الأول فى بلجيكا وهولندا الحاليتين وهؤلاء عرفوا باسم الفرنجة الساليين Salian بين نهرى سالا وشلت ، والثانى على ضفاف الراين حول

كولون وترير وهؤلاء عرفوا باسم الريواريان Ripàurians . وفى سنة ٤١٠ عقد الإمبراطور هونوريوس مع الفرنجة بشقيهم معاهدة أقرهم بمقتضاها على مواقع استيطانهم سالفة الذكر . وفى سنة ٤٨٦ زحف الفرنجة تحت قيادة زعيمهم كلوفس على غالة ليستقروا فيها بصفة نهائية .

ومما يلفت النظر أنه فى وسط هذه الفوضى الضاربة التى خلقها الجرمان كانت الإمبراطورية قد انقسمت بالفعل إلى قسمين : فبعد وفاة ثيودوسيوس العظيم (٣٩٥) حكم أركاديوس النصف الشرقى من العاصمة الجديدة القسطنطينية ، فى حين أن هونوريوس نقل بلاطه إلى رافنا . كذلك لم تعد للإمبراطور قوة فعلية وإنما باتت السلطة الحقيقية فى يد قواد الجيش الذين كانوا فى أغلب الأحيان من العناصر المتبربرة المرتزقة .

فى هذه الظروف المتقلبة وصل إلى إيطاليا شاب جرمانى طموح هو أودواكر Odovaker . وهو أصلا من بانونيا من إحدى قبائل هروليا ، وقد قدم إلى إيطاليا بحثاً عن المغامرة والسلطان . وكان أورستيز Orestes قائد القوات الرومانية قد عين ابنه روميلوس أغسطيولوس إمبراطوراً . ولما أوقفت السلطات الرومانية العطايا عن الجرمان وقطعت الرواتب عن الجند المرتزقة طلب أودواكر إلى هذه العناصر المتبربرة المتذمرة الانضمام إلى معسكره ووعدهم بالمال والغنائم الوفيرة . وانضمت جماعات كثيرة من الجرمان إلى الزعيم أودواكر الذى ضرب حصاراً حول مدينة بافيا حيث كان يقيم أورستيز . ولما حاول أورستيز الفرار قبض عليه أتباع أودواكر بالقرب من بلدة بياتسنزا ثم أعدموه . بعد هذا سقطت روما فى يد أودواكر ، وكان ذلك فى عام ٤٧٦ ، ثم أجبر الإمبراطور روميلوس أغسطيولوس على المثول أمام السيناتو واعتزال منصبه ، ثم قرر أودواكر نفيه إلى نابولى [١١] .

أرسل أودواكر النياشين الإمبراطورية إلى زينون فى القسطنطينية وكتب السيناتو

---

(١١) Jordanés, op. cit., pp. 119-120 : "Augustulo veroa patre Oreste in Ravenna imperatore ordinato non multum post Odoacer Torcilingorum rex habens secum Sciros, Herulos diversarumque gentium auxiliaros Italiam occupavit et Orestem interfectum Augustulum filium ejus de regno pulsum in Lucullano Campaniae Castello exilii poena damnavit...".

إلى الإمبراطور – بإيحاء من أودواكر – بأنه ليست هنالك حاجة إلى إمبراطور فى الغرب لأن إمبراطوراً واحداً قوياً فى القسطنطينية كفيل بحماية النصفين الشرقى والغربى معاً . وفى نفس الرسالة أبدى شيوخ السيناتو موافقتهم على نقل العاصمة من روما إلى القسطنطينية وتنازلهم عن حق مجلسهم فى انتخاب الإمبراطور . وقد طلب السيناتو إلى الإمبراطور زينون أن ينعم بلقب باتريكيان على أودواكر وأن يمنحه حق حكم إيطاليا . غير أن زينون لم يجب على مطلب السيناتو رفضاً أو إيجاباً ، ولكنه عامل أودواكر على أنه باتريكيان دون أن يسبغ عليه هذه الصلاحيات بصفة رسمية . غير أن أودواكر لم يكن لينتظر موافقة زينون أو رفضه بل نصب نفسه باتريكيا ثم ملكا على إيطاليا . ثم وزع ثلث أراضي إيطاليا على كتائبه . كان حكم أودواكر لإيطاليا حكماً طيباً ، فقد أعاد منصب القنصلية من جديد (فى سنة ٤٨٢) واحترم سيادة القانون والتقاليد الرومانية . ومن الناحية النظرية كانت حكومته لإيطاليا تخضع لإشراف الإمبراطور الشرعى لبيزنطة ، ولكن فى واقع الأمر كان أودواكر حاكما مستقلاً تماماً . وقد قمع أودواكر ثورة قامت فى دلماشيا كما عاقب بعض العناصر المتبربرة التى غزت الأراضى الواقعة بين نهرى دراف وساف . وأعاد هذا الزعيم المتبربر السلام إلى إيطاليا بعد أن حرمت منه فترة طويلة . وفى عام ٤٨٧ هاجم أودواكر القبائل الروجيانية Rugians فى بانونيا وأوقع بهم الهزيمة ثم أسر فردريك ابن ملكهم فلثيوس Feletheus . ولكن فردريك نجح فى الفرار من الأسر ولجأ إلى القوط الشرقيين وتوسل إلى ملكهم ثيودوريك أن ينتقم له من أدواكر .

كان القوط الشرقيون قد نجحوا سنة ٤٦٢ فى غزو إقليم الليريا ، واضطر الإمبراطور إلى تهدئة أطماع زعمائهم بتقديم الرشوة إليهم . ثم بعث ثيوديمير ملك القوط الشرقيين ابنه ثيودوريك ، الذى كان صبياً فى السابعة من العمر ، رهينة إلى القسطنطينية ، وبقى هناك حتى سن الثامنة عشرة . ولقد كان لهذه الإقامة الطويلة فى القسطنطينية بالغ الأثر فى خلق الفتى ثيودوريك الأمير المتبربر . وعند عودته إلى بلاده اختير ملكا خلفا لوالده ، فى عام ٤٧٥ . وكان الإمبراطور زينون يحيطه بالكثير من العطف والمحاباة .

لما وصل فردريك – هارباً من الأسر – إلى بلاط ثيودوريك يستنجد به

ضد أدواكر ، طلب ثيودوريك الإذن من الإمبراطور زينون بأن يسمح له بالزحف على إيطاليا ، واعداً بطرد أدواكر منها وإعادتها إلى حظيرة الإمبراطورية . والواقع أن زينون لم يكن على خلاف مع أدواكر فقد كان حكمه لإيطاليا عادلا ، ولكن الإمبراطور رأى فى خطة ثيودوريك الفرصة الذهبية للتخلص منه ومن قبائله . جاء رد زينون على ثيوديوريك غاية فى الدبلوماسية ، فهو لا يحمل موافقة صريحة ؛ وذلك لأن الإمبراطور لم يكن فى موقف يستطيع معه أن يغضب ثيودوريك أو أدواكر .

وفى صيف ٤٨٨ جمع ثيودوريك رجاله عند مدينة نوفا ومنها زحف على إيطاليا . وفى الطريق كان على ثيودوريك وكتائبه أن يشقوا طريقهم بالسيف فاضطروا إلى مقاتلة قبائل الجبيدى Gepidae وغيرهم من جحافل المتبربرين المنتشرين فى كل مكان . وفى خريف ٤٨٩ دخل ثيودوريك إيطاليا واشتبك مع قوات أدواكر فى عدة معارك كان النصر فيها لمعسكر ثيودوريك . ولقد فر أدواكر ذاته من ميدان القتال فى الواقعة الحاسمة التى اشتعلت بين الطرفين عند ڤيرونا . ومع أن ثيودوريك كان على المذهب الأريوسى إلا أنه لقى تأييداً كبيراً فى شمال إيطاليا من جانب الأساقفة الكاثوليك . وعند ميلان حلت الهزيمة مرة أخرى بأودواكر ، فهرب إلى راڤنا . ضرب ثيودوريك حصاراً حول راڤنا ثلاثة أعوام ، وأخيرا اتفق الزعيمان المتبربران على أن يعقدا صلحا وأن يحكما إيطاليا سوياً . وفى أثناء حفل الصلح دبر ثيودوريك مؤامرة دنيئة اغتال بها أدواكر (سنة ٤٩٣) ، وانفرد بعد ذلك بحكم إيطاليا ، ملكاً على القوط الشرقيين .

ونحن مدينون لكاسيودوروس Cassiodorus فى الحصول على أخبار عهدى أدواكر وثيودوريك ، ومع أن كتبه الاثنى عشر عن تاريخ القوط فقد فقدت إلا أن جوردان قد حفظ لنا موجزاً لهذا التاريخ فى كتابه الشهير بعنوان Getica أى « تاريخ القوط » . كان فلاڤيوس ماجنوس أوريليوس كاسيودوروس (٤٧٧ — ٥٧٠) ينحدر من عائلة رومانية نبيلة . وقد تدرج فى مختلف المناصب حتى أصبح عضواً فى السيناتو . ولقد عمل كاسيودوروس وزيراً لثيودوريك ، ثم كوايستورا Quaestor فى القصر الملكى فى راڤنا سنة ٥٠٠ ، ثم عين باتريكيان فقنصلا سنة ٥١٤ ، وأخيراً اختير رئيسا للديوان الملكى فى سنة ٥٢٦ وهو العام الذى توفى فيه ثيوديوريك . وفى عام ٥٣٤

صار كاسيودورس حاكما برايتوريا، وهو الذى ألقى خطبة التهنئة لثيودوهاد Theodohad عند اعتلائه العرش بعد وفاة آثالارك Athalaric ، وقد تبوأ منصباً مرموقاً أيضا على عهد الملك ڤيتيجيز Witigis . وبعد أن حطم الإمبراطور جستينيان العظيم (٥٢٧ — ٥٦٥) مملكة القوط الشرقية ، سمح لكاسيودوروس أن يعتزل الحياة العامة إلى ضياعه فى سكويلاس Squillace ، وهناك أسس بيتا ديرانيا للرهبان الدارسين أو العلماء . ولقد عاش الرجل طويلا حتى بلغ ٩٣ عاماً . وله إلى جانب تاريخه عن القوط عدة رسائل متنوعة بعنوان Variae ، وهى ذات قيمة تعليمية وأخلاقية تشرح ما يجب على موظفى الدولة أن يتبعوه فى تصريف أمور الدولة ومصالح الرعية (١٢).

اتخذ ثيودوريك لنفسه اسماً رومانيًّا هو فلاڤيوس، انتماء منه إلى الأسرة الفلاڤية Gens Flavia ، كما كان يخاطب الإمبراطور فى القسطنطينية فى أسلوب دبلوماسى رائع على أنه الخادم والابن المطيع (ego qui sum servus vester et filius) أما العملات التى سكها ثيودوريك فى راڤنا وروما وميلان فكانت تحمل اسم الإمبراطور لا اسمه هو ، مكتفياً بأن يحمل ظهر العملة الحرفين الأولين من اسمه . ولم يقدم ثيودوريك على إصدار قوانين Leges تشبها بالإمبراطور ، وإنما اكتفى — عندما دعت الضرورة — بإصدار بضع مراسيم Edicta ، وكان يخاطب أعضاء السيناتو بلقبهم الموقر : Patres Conscripti . ولقد قام ثيودوريك بعدة إصلاحات للنهوض بالزراعة فى إيطاليا ، وشجع التعليم ودفع الرواتب للخطباء كما كانت الحال قديماً ، وأظهر احتراماً بالغاً للنظم والقوانين الرومانية .

اعتبر ثيودوريك نفسه ممثلاً للإمبراطور فى إيطاليا(١٣) . ومن هذا المفهوم رأى فى نفسه أيضا مشرفاً على الممالك الجرمانية الأخرى التى كانت جميعها — قبل اعتناق كلوفس الفرنجى للكاثوليكية — على المذهب الأريوسى . وبعد أن هزم الفرنجة القوط الغربيين فى واقعة Campus Vogladensis سنة ٥٠٧ ، بات الخطر يهدد ثيودوريك ونفوذه فى البحر المتوسط . ولهذا عمل ثيودوريك على أن يؤمن لمملكته الممر الساحلى على البحر الذى يصل إيطاليا بتولوز ، ثم عين الكونت ثيوديز Theudis نائباً عنه

(١٢) Cassiodorus, Variae, in M.G.H.

(١٣) See Deanesly, M., A History of Medieval-Europe, (Methuen.), Ch. III.

فى حكم القوط الغربيين فى إسبانيا من مقره فى ناربون . كذلك عقد ثيودوريك أحلافاً مع أعداء الفرنجة ، ورحب باللاجئين من عناصر الألمانى الذين فروا من وجه الفرنجة ، كما بسط حمايته على عناصر الثورنجى والهريولى . وسعى ثيودوريك أيضاً إلى أن يخطب ود كلوفس ملك الفرنجة عن طريق المصاهرة فطلب يد أخته أودوفليدا Audofleda ، ومع أن هذا الزواج قد تم (٤٩٥) إلا أن الفرنجة ظلوا يضمرون العداء الشديد للقوط ، كما يقول المؤرخ جوردان . وكانت أودوفليدا وثنية ، وعند زواجها من ثيودوريك قبلت المعمودية على يد أسقف آريوسى . كذلك وثق ثيودوريك علاقاته بالفندال بأن زوج أخته آمالافريدا إلى ثرازاموند ملك الفندال، وزوج إحدى بناته إلى سجسموند ملك برجنديا ، وأخرى إلى آلارك الثانى ملك القوط الغربيين .

لم ينجب ثيودوريك ابناً يرث الملك من بعده ، فاستقدم أميرا شابًّا من قوط إسبانيا هو أيوثارك ، وزوجه من ابنته آمالاسونزا فى عام ٥١٥، ثم أنعم عليه بعد ذلك بمنصب القنصلية . ولقد أنجب أيوثارك ولداً وبنتا ، ولكنه توفى تاركاً أرملته الشابة فى رعاية والدها ثيودوريك . وفى سنة ٥٢٦ استخلص ثيودوريك من نبلاء مملكته وعداً باختيار حفيده آثارك ملكا من بعده .

جاءت سحب التهديد من القسطنطينية تتوعد ثيودوريك : ففى عام ٥١٨ اعتلى عرش بيزنطة جندى الليرى خشن الطبع هو جستين . وكان الإمبراطور الجديد شديد الحماس لكاثوليكيته ، ومن ثم فقد كان شديد العداء للآريوسية ومعتنقيها القوط . والواقع أن ثيودوريك — برغم التسامح الذى عرف عنه تجاه الكاثوليكة فى إيطاليا — أقدم لسبب غير معروف على تحطيم كنيسة القديس ستيفن فى ضواحى ڤيرونا ، الأمر الذى أثار مشاعر الكاثوليك فى روما فراحوا يرنون بأبصارهم قبالة الجالس على عرش البسفور لتخليصهم من هذا التهديد الآريوسى . ولقد زاد الطين بلة ذاك الاستحواذ الذى تملك عقل ثيودوريك فى السنين الأخيرة من حكمه فبات يرتاب فى أعضاء السيناتو الواحد بعد الآخر ، ثم حرم على الأهالى حمل السلاح . ولقد وصلت نوبة الشك هذه بثيودوريك إلى الحد الذى جعله يقدم على سجن صديقه الفيلسوف العظيم بوئيثيوس Boethius بتهمة الاتصال بالبلاط البيزنطى وبحجة أنه يزاول السحر

والتنجيم . ولقد أمضى الفيلسوف أيام السجن فى هدوء الرواقيين وسجل خلالها كتابه « تعازى الفلسفة » Consolationes Philosophae ، وفى سنة ٥٢٤ أعدم بطريقة وحشية .

صادر الإمبراطور جستين الكنائس الأريوسية فى القسطنطينية وسلمها للكاثوليك ، ثم أجبر بعض الأريوسيين على اعتناق المذهب الكاثوليكى . ولما علم ثيودوريك بذلك استدعى البابا يوحنا الأول إلى راڤنا وأمره بالتوجه إلى القسطنطينية للتوسط لدى الإمبراطور لكى لا يجبر الأريوسيين على اعتناق المذهب الكاثوليكى . ولقد كانت هذه المهمة الصعبة مدعاة للحرج الشديد عند البابا فهو رأس الكاثولوكية الأكبر !

اصطحب البابا يوحنا معه أسقف راڤنا وثلاثة من أعضاء السيناتو وعدداً آخر من رجال الدين والنبلاء ووصل إلى القسطنيطنية فى عام ٥٢٥ . ولقد استقبلته العاصمة الإمبراطورية استقبالا حافلا ، ثم قام بتتويج جستين إمبراطوراً . وعقد الإمبراطور والبابا اجتماعا خاصًّا ، ويبدو أن جستين قد اقتنع بضرورة إيقاف موجة الاضطهاد ضد الأريوسيين فوافق على أن يعيد إليهم كنائسهم ، ولكنه رفض السماح لمن دخل الكاثوليكية منهم أن « يرتد » إلى الأريوسية .

ولما وصلت أنباء هذا التقارب بين البابا والإمبراطور إلى مسامع ثيودوريك جن جنونه ، فألقى أعضاء السفارة البابوية جميعاً فى السجن ، وتوفى البابا فى سجنه فى ٢٥ مايو سنة ٥٢٦ . وفى ٢٦ أغسطس من نفس العام توفى ثيودوريك قبل أن ينفذ خطته التى كان محدداً لها نهاية أغسطس لنقل كل كنائس إيطاليا الكاثوليكية إلى حوزة الأريوسيين .

خلف ثيودوريك على عرش مملكة القوط الشرقية حفيده آثالارك تحت وصاية والدته آمالاسونزا ، يعاونهما فى الحكم كاسيودوروس رئيس الديوان Magister officiorum وكانت الملكة الأم على درجة عالية من الثقافة ، فلقد قرأت ڤرجيل وسوفوكليس ، ولكنها كانت رعناء فى مجال السياسة إذ دبرت اغتيال ثلاثة من كبار نبلاء القوط . وبعد وفاة ابنها الملك أشركت معها فى الحكم ابن عمها ثيودوهارد الذى ما إن ثبت قدمه فى الحكم حتى ألقى بالملكة فى السجن ثم أمر بإعدامها . والواقع أن آمالاسونزا كانت على اتصال بالبلاط البيزنطى وعرضت على الإمبراطور جستينيان أن تسلم له

إيطاليا وأن تلجأ هى إلى بيزنطة . ولقد استجاب الإمبراطور لهذا الطلب وفوض البرو قنصل بطرس لإتمام هذا الاتفاق ، الذى علم عند وصوله إيطاليا بأمر اغتيال آمالاسونزا ، فأعان — باسم الإمبراطور — الحرب على الذين قتلوها . وفى سنة ٥٣٦ أرسل جستنيان حملة عسكرية بقيادة بليزاريوس الذى استولى على نابولى ثم زحف صوب روما . فى أثناء ذلك قام نبلاء القوط بعزل ثيودوهاد وانتخبوا فيتيجيز ملكاً بعد أن تزوج من ماتسونزا حفيدة ثيودوريك . وفى سنة ٥٣٧ استولى بليزاريوس على روما ، وبعدها بثلاثة أعوام سقطت رافنا عاصمة القوط الشرقيين فى يده . واقتيد الملك القوطى ڤيتيجيز أسيراً إلى بيزنطة ، فى حين أن بازاريوس قد سمح لكاسيودوروس بأن يعتزل الخدمة إلى الحياة الديرانية .

ولكن القوط سرعان ما تمردوا ضد قوات جستينيان فى عام ٥٤٣ بقيادة توتيلا Totila ، الذى نجح عام ٥٤٦ فى غزو مدينة روما . هرب أعضاء السيناتو من وجه توتيلا إلى جزيرة صقلية ، ومنها أبحروا إلى القسطنطينية . وفى سنة ٥٥٠ عين جستينيان الجنرال جرمانوس لإعادة فتح إيطاليا ولإسقاط حكومة رافنا وقد حقق جرمانوس بعض النجاح فى مهمته ، ثم تزوج من ماتسونزا أرملة ڤيتيجيز ، ولكنه مات فى نفس العام . ولم يتحقق إسقاط حكومة رافنا إلا على يد القائد العجوز نارسس Narsis الذى أوقع هزيمة نكراء بجيش توتيلا عند أنكونا Ancona ، ثم قتل توتيلا نفسه . وبهذا طوى فصل مملكة القوط الشرقيين فى إيطاليا :

الفرنجة Franks

والڤندال Vandals

كان الفرنجة قد تحركوا من وادى نهر المين إلى وديان الموسل Moselle والراين . وسمحت السلطات الرومانية للفرنجة الساليين Salian بالاستقرار فى إقليم توكساندريا (شمالى بلجيكا الحالى) فى سنة ٣٥٨، الذين حصلوا فى القرن الخامس على جانب كبير من الاستقلال الذاتى والذين أحلوا فى هذا الإقليم لسانهم الجرمانى محل اللغة اللاتينية . ولم يكن الفرنجة الساليون قبيلة واحدة وإنما عدة قبائل شأنهم فى هذا شأن الفرع الآخر من الفرنجة الذين عرفوا بالربواريان Ripuarian . والنظام السائد فى المجتمع الفرنجى هو القبيلة التى تخضع لزعيم أهم مؤهلاته البطولة العسكرية . وكانت لكل قبيلة قطعة من الأرض عرفت باسم Pagus (معناها الأصل : قرية) كانت تقسم إلى وحدات مئوية يشرف على كل منها رئيس بلقب Centenarius . وكانت الأسر النبيلة فى المجتمع الفرنجى تخضع للزعيم الأكبر أو الملك وتدفع له ضريبة الحرب Wergeld . ومصدرنا الأول عن أخبار الفرنجة هو جريجوريوس فلورنتيوس الشهير باسم جريجورى أسقف تور . تربى هذا الأسقف فى وسط غالة ، وكان على قسط متواضع من العلم والثقافة ، ويعترف هو ذاته بذلك ويبدى أسفه على ضحالة علمه وخشونة لا تينيته (rusticitas) . وأهم مؤلفات جريجورى « تاريخ الفرنجة » Historia Francorum الذى بدأه بالحديث عن آدم وحواء وتدرج فيه حتى استشهاد القديس مارتن فى مدينة تور ، ثم أرخ للڤندال والهون والفرنجة الأوائل وملكهم كلوڤس Clovis ، وبعد هذا عالج الفترة من عهد كلوڤس حتى وفاة حفيده ثيودبرت (٥٤٧) ومنها حتى وفاة الملك سيجبرت (٥٧٥) . وفى ختام هذا المؤلف سجل أسقف تور مذكراته الشخصية مابين عامى ٥٨٤ و ٥٩١ . وإلى جانب كتاب « تاريخ الفرنجة » كتب جريجورى عدة مؤلفات أخرى منها مصنف « الفصول السبعة للمعجزات » والتى تدور حول معجزات الشهداء Gloria Martyrum والأعمال الخارقة للقديس مارتن .

هذا إلى جانب كتاب آخر بعنوان Vitae Patrum يشمل سيرة القديس أندرو وعشرين من آباء غالة ، إلى جانب قصة أهل الكهف السبعة فى مدينة أفيسوس[١] .

تم للفرنجة السيطرة التامة على غالة فى عهد كلوفس (كلودوفيتش) ملك الفرنجة الساليين . وكان جده ميروفيتش قد قاد جيشاً من الفرنجة لمساعدة السلطات الرومانية ضد غزوات الهون فى سنة ٤٥١ . وعند وفاة ميروفتش فى سنة ٤٥٦ خلفه ابنه شلديك الأول الذى تمكن من الاستيلاء على انجرز Angers على نهر اللوار ثم زحف قبالة سواسون Soissons . وفى سنة ٤٨١ توفى شلدريك فخلفه فى الملك ابنه كلوفس الذى تمكن ، بمعونة قائد جيشه راجنا شار ، من الاستيلاء على سواسون وروين وريمز وباريس ، فى عام ٤٨٦ . بعد هذا اصطدام كلوفس مع قائد جيشه راجنا شار فقتله ؛ ثم هزم ملك الربواريان وأذل زعماء الألمانى ، وذلك فى عام ٤٩٦ .

كان الفرنجة ، دونا عن بقية الشعوب الجرمانية الأخرى ، على صلات بالحضارة الرومانية ، ولذا فقد كانوا أقل بربرية من بقية الجرمان . وقد تزوج كلوفس فى عام ٤٩٣ من كلوتلد الأميرة البرجندية الكاثوليكية التى أقنعت زوجها الوثنى بضرورة اعتناق المسيحية على المذهب الكاثوليكى . وقد تم عماد كلوفس على يد ريميجيوس أسقف مدينة ريمز . ولقد شبه المؤرخ جريجورى أسقف تور هذا الحادث الهام باعتناق قنسطنطين العظيم للمسيحية ، بل لقد أسمى كلوفس « قنسطنطين الجديد » لأن عماده قد أدى إلى اعتناق كل الأمة الفرنجية للدين المسيحى على المذهب الكاثوليكى . وقد كان مشهد عماد كلوفس — حسبما يروى جريجورى — مؤثراً للغاية إذ رفع الأسقف ريميجيوس صوته يأمر ملك الفرنجة بأن « اخفض عنقك فى مزلة أيها السيكمبرى ، ولتعبدن الرب الذى طالما قد أحرقت ولتحرقن الآلهة التى طالما قد عبدت »[٢] . ويقال إن كلوفس عند ما استمع إلى قصة آلام المسيح

---

(١) Gregorii Tourensis Episcopi Opera Omnia, in P.L., Vol. 71.

(٢) Gregorii Tourensis Episcopi Opera Omnia, Historia Fancorum, Liber Secundus, XXX, Cols. 225 seq.: "Regina vero non cessabat praedicare, ut Deum verum cognosceret et idola neglegeret...

Procedit novus Constantinus ad lavacrum, deleturus leprae veteris morbum sordentesque=

على يد اليهود والسلطات الرومانية ، صاح قائلا « لو كنت ورجالى هنالك وقتها لا نتقمت للمسيح شر انتقام » [٣] .

بعد أن اعتنق كلوفس المسيحية على المذهب الكاثوليكى أعد العدة للهجوم على أقوى جيرانه وهم القوط الغربيون فى تولوز ، الذين كانوا ينافسون الفرنجة فى محاولة السيطرة على غالة . وقد اتخذ كلوفس من أريوسية القوط الغربيين حجة قوية لشن الحرب عليهم . فى سنة ٥٠٧ جمع كلوفس جيشه وزحف على پواتييه مقر آلارك الثانى . وقد حدث عند مدينة تور أن استولى أحد ضباطه على ماكان أحد بسطاء فلاحى المنطقة قد جمعه من زرع ، فغضب كلوفس عندما علم بذلك وأمر بقتل الضابط على التو صائحاً : « كيف يكون لنا نصر إذن إن نحن أغضبنا قديس المدينة مارتن ؟ » ثم بعث كلوفس برسول إلى كنيسة القديس ليقدم له الهدايا والنذور وليستشف مصير حربه ضد القوط من وحى القديس . وعند دخول رسول كلوفس باب الكنيسة سمع رئيس المرتلين ينشد من الداخل فى وضوح أخاذ « أيها الرب لقد منطقتنى بالقوة وألقيت بأعدائى تحت قدمى » : وعلى مقربة من بواتييه التقى جيش كلوفس وجيش القوط الغربيين فى واقعة Campus Volgadensis وانتصر الفرنجة على أعدائهم انتصاراً ساحقاً . وهرب القوط فى حين أن زعيمهم آلارك سقط صريعاً فى ميدان القتال ، وفر ابنه آمالارك إلى إسبانيا . بعد هذا الانتصار الحاسم عاد كلوفس إلى مدينة تور حيث قدم الهبات للقديس مارتن . وهكذا دانت تولوز ، عاصمة القوط الغربيين ، للفرنجة ، فى حين استولى البرجنديون على سبتمانيا .

وفى هذه المرحلة وصلت سفارة من القسطنطينية تحمل رسائل المودة من الإمبراطور أناستاسيوس ، وتخلع على كلوفس الروب القنصلى والعباءة الأرجوانية . وبهذا اكتسب حكم كلوفس شرعية رسمية . وقد تمت هذه المراسيم فى كنيسة القديس مارتن ، وعندها امتطى كلوفس جواده وقصد إلى كاتدرائية القديس جاتيان حيث وزع

=maculas gestas antiquitus recenti latica deleturus. Cui ingresso ad baptismum Sanctus Dei sic infert ore facundo : "Mitis depone colla; adora quod incendisti, incende quod adorasti."

(٣) "Si ego ibidem cum Francis meis fuissem, injurias ejus vindicassem."

الصدقات من الفضة والذهب على جموع الشعب . ومن باريس حكم كلوڤس مملكة الفرنجة الشاسعة ، وقد حافظ على الصبغة الغالية — الرومانية لبلاده ، فأبقى على النظم الرومانية فى الإدارة وكذا على العملة القديمة . ولقد امتد حكم كلوڤس حتى عام ٥١١ (٤) .

٧ — الڤندال

عبرت قبائل الڤندال من جماعات الأزدنج والسيلنج جبال البرانس إلى إسبانيا بصحبة جماعات من السويف والآلان فى سنة ٤٠٩ . وكان على هذه القبائل أن تقاتل ضد ڤاليا ملك القوط الغربيين لكى ينتزعوا منه بعض الأرض ليستقروا عليها ، وقد أفنى فرع الڤندال السيلنج تماماً فى هذه الحرب البشعة (عام ٤١٦) . وابتداء من عام ٤١٨ خضع الڤندال والآلان لزعيم من فرع الأزدنج . وفى عام ٤٢٢ هزم الڤندال جيشاً رومانياً واستولوا على الشواطئ الإسبانية على البحر المتوسط وعلى بعض السفن التى وجدوها راسية عند كارتاجينا . ثم قاموا ببناء أسطول كبير ليبدءوا نشاطهم فى القرصنة ، وانقضوا على جزر البليار وولاية موريتانيا الإفريقية ونهبوهما . وبعد أن توفى الملك جندوريك خلفه على عرش الڤندال الملك جيزريك (٤٢٨) الذى قاد شعبه عبر البحر إلى شمال أفريقيا . ولقد شجع بونيفاس حاكم ولاية أفريقيا الرومانى جماعة الڤندال على الإبحار إلى أفريقيا لمساعدته ضد هجمات القبائل الصحراوية ، على أن يكون هؤلاء الڤندال جنداً معاهدين للإمبراطورية Foederati . ولكن جيزريك لم يكن ليقنع بهذا ، بل راح يخطط للاستيلاء على شمال أفريقيا وإقامة مملكة للڤندال هناك . وفى سنة ٤٤٠ كان الڤندال قد تمكنوا من الاستيلاء على قرطاجة من أيدى السلطات الرومانية ، وامتدت مملكتهم من تنجيتانا حتى طرابلس . وفى نفس الوقت كان أسطول الڤندال يسيطر على حوض البحر المتوسط ويقوم بغزواته المتكررة على جزائر قبرص وسردينيا وكورسيكا ، وبذلك قطعت الاتصالات بين روما والعالم

(٤) انظر الفصل السابع لمتابعة قصة الميروفنجيين بعد كلوڤس .

الخارجى . وفى سنة ٤٥٥ عندما اغتال أتباع أئيتيوس Aetius الإمبراطور ڤالنتنيان قاد جيزريك حملة بحرية وهاجم ميناء أوستيا ، وهو ميناء العاصمة روما ، وقد خرج البابا ليو لمقابلة جيزريك ليرجوه بألا ينهب العاصمة . ومع أن ملك الڤندال كان قد وعد بألا ينهب العاصمة ، إلا أنه أمضى ورجاله أحد عشر يوماً يجردون خلالها المدينة من كل نفيس وجدوه فيها . وفى نهاية الأمر حمل الملك المتبربر معه يودوكسيا أرملة الإمبراطور الراحل وابنتيها والذهب الذى كان فى القصر الإمبراطورى . كذلك نهب جيزريك نصف السقف الذى كان يغطى معبد الإله جوڤ الكابيتولينى الذى كان من أفضل أنواع البرونز . كذلك استولى جيزريك على الأسطول الإمبراطورى الذى كان راسيا فى ميناء أوستيا . ولقد زوج الملك الڤندالى ابنه الأكبر هونريك Huneric من أسيرته الإمبراطورة يودوكسيا . وفى العام التالى قام أسطول الڤندال بغزوة على جزيرة صقلية وسواحل جنوبى إيطاليا .

بات خطر الڤندال يهدد جزائر البحر الأبيض وإيطاليا والليريا وبلاد اليونان وشرقى حوض البحر الأبيض بل والإسكندرية أيضاً . ولم تفلح جهود الإمبراطور الغربى ماجوريان فى عامى ٤٥٨ و ٤٦٠ ضد الڤندال . كذلك باءت بالفشل جهود الإمبراطور الشرقى ليو الأول (٤٥٧ — ٤٧٤) ضد الڤندال . وقد نجح جيزريك فى أن يعقد صلحاً مع الإمبراطورية البيزنطية ، ثم عين ابنه خلفاً له على العرش . ولقد دامت مملكة الڤندال ، التى أسسها جيزريك فى ١٩ من أكتوبر ٤٣٩، يوم سقوط قرطاجة، مدة ٩٥ عاماً .

يحدثنا بروكوبيوس(٥) Procopius — الذى صاحب القائد بلزاريوس فى حملته لتحطيم مملكة الڤندال — أن الملك جيزريك بعد أن استولى على جميع الأراضى فى شمال أفريقيا قام بتوزيعها على رجال جيشه ، ولم يترك لأهالى البلاد إلا جزءاً صغيراً من الأرض اضطروا إلى شرائه من الملك . وكان الڤندال آريوسيين متعصبين فاضطهدوا الأساقفة الكاثوليك كل من قرطاجة وهپو Hippo وريجيوس Regius . وكان الملك حاكما مستبداً ليس له مجلس من النبلاء يشاوره الرأى ، وإنما كان يستخدم ثمانية من الأدواق (duces, chiliarchs) لقيادة أساطيله فى أعمال

---

(٥) Procopius, De bello Vandalico.

القرصنة . ويقدر عدد رجال الجيش الفندالى على عهد جيزريك بحوالى ٨٠,٠٠٠ ، وقد خدم فى هذا الجيش إلى جانب الفندال عناصر أخرى من الإفريقيين والآلان والهريولى والسويف والقوط . ولم يكن للملك خطة مرسومة فى حملاته العسكرية وإنما كان فى كل إغارة يردد : « نحن فى طريقنا لمهاجمة قوم أغضبوا الله » ، وكان يقصد بهذا جميع شعوب البحر المتوسط التى لم تكن على المذهب الأريوسى .

بعد وفاة جيزريك حكم ابنه هونريك الذى كان قد تزوج الإمبراطورة الأرملة يودوكسيا . وفى عهده تمردت قبائل شمال أفريقيا وأغارت على معسكرات الفندال . كذلك وقع خلاف بين هونريك وبين الإمبراطور البيزنطى حول الثروة الطائلة التى كان الفندال قد نهبوها من روما . واضطهد هونريك الكاثوليك ، فكان يحرق بعضهم أحياء كما أكره البعض على اعتناق المذهب الأريوسى ، ورحّل عدداً كبيراً من الأساقفة إلى سردينيا ، ثم أغلق الكنائس الكاثوليكية وصادر أملاكها لصالح الكنائس الأريوسية . وسار جونثاموند (٤٨٤ — ٤٩٦) على سياسة أبيه هونريك مع الكاثوليك . ولكن لما آل العرش إلى ترازاموند ، وهو شقيق جونثاموند ، اتسم حكمه (٤٩٦ — ٥٢٣) بالاعتدال مع الكاثوليك إلى حد أثار إعجاب المعاصرين من اللاتين واليونان فشبهوه بثيودوريك العظيم . وكان ترازاموند قد تزوج من آمالافريدا شقيقة ثيودوريك ، الذى أرسل لصهره الفندالى هدية قوامها ألف من النبلاء المحاربين ، لمساعدته ضد إغارات القبائل الصحراوية التى كانت تناوئ المعسكر الفندالى . وكانت خيول الفندال تفزع عند ملاقاة الجمال التى كان يمتطيها رجال القبائل الإفريقية المحاربون .

بعد وفاة ترازاموند حكم هلدريك وهو ابن هونريك من زوجته الرومانية يودوكسيا ، وقد حكم من سنة ٥٢٣ إلى ٥٣١ . وكان هذا الفتى قد عاش طويلا فى بلاط القسطنطينية فتأثر بالحضارة الرومانية ، فلما آل إليه العرش انحاز إلى الكاثوليكية التى كانت تدين بها والدته فأعاد إلى الكاثوليك كنائسهم المصادرة كما سمح لمن كان منهم فى المنفى بالعودة إلى أبروشياتهم ، ولذا فقد اكتسب حبهم وإعجابهم (٦) . ولقد أمر هلدريك بإعدام آمالافريدا شقيقة ثيودوريك .

---

(٦) "Nullo modo unquam Christianos vexavit."

ملك القوط الشرقيين . وفى عام ٥٣١ دبر جلمير Gelimer ابن عمه مؤامرة ضده فخلعه عن العرش وألقى به فى السجن .

كان الجالس على عرش بيزنطة فى ذلك الوقت الإمبراطور جستينيان العظيم (٥٢٧ — ٥٦٥) . فلما أن علم الإمبراطور بمـا حل لهلدريك ، الذى كانت تجرى فى عروقه دماء ثيودسيوس العظيم — أرسل إلى جلمير يطلب منه إطلاق سراح هلدريك على أن يكون له حق حكم مملكة الفندال باسم الأخير . ولكن جلمير رفض عروض جستينيان فى وقاحة زائدة . وفى سنة ٥٣٣ بعد أن هادن جستينيان ملك الفرس وبعد أن قمع ثورة « نيكا » Nika التى قامت فى العاصمة ضده ، أرسل الإمبراطور قائده بلزاريوس على رأس حملة قوامها ١٥,٠٠٠ رجل وعدد آخر من رجال الأسطول لغزو شمال أفريقيا وتدمير مملكة الفندال . وكان بروكوبيوس — مؤرخنا المرموق — مرافقاً للقائد بلزاريوس فى هذه الحملة ، لأنه كان يعمل سكرتيراً له . ويقول بروكوبيوس إن أسطول الحملة كان قوامه ٥٠٠ سفينة ، ركب إحداها وهى السفينة Navis praetoria بلزاريوس وزوجه أنتونينا ومعهما بروكوبيوس السكرتير . رسا الأسطول عند Caput-Vada التى تقع على مسيرة خمسة أيام من قرطاجة ، وهناك ضرب بلزاريوس معسكره فى رقعة يتوسطها ينبوع من المياه . وأذاع بلزاريوس على سكان شمال أفريقيا أنه جاء ليحررهم من الطاغية جلمير . وفى ١٣ سبتمبر سنة ٥٣٣ التقى الجيشان على مقربة من قرطاجة (ad Decimum) وحلت الهزيمة بجلمير الذى تقهقر غرباً قبالة نوميديا . ثم سقطت قرطاجة فى يد بلزاريوس الذى أجلس نفسه على عرش جلمير فى القصر الفندالى . ثم أقام فى هذا القصر مأدبة لنبلاء الجيش قام على الخدمة فيها رجال قصر جلمير . وبهذا تحققت النبوءة التى طالما كان القرطاجيون يرددونها فى ألعابهم دون فهم لكنهها وهى :

G fugabit B

ac rursus B fugabit G

ومعناها أن ج (جيزريك) يهزم ب (بونيفاس الحاكم الرومانى لشمال أفريقيا) ، ثم تدور الأيام فيهزم ب (هذه المرة بلزاريوس) ج (هذه المرة جلمير) . ولقد

هرب القساوسة الأريوسيون ، بينما هلل الأكليروس الكاثوليك فرحاً لانتصار بلزاريوس على الڤندال ودقت أجراس الكنائس فى قرطاجة .

كان جلمير قد لجأ إلى حلفائه من الأفريقيين فى بوللا — ريجيا Bulla Regia فى نوميديا ، كما أنه استنجد بأخيه تزازو Tzazo الذى كان على رأس حملة فى سردينيا ، ثم قام بقطع القنوات التى كانت تحمل المياه إلى قرطاجة. ولكن بلزاريوس هجم عليه وأوقع به الهزيمة مرة أخرى . وقد قتل تزازو فى المعركة . فر جلمير مرة أخرى إلى پاپوا Pappua ليحتمى مع القبائل الأفريقية ، وسقطت هپو فى يد بلزاريوس الذى استولى على كنوزها . ثم أرسل بلزاريوس حملة ضد سردينيا وكورسيكا وجزر البليار ، كما سيطر على حصن سبتة فى أقصى الغرب . ودارت الدائرة على جلمير فسلم نفسه لبلزاريوس .

بعد وصول أنباء هذه الانتصارات إلى جستينيان استدعى بلزاريوس وأقام له موكب نصر هائل سار فيه جلمير أسيراً ذليلا ، ثم أضاف الإمبراطور إلى ألقابه لقب « قاهر الڤندال والأفريكان Vandalicus Africanus .

حقيقة أن الڤندال والقبائل الصحراوية فى شمال أفريقيا دبروا ثروة ضد حكم جستينيان ، ولكن بلزاريوس رجع إلى أفريقيا مرة أخرى ونجح فى قمع الثورة ، وبذلك دان الشمال الأفريقى للإمبراطورية الرومانية .

ولا يمكن أن نطوى صفحة الڤندال فى شمال أفريقيا دون أن نعرج على اثنين من عمد هذا العصر عاشا فى شمال أفريقيا وهما مارتيانوس كاپللا Martianus Capella والقديس أغسطينوس St. Augustine .

كان كاپللا مواطناً من مادورا جنوبى مدينة هپو — ريجيوس ، وقد تعلم فن الخطابة والقانون فى قرطاجة وقام بالتدريس فى مدارسها . وقد ألف كاپللا مقالة بعنوان « زواج الفيلولوجيا من الإله مركورى » De Nuptiis Philologiae et Mercurii فى وقت ما بين سقوط روما فى يد آلارك (٤١٠) وسقوط قرطاجة فى يد جيزريك (٤٣٩)[٧] . وحدد الكاتب فى هذه المقالة فروع الآداب بسبعة هى « عمد الحكمة » ،

(٧) Martianus Capella, De Nuptiis Philologiae et Mercurii (ed. A. Dick).

وفسر هذا فى حكاية طريفة ينم عنها عنوان المقالة نفسه : فلقد رغب الإله مركورى فى الزواج ولكن إلهة الحكمة رفضت الارتباط به وأعرضت عنه أيضاً إلهة الغيب وحتى إلهة الأرواح هى الأخرى لم ترحب به زوجاً . ولذا فقد نصحه الإله أپوللو بالزواج من الفيلولوغيا (اللغة) . تلك العذراء الحلوة من بنى البشر والتى سترفع بزواجها من مركورى إلى مصاف الآلهة . وقام بالإعداد لهذا الزفاف الميمون كل من الفضيلة والعقل والجمال . كما وهب أپوللو إلى هذه العروس الجميلة سبعا من العذارى يصطحبنها إلى عش الزوجية السعيد وهن : الأجرومية والديالكتيكا والنحو والهندسة والحساب والفلك والموسيقاى . وهنا تتحول قصة كاپللا إلى كتاب مدرسى ؛ إذ تقوم كل من هذه العذراوات بحديث طويل عن نفسها . وبعد أن تنتهى العذراء الموسيقى من حديثها العذب الطويل تقود العروس (الفيلولوغيا) إلى مخدع الزوجية !

والكتاب — على أية حال — ليس بذى قيمة كبيرة كما قد يتصور البعض ولكنه أصبح المرجع الأول للدراسة فى العصور الوسطى ، وقد ألف فلجنتيوس Fulgentius الأفريقى كتاباً على منواله . ويذكر جريجورى أسقف تور — مؤرخ الفرنجة المرموق — أن كتاب كاپللا كان متداولا فى مدارس غالة .

أما القديس أغسطينوس فهو عملاق العصور الوسطى الأكبر [٨] . ولد سنة ٣٥٤ فى تاجستا شرقى نوميديا (شرقى الجزائر اليوم) . وهو ابن لباتريكيوس ومونيكا وهما من الرومان الذين استوطنوا شمال أفريقيا : وفى عام ٣٦٦ تعلم الأجرومية فى مادورا ، وفى سنة ٣٧١ وصل إلى قرطاجة لتعلم فن الخطابة . وكانت قرطاجة وقتها مزدهرة عامرة تفيض خيرا ونعما "Splendidissima Carthago, alma et celsa Carthago" ويعترف أغسطينوس أنه قد فقد صفة الطهر فى تاجستا ، وبأنه أطلق للجسد العنان فى قرطاجة فطغت عليه الشهوة ، وهناك تعرف على حظية سرعان ما أنجبت له ابنا هو أديودات Adeodat الذى كان أغسطينوس يحبه من كل قلبه . وعرف أغسطينوس هرج المسرح وعنف المجالدين وجبروت المصارعين وجلادى السيرك . ووسط هذه الحياة

---

(٨) P.L., Vols. 32-47; H.I. Marrou, Saint Augustin et la fin de la culture antique; Bardye, G., Saint Augustin, l'Homme et L'Oeuvre.

المضطربة انكب أغسطينوس على كتب أرسطو وأفلاطون وفرجيل وشيشيرون وفارو ينهل منها العلم والحكمة . بعد هذا ترك الفتى قرطاجة وعاد إلى مسقط رأسه تاجستا . وقد كانت والدته مونيكا شديدة القلق والحسرة على ابنها الضال ، فتوسلت إلى قسيس المدينة ليرد ابنها إلى جادة الصواب والإيمان ، ولكن كلمات الكاهن لم تجد عند أغسطينوس آذانا صاغية .

ولقد تعلق أغسطينرس بالمانوية التى بشر نبيها مانى الفارسى (٢٤٠) بأنه هو رسول الحق وخليفة بوذا وزرادشت والمسيح . ونادى مانى بأن الباراقليط (الروح القدس) الذى وعد به المسيح قد تكشف له وأزاح له الستار عن الحقيقة كلها ماضيها وحاضرها ومستقبلها ، فغدا مانى بذلك — جسداً وروحاً — متلبسا بالباراقليط والباراقليط به فى آن واحد . والمانوية ليست من الوثنية فى شىء ، ولكنها أشبه ما تكون بالابن « اللقيط » للديانة المسيحية . وقد علم مانى بمبدأ الازدواج ، بوجود قوتين علويتين الواحدة للخير المطلق والأخرى للشر الكامل . ونادى مانى بشىء من الحياة النسكية والامتناع عن أكل بعض الأطعمة الدسمة وعن الزواج . وجماعة مانى طبقية : فهناك طبقة الخلصاء أو « المختارين » وهم الذين ينفذون التعاليم المانوية بحرفيتها ، وهناك طبقة « المستمعين » للتعاليم المانوية الذين يدربون النفس على أمل يوم الخلاص الذى يدخلون فيه إلى حظيرة الطبقة الخاصة .

ولقد استهوت تعاليم مانى الشاب أغسطينوس لأنه وجد فيها تفسيراً لمسائل عويصة طالما أقلقت باله وهى مسائل تختص بلغز الحياة ومصير البشرية وطبيعة الخير والشر . وظل أغسطينوس متمسكاً بالتعاليم المانوية لمدة تسع سنوات ، وبعدها انتابته موجة من الشك العارم فطلق مانى ومانويته . وفى سنة ٣٨٣ أتيحت له فرصة الأستاذية لكرسى الخطابة فى ميلان عاصمة الغرب ، فقبلها أغسطينوس . وفى ميلان تعرف أغسطينوس على أمبروز أسقف المدينة الجليل واستمع لمواعظه الحسنة[٩] .

---

(٩) أمبروز : ولد فى مدينة Trier حوالى عام ٣٣٤ وتوفى فى ميلان عام ٣٩٧ . كان ابنا لحاكم غالة البرايتورى ، ودرس القانون فى روما ثم عين فى عام ٣٧٠ حاكما لولاية اميليا — ليجوريا التى كانت ميلان عاصمة لها . وعندما خلا كرسى الأسقفية فى ميلان فى عام ٣٧٤ اختير له أمبروز استجابة لرغبة الشعب ،

ولكن أغسطينوس لم يقتنع بما استمع إليه من مواعظ واستهوته فى هذه المرحلة الأفلاطونية المحدثة التى كانت تبشر بسمو الروح على المادة ، وبأن الله هو الروح الأعلى ، وبأن الشر ليس بمخلوق كامل وإنما هو مخلوق ناقص أى أنه عنصر سلبي لا إيجاب فيه ؛ فهو انتفاء الخير وتضاده . ومن آراء الأفلاطونيين المحدثين أن قبس النور الإلهى (الروح) فى الإنسان سجين للمادة (الجسد) ، ولا يمكن تحرير الروح إلا بإذلال ، إن لم يكن تحطيم ، هذا الوعاء أو الجسد . ولا شك

مع أنه كان لايزال Catechumenus أى تحت التدريب على تعاليم المسيح ولم يعمد بعد . وكانت مهمته كأسقف لميلان غالة فى المسئولية ، لأن المدينة كانت وقتها العاصمة الإدارية للنصف الغربى للإمبراطورية مما عرضه لمشكلات سياسية خطيرة ، كما وأنه كان على الأسقف رعاية أفواج من الداخلين الجدد فى المسيحية . هذا إلى جانب تحرشات الوثنيين بالمسيحية ، ومضايقات العناصر الأريوسية المتبربرة للأرثوذكس . وامبروز هو الذى أقنع الامبراطور ڤالنتينيان الثانى بعدم إرجاع تمثال ربة الانتصار إلى السيناتو الرومانى . وعندما طلبت إليه الإمبراطورة الأم جستينا أن يسلم أحد المبانى للأريوسيين ليجعلوا منه كنيسة رفض الأسقف طلبها فى تحد و إصرار . وفى عام ٣٩٠ قامت ثورة فى سالونيكا وقتل المتمردون حاكمها الرومانى ، فأمر الإمبراطور ثيودوسيوس العظيم جنوده المرتزقة من القوط بذبح العديدين من أهالى المدينة انتقاماً لمقتل الحاكم . ولقد أثارت هذه الوحشية البالغة مشاعر القديس أمبروز فكتب إلى الإمبراطور يعنفه على فعلته الشائنة وأجبره أيضاً على إعلان التوبة والندم وراح يكفر عن جريمته بالطريقة التى أمره بها أمبروز . وذهبت صيحة أمبروز سابقة خطيرة يدلل بها رجال الكنيسة على سلطان « رجل الله » فوق « رجل العالم » . قال القديس : « إن الإمبراطور واحد من أبناء الكنيسة كالآخرين وهو ليس فوقها ولا عليها » . ويعد أمبروز واحداً من المعلمين الأربعة فى الكنيسة اللاتينية ، مع أغسطينوس وجيروم وجريجورى الأول العظيم . وأمبروز هو رجل المواعظ الحسنة الذى وجه رسالته لتبصير الشعب بروح التعاليم المسيحية وبطرق الحياة الصالحة .

وله مقولة فى الدوغما بعنوان De Mysteriis لتبصر الداخلين فى المسيحية بأسرارها ، ورسائله تكشف عن روح العصر الذى عاش فيه . وهو أول معلم فى الغرب أفاد جماعة المصلين بالترانيم والمدائح الإلهية لتفهم روح الدين وقواعده . وكان يظن إلى وقت قريب أن القديس أمبروز هو صاحب الـ Te Deum الشهيرة ، ولكن هذا خطأ ، وإن كان يظن أنه هو الذى كتب قانون الإيمان المنسوب إلى القديس آثاناسيوس الشهير باسم Quicumque vult salvus esse .

فى أن الفلسفة الأفلاطونية المحدثة قد قربت المسافة بين أغسطينوس والمسيحية(١٠).
وبعد أن توفيت خليلته الأولى – أم اديوداتوس الحبيب – اتخذ أغسطينوس له حظية أخرى ، ولكنه كان يرفض فكرة الزواج تماماً . وفجأة والرجل فى هذا الوحل واليأس والظلام استصرخه قبس الروح من الأعماق يناديه Tolle, Lege : وقام أغسطينوس من نومه المكدر يطالع قول القديس بولس الرسول :

« إنها الآن ساعة لنستيقظ من النوم : فإن خلاصنا الآن أقرب مما كان حين آمنا . قد تناهى الليل وتقارب ، فلنخلع أعمال الظلمة ونلبس أسلحة النور . لنسلك بلياقة كما فى النهار لا بالبطر والسكر ، لا بالمضاجع والعهر ، لا بالخصام والحسد ، بل ألبسوا الرب يسوع المسيح ولا تصنعوا تدبيراً للجسد لأجل الشهوات ».

ومن هذا الينبوع القدسى الحى ارتوى أغسطينوس وهتف الصيحة الأغسطينية الخالدة بأن « لا خلاص للبشر من أغلال عبوديتهم فى الإثم إلا بالنعمة الربانية

---

(١٠) Plotinus, The Six Enneads, trans. by Stephen Mackenna and B.S. Page, London, 1952, cols. 359-61 says On the Good — the One :

"The Soul in its nature loves God and longs to be at one with Him in the noble love of a daughter for a noble father; but coming to human birth and lured by the courtships of this sphere, she takes up with another love, a mortal, leaves her father and falls.

But one day coming to hate her shame, she puts away the evil of earth, once more seeks the father, and finds her peace...

There is thus a converse in virtue of which the essential man outgrows Being, becomes identical with the Transcendent of Being. The self thus lifted, we are in the likeness of the Supreme : if from that heightened self we pass still higher — image to archetype —we have won the Term of all our journeying. Fallen back again, we awaken the virtue within until we know ourselves all order once more; once more we are lightened of the burden and move by virtue towards Intellectual — Principle and through the Wisdom in That to the Supreme.

This is the life of gods and of the godlike and blessed among men, liberation from the alien that besets us here, a life taking no pleasure in the things of earth, the passing of Solitary to Solitary."

وحدها » . وآمن أغسطينوس بوحى هذه النعمة Gratia وعمده القديس أمبروز فى فصح عام ٣٨٧ وهو فى الثالثة والثلاثين من عمره .

وفى سنة ٣٨٨ بعد غياب خمسة أعوام فى إيطاليا عاد أغسطينوس إلى شمال أفريقيا ، وبعدها بثلاثة أعوام سيم قساً وطلب منه أسقف هيو « التبشير بكلمة الإنجيل » . وفى سنة ٣٩٥ اختير أغسطينوس أسقفاً لمدينة هيو وتبوأ بعدها زعامة الكنيسة الكاثوليكية فى الشمال الإفريقى . وفى عام ٣٩٧ بدأ أغسطينوس فى كتابة مؤلفه «عن العقيدة المسيحية» De Doctrina Christiana الذى انتهى من كتابته فى سنة ٤٢٦ . أما كتاب « مدينة الله » De Civitate Dei فقد بدأ فى كتابته سنة ٤١٣ وانتهى منه أيضاً فى سنة ٤٢٦ . ولقد ظهرت أجزاء « مدينة الله » الواحد تلو الآخر خلال ثلاثة عشر عاماً ، ولعل فى هذا ما يبرر ظاهرة التكرار الواضحة فى الكتاب وكذا عدم توافر خيط واضح يسير عليه المؤلف . وإلى جانب هذا أخرج أغسطينوس فى عام ٤٠٠ كتاباً آخر هو « الاعترافات » . وهنالك للكاتب القديس أيضاً « تعليقات » على سفر الخروج والمزامير وإنجيل يوحنا ، وله « مقولات » فى الزيجة الصالحة ومسألة « حرية الإرادة » والقدرية وطبيعة الثالوث وفى « النعمة » Gratia الربانية . ولم يعرف يراع أغسطينوس الملل فقد ظل يسجل خواطر وفلسفات صاحبه حتى أواخر أيام حياته فى أغسطس ٤٣٠ عندما فاضت روح القديس إلى ربها فى مدينة هيو عن ستة وسبعين عاماً . وبينما كان القديس يحتضر فى هيو كانت جماعات الفندال تحاصر المدينة ، التى صارت حاضرة لهم بعد سقوطها فى أيديهم .

لقد كان أغسطينوس شخصية فريدة متعددة المواهب ، له بصيرة نفاذة تغلغلت إلى عمق أعماق النفس البشرية ، ولعل أشهر عبارة أغسطينية أفاض فى الحديث عنها الدارسون والنقاد للتدليل على عمق تفكيره هى : Abyssus humanae conscientiae « أغوار الضمير الآدمى » التى تنم عن أن العمق الذى وصل إليه القديس فى تجربته الشخصية عمق فلسفى روحى ، كان يملك هو وحده « النعمة » الربانية للتعبير عن أسرارها فى صيغة كانت جديدة على الفكر الإنسانى برمته . واللاتينية التى كتب بها أغسطينوس لاتينية رصينة سحرت خيال كل أساتذة

العصور الوسطى ومعلميها[١١] : فبطرس أبيلارد فيلسوف القرن الثالث عشر عندما كان ينشد ألحانه الدينية العذبة كان يقتبس من نبع أغسطينوس فى مدينة الله[١٢] . وعندما يتسلق دانتى إلى الفردوس يسير على خطى القديس أغسطينوس .

وأغسطينوس هو رجل الإيمان ومثله فى ذلك « أؤمن لكى أتفهم »[١٣]. وهناك مملكة واحدة يعدها أغسطينوس لسائر المؤمنين هى « ملكوت السموات » التى يجلس على عرشها « الحق الأعلى » ملكا ، قانونها المحبة وحدودها — إن كانت هنالك — الأبدية . ولأغسطينوس تضرع يعرفه كل المصلين فى حرقة الإيمان :

Da quod jubes — et jube quod vis

* * *

كان السبب الأساسى الذى دفع أغسطينوس إلى كتابة « مدينة الله » تلك الصدمة التى هزت العالم عندما سقطت روما تحت أقدام القائد المتبربر آلارك فى سنة ٤١٠ . وتعجب الناس وظنوا أن نهاية العالم لابد قد اقتربت لأن روما العظيمة عاصمة الإمبراطورية ، حاملة رسالة السلام ، ينبوع القانون ، تلك المدينة التى لم

---

(١١) Confessiones, VIII, viii-xii: "Ego sub quadam fici arbore stravi me nescio quomodo et dimisi habenas lacrymis, et proruperunt flumina oculorum meorum, acceptabile sacrificium tuum. Et non quidem his verbis, sed in hac sententia multa dixit tibi: "Et tu, Domine, usquequo? Usquequo, Domine, irasceris in finem ? Ne memor fueris iniquitatum nostrarum antiquarum." Sentiebam enim eis ne teneri : jactabam voces miserabiles : "Quamdiu ? Quamidiu ? Cras et cras ? Quare non modo ? quare non hac hora finis turpitudinis meae ?"

Dicebam haec, et fiebam amarissima contritione cordis mei. Et ecce audio vocem de vicina domo cum cantu dicentis et crebro repetentis, quasi pueri an puellae, nescio: Tolle, lege; tolle lege. Statimque mutato vultu, intentissimus cogitare coepi utrum solerent pueri in aliquo genere ludendi cantitare tale aliquid; nec occurrebat omnino audivisse me uspiam..".

(١٢) O quanta qualia sunt illa Sabbata, quae semper celebrat superna curia, ..

(١٣) Immo credo ut intelligas.

: قارن هذا بشعار ديكارت : Cogito ergo sum . .

تتطاول عليها يد طيلة ألف عام قد طرحت تحت أقدام القوط المتبربرين . لقد سقطت روما غداة انتصار المسيحية ، وراح الوثنيون يذيعون بأن المسيحية هى المسئولة عن هذا الخراب الذى حل بروما . وطارت الأنباء المروعة إلى قرطاجة مع الهاربين من وجه البرابرة إلى الشمال الإفريقى وتعالت أصوات الغضب بأن الآلهة القدامى لابد قد أهينت من الإله الجديد للمسيحية ، فابتلت روما والرومان بالمتبربرين .

وكان على الآباء المسيحيين أن يردوا على هذه الاتهامات التى كان لها عند الكثيرين من المعاصرين ما يبررها من الدلائل المحسوسة . وكانت هذه هى المبررات الأولى التى حفزت أغسطينوس عند كتابة « مدينة الله » . ولكن كتاباً استغرق تأليفه ثلاثة عشر عاماً ، ويقع فى اثنين وعشرين جزءاً كان خليقاً — بالضرورة — أن يتجاوز حدود الهدف الذى من أجله قد ابتدأه صاحبه . فلقد ترك القديس أغسطينوس مهمة الرد على الوثنيين وتقديم تفسير تاريخى لما حل بروما من أقدار إلى صديقه أوروزيوس Orosius الراهب الإسبانى الذى وصل إلى مدينة هيو سنة ٤١٤ ، أى فى نفس العام الذى بدأ فيه القديس كتابة « مدينة الله » . وجاء الفصل الذى كتبه أوروزيوس بعنوان "Historia adversus paganos" ذيلا لكتاب « مدينة الله » .

لقد شرح القديس أغسطينوس خطة كتابه فقال إنه ينقسم إلى قسمين : الأول ويشمل الأجزاء العشرة الأولى وهو تفنيد لآراء الوثنية القائلة بأن سعادة البشر إنما تكمن فى الإبقاء على عبادة آلهة البانثيون ، وبأن إلغاء هذه العبادات على يد الإمبراطورين جراتيان وثيودوسيوس هو الذى جر الخراب والهوان على روما ؛ على يد الجرمان المتبربرين . ويبدع القديس فى حججه بعدم جدوى الآلهة الوثنية فى هذا العالم وبعجزها فى العالم الآخر .

وإذا كان أغسطينوس فى هذا القسم الأول من الكتاب قد أعمل معاول الهدم فى جماعة البانثيون الأوثان[١٤] ، فإنه فى القسم الثانى كان ولابد له أن يقدم شيئاً

---

(١٤) S. Augustini, De Civitate Dei, in P.L., Vol. 41, L. I., Cap. II, Cols. 15-16 : "Tot bella gesta onscripta esunt, vel ante conditam Romam, vel ab ejus exortu et imperio: legant, et proferant sic ab alienigenis aliquam captam esse civitatem, at hostes qui ceperant, parcerent

بناء أو إيجابياً . وبالفعل فإذا نجده هنا يعالج القيم التي تنطوى عليها العقيدة المسيحية فى أسلوب فلسفى رائع : فهو يتحدث عن أصـــل المدينتين ، مدينة الأرض ومدينة الله ، ثم يمضى ليناقش الهدف الذى يحدو كلا فى طريقها . وقد نقل القديس أغسطينوس عن الفلاسفة القدامى فكرة المراحل الأربع للمجتمع البشرى ، التى تبدأ بالأسرة Domus ، فدوياة المدينة Civitas من بعدها ، فالعالم Orbis terrae الذى يشمل المسكونة جمعاء والجنس البشرى برمته ، ثم تأتى فى النهاية مرحلة الكون Mundus الذى يضم الأرض والسموات ومجراتها والخالق وملائكته وأرواح الراحلين ومجتمع بشر هذه الأرض أيضاً . ومدينة الله — عند القديس أغسطينوس — ليست على شاكلة دوياة المدينة ، فهى أميل ما تكون اتجاهاً قبالة المجتمع الأكبر للكون . والحق أنه كان يحلو للمفكرين منذ القدم أن يقربوا مفهوم المجتمع الكونى Mundus للأذهان فأشاروا إليه — من باب المجاز — على أنه الدوياة المدينة Civitas . وكانت الحكمة فى هذا أن تضفى البشرية لمسات من الدفء والألفة — التى هى من صفات المدينة السياسية — على الكون ، عندما لاح لهم أنه برغم متاهاته يكون وحدة واحدة متكاملة ، ولعلهم فى هذا لم يريدوا أن يستشعروا غربة فى هذا المجتمع العملاق الذى تصوروا فيه الأرباب تحيا جنبا إلى جنب مع جنس البشر فى شركة واحدة أقرب ما تكون إلى فكرة « المواطنة » التقليدية . وكان الفلاسفة الكلبيون[١٥] Cynics والرواقيون قد مهدوا الطريق لهذه الفكرة بعينها ، فقد تحدثوا عن « المدينة العالمية أو الكونية» Cosmopolis وهى مدينة بلغ اتساعها حداً شمل فيه الكون برمته . ونجد هذا التعبير صريحاً فى « تأملات »

eis, quos ad deorum suorum templa confugisse compererant; aut aliquem ducem Barbarorum praecepisse, ut irrupto oppido nullus feriretur, qui in illo templo fuisset inventus.."

(١٥) الكلبيون : هم أتباع مدرسة فلسفية أسسها أنتيسثنيز Antisthenes — وهو تلميذ وصديق لسقراط — فى مدينة أثينا فى النصف الثانى من القرن الخامس ق . م . وأنتيسثنيز معلم أخلاق نادى بأن الطريق إلى السعادة يكمن فى الفضيلة وفى التحرر من الرغبات والشهوة . وكان البطل هرقل هو الأنموذج الأفضل فى فضيلة « التحمل » ومقابلة التحديات فى هذا العالم ، عند هذا الفيلسوف . وقد أسس مدرسته هذه فى الجمنازيوم (معهد التربية) بمدينة Cynosarges ومنها اشتق اسم هذه المدرسة . وهناك رأى آخر له وجاهته بأن اسم المدرسة قد اشتق من كنية «كيون Kuon أى الكلب » التى أطلقت على دايوجنيس رأس هذه المدرسة فى عهد لاحق .

ماركوس أوريليوس الإمبراطور الرومانى الرواقى الذى أشار إلى « الكون » على أنه « مدينة الله » : فعندما التفت الإمبراطور الفيلسوف إلى « هذه المدينة لكل المدائن » هتف قائلا : « كل ما يطيب لك ، أيها الكون ، يطيب لى . أنت الأول لكل شيء ، وكل شيء بك ومنك ثم هو إليك ... لقد صاح الشعراء قديماً : " أيتها المدينة الغالية آثينا " ولكنى أهتف الآن " أيتها الحلوة يا مدينة الله الحبيبة " »(١٦) .

من هذا يتضح أن عبارة « مدينة الله » كانت قد صادفت القديس أغسطينوس من قبل . وصورة هـــذه المدينة الإلهية صورة مزدوجة وقد رسمها لنا اثنان من أشهر الأعلام ، والغريب أن كليهما قد أتى من نفس الركن القصى فى شرق حوض البحر الأبيض ، ألا وهما پوزيدونيوس من آپاميا (القرن الأول للميلاد) وشاول الطرسوسى (القديس بولس الرسول) .

أما پوزيدونيوس فقد مزج فى فلسفته بين الرواقية والأفلاطونية وقدم للعالم فكرته عن الكون : فالفضاء الخارجى للكون المكون من الأثير — وهو صنو النقاوة — هو مكان حلول الله بل هو الله « الطهر المطلق » . وكلما بعدنا عن هذا الأثير النقى فى كليته تجاه الأرض قلت درجة النقاوة بسبب تداخل مكونات من مادة دونية ، وإذا ما ارتطمنا بالأرض (الدنيا) لمسنا وحل اللانقاوة أو الدنس . والذى يحدث عند وفاة البشر هو أن تفلت الروح — لأنها طاهرة — صعدا قبالة الأثير النقى لتكون فى رحاب الخالق . وعلى هذا فإن مسافة الفضاء الأول — بين الأرض والفضاء المطلق النقاوة — غاصة بهذه الأرواح التى تجاهد صعداً نحو الطهر المطلق . ولقد أتيح لپوزيدونيوس بفعل شفافيته الرواقية أن يستبصر الفلك الملتهبة ناراً التى تشير إلى مداخل هذا الكون والتى بعدها لا شيء "Flammantia moenia mundi" والحقيقة كلها تكمن داخل هذا الإطار المهول ، فى ذاك الغلاف من الأثير الجمرى ، المتماسك بعضه فى البعض بلحمة التعاطف بين مكوناته .

والرجل الثانى الذى رسم صورة لمدينة الله هو معلم المسيحية الأكبر بولس الرسول . وكان بولس يعرف أورشليم المقدسة ، سيدة المدائن ، حق المعرفة ،

---

(١٦) "O poli file Deos."

كما وأنه كان عميقاً فى تفهم الفلسفة اليونانية ، وإنك لتجد فى رسائله هنا وهناك لمحات رواقية فهو القائل : « ليس إنى أقول من جهة احتياج : فإنى قد تعلمت أن أكون مكتفياً بما أنا فيه — أطلب إليكم أنا الأسير فى الرب أن تسلكوا كما يحق للدعوة التى دعيتم بها ، بكل تواضع ووداعة وبطول أناة محتملين بعضكم بعضاً فى المحبة ، مجتهدين أن تحفظوا وحدانية الروح برباط السلام » . كذلك هام بولس الطرسوسى حباً « بملكوت السموات » التى أعدها الله للصالحين من العباد : « فإن سيرتنا نحن هى ملكوت السموات التى منها أيضا ننتظر مخلصاً هو الرب يسوع المسيح » . وهذه الملكوت أو المدينة السماوية لا تضم الصالحين الذين « رقدوا فى الرب » فحسب ، وإنما ينتمى إلى عضويتها أيضاً الأخيار من الأحياء على هذه الأرض . ومواطنو هذه المدينة — مدينة الله — شركاء فى عضوية هذه المملكة مع القديسين أنفسهم . وفى نفس الوقت فإن المؤمنين الأحياء على الأرض غرباء هذا العالم ، وهم على سفر فبالة النعيم الأزلى .

ومن هذا المفهوم انطلق فكر القديس أغسطينوس فى وصفه لمدينة الله . على أنه يجب أن نميز بين الصورة التى قدمها القديس بولس لهذه المدينة وبين تلك التى رسمها لها الرواقيون ويوزيدونيوس . فعند پوزيدونيوس لا توجد سوى مدينة واحدة تصل بين الأرض والسماء ، ولا يسمح فيها « للدونيات » أو « النواقص » (Stulti) إلا بمكان خفيض لا يرقى أبداً إلى مشارف الأثير الأعلى . على أن هذه المدينة — برغم هذا — تتسع لتحتوى الجنس البشرى جميعاً والأرواح وبعض الآلهة أيضاً .

أما القديس بولس فهو يميز بين مدينتين : السماوية والأرضية . ومن بولس الطرسوسى التقط أغسطينوس الفكرة ففرق بين Civitas Dei وبين Terrena Civitas . ومنذ البداية حدد أغسطينوس أن الذى يميز بين هاتين المدينتين هو « الصلاح » Justitia ؛ لأن مدينة الله وقف على « الصالحين » أحباب الراعى « الصالح » وليس فيها مكان للخراف الضالة . ومفهوم « الصلاح » هو حجر الزاوية الذى استندت عليه الفلسفة جميعاً طوال العصور الوسطى . وكلمة « الصلاح » فى اللاتينية هى Justitia ، وهى ترجمة رعناء للكلمة اليونانية Dikaiosone التى ابتدعها أفلاطون فى «جمهوريته» ،

والتى كان يعنى بها « الخير الأعم للجماعة البشرية كلها » . . ولكن اللسان اللاتينى نقل هذا المعنى إلى مجرد كلمة « الصلاح » ، وبذلك قُنّن المعنى الأخلاقى المجرد وصُبَّ فى كوادر قانونية . وكان القديس أغسطينوس — مثله فى هذا مثل القديس بولس — متأثراً بالأفلاطونية إلى حد كبير ، فلا بد وأنه قد قرأ حوار أفلاطون Politcia e peri Dikaiosones « حول الخير العام » أو « الصلاح » فى ترجمة لاتينية ، كما وأنه اطلع على تفسيرات الأفلاطونيين المحدثين لكتابات سيدهم الأكبر ، وهناك إشارات متعددة فى « مدينة الله » إلى أفلاطون ، فهو يقول فى الفصل الرابع من الكتاب الثامن : « من بين تلاميذ سقراط جميعاً هنالك واحد فقط فاق اسمه سيرة الآخرين ، ذلكم هو أفلاطون الذى بلغت معرفته حدود الكمال ، والذى تذوق الحكمة »(١٧) والحق أن فكر أغسطينوس أفلاطونى النزعة ، ولذا فليس مبالغة القول بأن فكر المسيحية اللاتينية على مدار العصور الوسطى كان أفلاطونياً من خلال معلم العصور الوسطى أغسطينوس . لقد حذر أغسطينوس من سراب العالم الفانى ومن ظل الشىء وحث البشرية على السعى حثيثاً قبالة الحق الأعلى والواقع الكامن فى الله ، وهذا ترديد لنظرية أفلاطون فى « الكهف » . كما وأن أفلاطون قد حدد معالم « المدينة الفاضلة » فى « جمهوريته » Respublica فأقامها على الحق والفضيلة ، فضيلة « الاستقامة » أو « الصلاح » ، ومن هنا يمكن أن نصفها « بمدينة الله » ؛ ذلك لأن أفلاطون ذاته قد وضعها « فى الأعالى .. فى السموات » .

والمدينة الفاضلة مثل أعلى ، أنموذج صعب المنال ، ولكن فى مقدور البشر وهم يحملقون فى بهائها أن يستثيروا غيرة ذواتهم فيمحوا عن مدائنهم رذائلها ويلبسوها حلو رداء مدينة الله ، حتى تضيق الهوة التى تفصل بين الصلاح وغير الصالحين ، وحتى يتأتى للصالحين من البشر العبور إلى طريق الله . وقد تحدث أفلاطون عن « مدينة العالم »

---

(١٧) De Civitate Dei, Cols. 227-28 :

"Sed inter discipulos Socratis, non quidem immerito, excellentissima gloria claruit, qui omnino caeteros obscuraret, Plato. Qui cum esset Atheniensis, honesto apud suos loco natus, et ingenio mirabili longe suos condiscipulos anteiret; parum tamen putans perficiende philosophiae sufficere se ipsum ac Socraticam disciplinam, quam longe lateque potuit peregrinatus est, quaquaversum cum alicujus nobilitate scientiae percipendiae fama repiebat."

المثقلة برذائلها ، وبجرائم الحروب وقتل الأخ لأخيه . ففى هذه المدينة الأرضية كما يقول أغسطينوس قتل قابيل أخاه هابيل واغتال روميلوس شقيقه ريموس (١٨) . ومرد العيب فى مدينة الأرض هذه أن كل واحد لم يؤد ما وكل إليه من واجب حيث هو (حرفياً فى محطته التى عين فيها) على الوجه السليم ، وإنما راح يتحرش بأماكن الآخرين وصلاحياتهم ، فاختل التوازن وسقط النظام وأطل القبح بوجه الفوضى الدميم ، وحكم المدينة . وتاهت فى هذه الفوضى الحكمة القائلة « الرجل الصالح فى المكان الصالح » (To autou prattein)

التقط القديس أغسطينوس هذه الفكرة من أفلاطون « ومسحها » أى ألبسها ثوباً مسيحياً : « فالصلاح » — عند أغسطينوس — يرقى إلى مكان علوى ، وهو لا يقتصر على العلاقات بين البشر وإنما يصبح « نظاماً » يحدد العلاقة المثلى بين البشر والرب . والصلاح يتأتى بالإيمان الذى يجلب على صاحبه . النعمة « gratia . ولا ينغص على هذا « النظام » إلا الإثم والآثمون ، ولكن حرارة الإيمان ستظل تطاردهم وتهددهم بلظاها الذى لا يبرد ولا يلين . ولفظة Ordo « النظام » لها مكانتها الخاصة فى « مدينة الله » ، فهى تطابق الاستقامة والقوامة والصلاح جميعاً :

Ordo est parium dispariumque rerum sua cuique loca tribuens dispositio.

---

(١٨) De Civitate Dei, L. Quintus Decimus, Cap. IV, V :

"Terrena porro civitas, quae sempiterna non erit (neque enim cum in extremo supplicio damnata fuerit, jam civitas erit), hic habet bonum suum, cujus societate laetatur, qualis esse de talibus rebus laetitia potest. Et quoniam non est tale bonum, ut nullas angustias faciat amatoribus suis, ideo civitas ista adversus se ipsam plerumque dividitur litigando, bellando, atque pugnando, et aut mortiferas, aut certe mortales victorias requirendo .. Primus itaque fuit terrenae civitas conditor fratricida : nam suum fratrem civem civitatis aeternae in hac terra peregrinantem invidentia victus occidit ..Sic enim condita est Roma, quando occisum Remum a fratre Romulo Romana testatur historia : nisi quod isti terrenae civitatis ambo cives erant.. Hi autem Fratres Cain et Abel non habebant ambo inter se similem rerum terrenarum cupiditatem; nec in hoc alter alteri invidit, quod ejus dominatus fieret angustior, qui alterum occidit, si ambo dominarentur (Abel quippe non quaerebat dominationem in ea civitate, quae condebatur a fratre) : sed invidentia illa diabolica, qua invident bonis mali, nulla alia causa, nisi quia illi boni sunt, illi mali...".

وهو فى هذا يقول : « أزيلوا الصلاح والاستقامة وحدثونى عما تبقى لكم فى دنياكم . إن المدينة ، والحال هذه ، لن تعدو أن تكون حفنة من اللصوص » . إن مدينة الله تقوم على عمد النظام والإيمان والاستقامة ، تلك العمد التى توثق الأمل فى ربط الصالحين على هذه الأرض بالله وملائكته والقديسين فى ملكوت السموات . وهذه المدينة ، برغم أنها مدينة الكون ، إلا أنها تلفظ عنها الذين سقطوا من الملائكة فغدوا أبالسة ، وهى لا تعرف الأرواح النجسة ولا معشر الأشرار (١٩) . ويخطئ من يظن أن هذه المدينة حيز محسوس ؛ فهى من غير المرئى وليس لها صنو من صنع يد البشر « لأنهم يصنعون بالإثم وفى غير استقامة » . وهى ليست بالكنيسة أيضاً ، فى الكنيسة أعضاء فاسدون ليسوا من « الصلاح » فى شىء . ويمضى القديس الفيلسوف فيضرب مثلا : « الشهوة أقامت مدينة ، والمحبة أرست أخرى . الأولى جاءت بنياناً لحب الذات وترجمة للبعد عن الله فهى أرضية أرضية ، والأخرى لبنانها محبة الإله وعمدها الارتفاع على الذات وهى علوية سماوية » .

ويخطئ من يعتقد أن القديس أغسطينوس قصد بالمدينة الأرضية الإمبراطورية الرومانية . كلا ثم كلا . فكما أن المدينة السماوية ليست هى بالكنيسة ، فإن المدينة الأرضية ليست بالشىء المحسوس الذى يمكن مطابقته بمدينة روما مثلا . ولكن مملكة الأرض هى تضاد المثل الأعلى أو انتفاؤه فهى مدينة « اللاصلاح » الذى يسود العالم كله لا روما فحسب . ولكن هذا لا يعنى أن الظلام قد أطبق تماماً إلى حد اليأس على هذه الأرض ، لأن عليها عناصر صلاح تكافح وهى تعبر « قنطرة الحج » قبالة المدينة الفاضلة ، ولذا فإن مواطنى المدينة السماوية يمدون يد العون والإلهام لتسديد خطى الصالحين وهم يصارعون الرذائل المتفشية من حولهم . ومن هنا فإن الدولة الأرضية

---

(١٩) De Civitate Dei, Liber Vigesimus, Cap. IX, Cols. 672-75 :

"Nam utique isto tempore in regno Dei eruditur scriba ille, qui profert de thesauro suo nova et vetera.. Et de Ecclesia collecturi sunt zizania messores illi, quae permisit cum tritico simul crescere usque ad messem : quod exponens ait, Messis est finis saeculi; messores autem Angeli sunt. Sicut ergo colliguntur zizania; et igni comburuntur; sic erit in consummatione saeculi : mittet Filius hominis Angelos suos, et colligent de regno ejue omnia scandala. Numquid de regno illo, ubi nulla sunt scandala ? ..".

ذات صلة بمدينة الله بفضل الأخيار القلة . سجناء العالم . ألم يقل المرتل صارخاً : « أطلق عبدك بسلام » .

والسؤال الذى يلح علينا الآن : هل قضى أغسطينوس بهذا على النظم السياسية والاجتماعية جميعاً بحكم الإعدام . لا . فالقديس يميز بين « الصلاح المطلق » « والصلاح النسبى » : فالمطلق هو اتصال الصالحين برب الصلاح الذى يحتويهم « بالنعمة » ، أما الصلاح النسبى فهو مجزوء لأنه صلاح يكيف نفسه مع طبيعة البشر الآثمة أصلا ، وهو أفضل ما فى الممكن ، الحسن من الدرجة الثانية . وهذا الصلاح النسبى ينسحب على الدولة كمؤسسة سياسية وعلى الحكومة كنظام اجتماعى وعلى الملكية كتقليد آدمى عتيد وعلى الرق كنظام اقتصادى لا مفر منه . وكل من هذه النظم ما هو إلا صورة من صور السيطرة dominium : فالدولة تمثل سيطرة الحاكم على المحكوم ، والملكية تمثل سيطرة المالك على ما يملك ، والرق يمثل سيطرة السيد على العبد . والمبرر الأوحد الذى يبرر بقاء هذه النظم هو أنها تقوم على صيغة ما تمت إلى الـ Ordo (النظام) بصلة : فالنظام فى وسط الفوضى الضاربة أمر خليق بأن يمتدح . وصلاحية أى من هذه النظم السابقة من عدمه تتحدد بمدى جهادها فى محاربة الإثم وسعيها لإحقاق الحق . ومن هنا فإنه بمقدور أى من هذه النظم الدنيوية أن يصل إلى حدود الصلاح النسبى . ولقد سمح الله سبحانه وتعالى — وهو العليم بطبائع الجشع والأنانية وحب التملك فى البشر — بالملكية الخاصة إلى حد ، ولكن النهم والتكالب ومحاولة ابتلاع ما للغير من قليل يمحو الصلاح النسبى ليطبق على المدينة ظلام الإثم المطلق . ولقد سمح الخالق بقيــام الدول « لعلاج الآفات البشرية وآثامها » Propter remedium peccatorum . وعلى هذا فإن الدولة أرقى شأناً من المدينة الأرضية الظالمة ، وهى تقف بين النقيضين : مدينة الله فى القمة ومدينة الأرض فى القاع . وعلى الدولة أن تتحلى بالسلام Pax لكى تقترب من فهم « سلام الله » ، وأن تتمسك بالإيمان لتتصل ألحانه إلى آذان السموات .

والسؤال الآخر هو : ماذا كان موقف القديس أغسطينوس من الكنيسة وأين هى من مدينة الله ؟ فى الواقع أنه فى الوقت الذى بدأ فيه القديس كتابة « المدينة » كانت الكنيسة فى الشرق (فى بيزنطة) قد اتخذت طريقاً مختلفاً عن مسار كنيسة الغرب فى

روما . ذلك أن كنيسة بيزنطة قد جعلت من نفسها « كنيسة دولة » تبجل الإمبراطور بل وتقدسه فرفعت قسطنطين إلى رتبة تلاميذ المسيح ، ومنحت خلفاءه حق الرياسة على هذه الكنيسة . ولكن كنيسة روما ظلت مستقلة عن مخالب العلمانية وأمراء هذا العالم ، بل وظهر من بين أبنائها من تصدوا للجالس على العرش يعنفونه ويأمرونه باتباع قواعد « الصلاح » ، مثلما فعل القديس أمبروز مع الإمبراطور ثيودوسيوس العظيم . هذا فى حين أن البابا كان قد تحين الفرصة بعد أن تقهقر الإمبراطور الغربى إلى مدينة رافنا وراح يحملق فى العباءة الأرجوانية الإمبراطورية ليخلعها على ذاته .

ويميل غالبية الدارسين لمدينة الله إلى الاعتقاد بأن القديس أغسطينوس قد قصد « بمدينته » كنيسة روما بالذات . فهو بهذا الرائد الأول الذى أرسى قواعد النظرية البابوية على مدار العصور الوسطى . وليس من الصعب أن نجد فى البابوية وكنيسة روما فى العصور الوسطى تجسيداً لما قاله أغسطينوس عن الـ Gloriosissima Civitas Dei ؛ ذلك لأن الكنيسة — على أية حال — قامت على عمد « الصلاح » Justitia والتقى وفق « ناموس الإنجيل » Lex Evangelica[٢٠] . أو لم يصرخ هلدبراند (البابا جريجورى السابع) فى أخريات أيام حياته — بعد أن غلبه شر هنرى الرابع ملك الألمان — يردد نفس العبارة الأغسطينية : "Dilexi Justitiam" : « لقد أحببت الحق والصلاح وحسبى

---

(٢٠) De Civitate Dei, Liber Vigesimus, Cap. IX, Cols. 673-74 :

"Ergo Ecclesia et nunc est regnum Christi, regnumque coelorum. Regnant itaque cum illo etiam nunc sancti ejus, aliter quidem, quam tunc regnabunt : nec tamen cum illo regnant zizania, quamvis in Ecclesia cum tritico crescant. Regnant enim cum illo qui faciunt quod Apostolus ait, Si resurrexistis cum Christo, quae sursum sunt sapite, ubi Christus est in dextera Dei sedens, quae sursum quaerite, non quae super terram .. Judicium autem datum nullum melius accipiendum videtur, quem id quod dictum est, Quae ligaveritis in terra, ligata erunt et in coelo; et quae solveritis in terra, soluta erunt et in coelo .. Regnant itaque cum Christo nunc primum Ecclesia in vivis et mortuis. Praeterea enim, sicut dicit Apostolus, mortuus est Christus, ut et vivorum et mortuorum dominetur. Sed ideo tantummodo martyrum animas commemoravit, quia ipsi praecipue regnant mortui, qui ueque ad mortem pro veritate certaverunt. Sed a parte totum etiam caeteros mortuos intelligimus pertinentes ad Ecclesiam, quod est regnum Christi..".

هذا » . وهذا يجرنا إلى البحث عن مفهوم « الكنيسة » عند أغسطينوس : كان القديس يؤمن إيماناً قاطعاً بالكنيسة الواحدة الوحيدة الرسولية المسكونية « العالمية » فشبهها بالقمر . وإلى جانب هذا خص بعض الكنائس بالفضل فوصفهـا بالنجوم "Particulatim per loca singula Ecclcsiae" . ومرد الفضل لهذه الكنائس الخاصة هو « رسوليتها » أى أنها قد تأسست على أيدى رسل المسيح أنفسهم . وعلى رأس هذه الكنائس كنيسة روما التى أسسها أمير الحواريين بطرس الرسول ، الذى قال له المسيح : « أنت بطرس وعلى هذه الصخرة أبنى كنيستى » .

وهذه الكنائس أو « الحواس الخمس » هى التى تؤلف فى النهاية الكنيسة المسكونية التى تلتئم عند الحاجة فى المجامع المسكونية . وهى بحرارة الإيمان المتقد فى مجامرها الذهبية خليقة بأن تبتلع الانحراف وتذيبه ؛ وهى أشبه ما تكون هنا « بفلك » سيدنا نوح الذى اصطفاه الله لخلاص العالم من الطوفان ، فهى الوسيط الأوحد بين الله والخلائق . وفى هذه النقطة بالذات يبدو أن أغسطينوس قد قرب المسافة بين « مدينة الله » وبين « الكنيسة المسكونية » ، ولكنـه لم يطابقهما تماماً .

والكنيسة هى مجتمع « حجاج » الأرض على درب « مدينة الله » ، ولكنها فى مسيرتها وثيقة الصلة بالدولة وبنظمها فهى لا تستطيع ولا يمكن لها أن تخلع نفسها عن النظم الأرضية . وهى إذ تدين بالصلاح المطلق يحسن بها فى نفس الوقت أن تقر الصلاح النسبى .

وأغسطينوس واضح فى تغليبه — فى الفضل — الكنيسة على الدولة ، فهو يلقى بثقله وراء « كاهن الله » Vicarius Christi وينحاز إلى جانب رداء الكهنوت على العباءة الأرجوانية ، ومن هنا كانت أولوية الـ Sacerdotium على الـ Regnum . ولقد اتخذ الحزب البابوى فى صراعه مع الإمبراطورية حجة أغسطينوس هذه سلاحاً قوياً يدللون به على مزاعمهم . هكذا وقفت « مدينة الله » كمؤلف عملاق على مفترق الطرق ، بين القديم الوثنى والجديد المسيحى ، وهى تمهد الطريق للجديد على أنقاض القديم المتساقط .

وبرغم إعجاب أغسطينوس بأفلاطون وتأثره به فى بعض النواحى ، إلا أنه فى

كتابه « مدينة الله » انتقد الفلسفة الأفلاطونية والأكاديمية الأثينية على إطلاقها . والخلاف بين أغسطينوس والفلاسفة القدامى يتضح إذا ما أدركنا أن الفلسفة الوثنية لم تهتم إلا بالسعادة فى هذا العالم ، فى حين أن أغسطينوس كان يحدث عن السعادة الأبدية والغبطة فى الفردوس وملكوت السموات[٢١] . والخير المطلق عند أغسطينوس هو فى الحياة الأبدية ، ومن أجل تحصيل هذا الخير يجب التغلب على ضده ، ولا يتأتى هذا إلا بأن يحيا المرء حياة فاضلة . ولقد تناول القديس الفضائل الأربع عند الفلاسفة القدامى — وهى الاتزان والتعقل والعدل والتحمل — ففنّدها جميعاً ، مبيناً أنها فضائل مائتة ما لم يشفعها ويعضدها « الإيمان » والأمل فى الحياة الأبدية والنعيم الأزلى : إنها فضائل مهددة « بالإجهاض » لأنها تخلو من نعمة الغبطة . ويضرب أغسطينوس مثلا بفضيلة « التحمل » عند الرواقيين ، الذين يعافون الحياة ويزهدونها تقشفاً دون أن يكون لهم قصد واضح اللهم إلا التلذذ فى هذا العذاب . لقد أطلق أغسطينوس على الفضيلة التى من هذا القبيل اسم « رذيلة الانتحار » لأنها تخلو من عنصر السعادة . كما حمل أغسطينوس على فكرة « المجتمع السعيد » عند الفلاسفة القدامى ، وتساءل كيف تكون هنالك سعادة وسط تلك الحروب الضارية بين مدينة وأخرى ، وناهيك عن ويلات الحروب الأهلية . ومع أن القديس أغسطينوس قد اعترف بأن بعض المدن قد تكره أحياناً على الحروب للدفاع عن كيانها ، إلا أنه رأى فى هذه الحروب — برغم هذا — نوعاً من الكارثة البشرية فأسماها « الضرورة القاسية » .

---

(٢١) De Civitate Dei, Liber Vigesimus Secundus, Cap. XXX, Cols. 801-2 :

"Quanta erit illa felicitas, ubi nullum erit malum, nullum latebit bonum, vacabitur Dei laudibus, qui erit omnia in omnibus ! — Admoneor etiam sancto Cantico, ubi lego, vel audio, Beati qui habitant in domo tua, Domine, in saecula saeculorum laudabunte. Omnia membra et viscera incorruptibilis corporis, quae nunc videmus per usus necessitatis varios distributa, quoniam tunc non erit ipsa necessitas, sed plena, certa, secura, sempiterna felicitas, proficient in laudibus Dei ..".

والسلام عند أغسطينوس هو الخير كله ، فهو سعادة الكل دون استثناء فى ظل « المحبة » الإلهية والعدالة . والسلام توأم النظام ، وبهما تكتمل طبيعة الأمور . ويرى أغسطينوس أن محاولات البشر لهدم هذا النظام « الطبعى » القائم على السلام إنما هى محاولات عابثة لأن الطبيعة لابد وأن تسود وتعيد الأمور إلى أصلها الأول : فالأجساد تموت وتتحلل وتتحول إلى التراب والهواء ، وهى بهذا تعود إلى أصلها الأول ، إلى حالة من النظام الأصلى ، حالة السلام . ويعدد أغسطينوس مراحل وأشكال هذا السلام ؛ فهناك سلام الجسد ، وسلام الروح ، ثم سلام عند اندماج الجسد بالروح ، وهناك سلام بين الله والمخلوق يتم بنعمة الإيمان ، وهناك سلام بين الإنسان والإنسان يتم بالتوافق المقنن ، ثم هناك سلام الدول الذى تحكمه القوانين العامة . على أن السلام الحقيقى وغاية المطاف هو السلام الكائن فى مدينة الله الذى تعمر به قلوب الخلصاء الذين يعاينون الحق والصلاح . وأما الذين لا ينعمون بهذه النعمة فهذه مسئوليتهم ؛ لأنهم يعصفون بقانون النظام والسلام .

ولما كانت الخليقة كلها من صنع يد الله الخيرة ، فلسوف يأتى اليوم الذى يعود فيه « الخارجون » إلى دائرة النظام والسلام : ذلك أن الخير الأول سوف يحتوى سائر الشرور والأسقام البشرية[٢٢] .

* * *

(٢٢) فى الواقع أن هذه الفكرة قد أخذها أغسطينوس عن الأفلاطونيين المحدثين Neo-Platonists ، فقد قال بها كل من كلمنت السكندرى وأوريجين وجريجورى من نيسا . والرأى عند هؤلاء أن شر البشرية عرض لأن الإثم ليس له جوهر إيجابى وإنما هو تضاد الخير الأصل أو انتفاؤه ، وعقاب الشر ليس بالردع ، وإنما عقاب الشر شره فهو يحمل معه بذور سقوطه النهائى . حقيقة أن آدم قد سقط فى جنة عدن وأحس بعريه وبثقل سقطته واختطف لنفسه قضية الموت ، ولكن الرحمة العلوية أعدت له سبيلا للخلاص فلم تتركه لضالته ، و « تجسدت الكلمة وصارت لحما » فى صورة البشر ليعيد الخالق لمخلوقه الصورة الأولى وليفديها بالدم الزكى . وهكذا صار الإنسان يمر بمراحل أربع : موت الجسد ، وقيامة الموتى ، وتحول الجسد إلى روح ، ثم ذوبان طبيعة البشر التى هى من يد الخالق أصلا فى الخالق ذاته — أى العودة إلى العلة الأولى .

مدينة الله هى فلسفة الإشراق الذى بدد به أغسطينوس فلسفة الظلمات . لقد انكب البابا جريجورى العظيم على دراسة هذا المؤلف الساحر ، وهام حبًّا بهذه « المدينة » شارل العظيم الذى كان يعتقد أنه مؤسس مدينة الله على الأرض . وتغنى أبيلارد بأناشيد استقاها من بحور المدينة الأغسطينية . وعندما تسلق دانتى العظيم السلم إلى الفردوس خطا على نفس الدرجات التى صعد عليها القديس أغسطينوس(٢٣) .

(٢٣) In tutte parti impera, e quivi regge, Quivi è la sua città e l'alto seggio :
O felice colui cui ivi elegge !

(L'Inferno Di Dante).

٨ – القوط الغربيون فى إسبانيا

مع أن مملكة القوط الغربيين قد سبقت فى قيامها مملكتى القوط الشرقيين والفندال إلا أنها صمدت أكثر منهما ، فهى قد تأسست فى عام ٤٦٦ وقد استمرت حتى عام ٧١١ . ولم ينقذ إيطاليا من أيدى القوط الغربيين سوى موت آلارك .

والمجتمع القوطى الغربى شبيه بمجتمع القوط الشرقيين ومجتمع الفندال واللومبارد ، فى حين أن هذه المجتمعات جميعاً تختلف عن المجتمع الفرنجى والأنجلو سكسونى .

كان القوط الغربيون قد وصلوا غالة تحت قيادة أتولف ، واتخذوا من تولوز عاصمة لهم سنة ٤١٢ . على أن الرومان ظلوا محتفظين بشمال غالة ، فعندما اغتال الأمير يوريك Euric شقيقه ثيودوريك الثانى سنة ٤١٦ كان الحاكم الرومانى سياجريوس Syagrius يسيطر على سواسون . وكان يوريك يخطط لإرساء مملكة مستقلة تماماً عن النفوذ الرومانى : وفى سنة ٤٦٩ شن حملة على أواسط فرنسا وهاجم مدينة كليرمونت ذاتها . ثم أنزل هزيمة بالأسطول الرومانى الذى كان تحت إمرة بازيليسكوس Basiliscus ، وفى سنة ٤٧٠ استولى على مدينة بورج . بعد هذا شن يوريك عدة حملات ضد إقليم أوڤرن Auvergne ولكن أكدكيوس Ecdicius وسيدونيوس أبوللينارس قاما بالدفاع عن إقليميهما هذا دفاعاً مجيداً . على أنه فى سنة ٤٧٥ عندما هدد القوط الشرقيون شمال إيطاليا التفت جوليوس نپوس الإمبراطور الغربى إلى يوريك يطلب منه العون، وتنازل له عن إقليم أوڤرن . ثم اعترف الإمبراطور بفتوحات يوريك فى إسبانيا وجنوبى غالة حتى نهر الرون ، وكذا بفتوحاته فى أواسط غالة حتى نهر اللوار .

وفى سنة ٤٧٦ قاد يوريك جيشه وزحف على شمال إيطاليا ليتحرش بادواكر الزعيم الجرمانى ، ومع أنه لم يجرؤ على الاعتراض على عزل أدواكر لروميلوس أغسطيولوس ، إلا أنه أوقع أدواكر فى حرج بالغ . وقد كافأه الإمبراطور زينون على موقفه هذا بأن عقد معه معاهدة سلمه بمقتضاها المنطقة الواقعة بين نهر الرون وجبال الألب .

جلبت هذه الانتصارات المتتابعة شهرة واسعة ليوريك ، وتوافدت السفارات على عاصمته تولوز من قبل قوط إيطاليا وزعماء القبائل الجرمانية الأخرى ومن بلاد فارس تطلب محالفته ومعونته العسكرية . كذلك قام يوريك بنشر مجموعة من القوانين الرومانية لخدمة ولايات مملكته ، وأبقى على النظم الرومانية القديمة فى البلاد .

مات يوريك سنة ٤٨٤ فى مدينة آرلس Arles وخلفه ابنه آلارك الثانى الذى كان معاصراً لكلوفس ملك الفرنجة . ولقد أظهر آلارك قصراً فى تفهم الظروف السياسية المحيطة بمملكته : ففى سنة ٤٨٦ بعد أن هزم كلوفس الحاكم الرومانى فى سواسون وهو سياجريوس ، هرب الأخير إلى بلاط آلارك يطلب العون ضد كلوفس ، ولكن آلارك تخلى عنه تماماً فأتاح بذلك الفرصة لكلوفس لأن يضم سواسون إلى مملكته . بل إن الضربة الثانية القوية التى وجهها كلوفس للقوط كانت اعتناقه للكاثوليكية ، الأمر الذى أكسبه عطف سكان ولايات غالة جميعاً . وأمام هذا اضطر آلارك إلى أن يغير موقفه من الكاثوليك فأبدى تسامحاً معهم ، ثم إنه أصدر فى عام ٥٠٦ مقننة موجزة للقانون الرومانى بعنوان Breviarium Alarici لخدمة الولايات الرومانية فى غالة .

عقد كلوفس حلفاً مع البرجنديين ضد القوط الغربيين ، واتفق مع الإمبراطور أناستاسيوس على طردهم من غالة . وفى سنة ٥٠٧ قام البرجنديون بغزو أوفرن Auvergne ، فى حـــين أن كلوفس عبر اللوار وزحف على بواتييه . وفى واقعة Campus Vogladensis حلت الهزيمة بالقوط وقتل ملكهم آلارك الثانى . ثم التحمت قوات الحلفاء واستولت على تولوز العاصمة القوطية ومعها الكنز الهائل الذى كان آلارك الأكبر قد اغتنمه من روما فى عام ٤١٠ . بعد هذا استولى كلوفس على كل من أنجوليم Angouleme وسينيت Saintes وبوردو Bordeaux وتور Tours ، وفى الوقت نفسه قام ثيودوريك ابنه الأكبر بتخريب ونهب المناطق الزراعية فى المملكة القوطية .

خلف آلارك الثانى ابنه آمالارك تحت وصاية وحماية الكونت ثيودس Theudis . وتزوج آمالارك من إحدى بنات كلوفس الفرنجى ، ولكنه طلب منها نبذ الكاثوليكية واعتناق المذهب الأريوسى ، ولما رفضت الاستجابة لمطلبه راح يسىء معاملتها . ولهذا

فإن شقيقها كلدبرت ملك باريس أغار فى عام ٥٣١ على سبتمانيا وهى الولاية الوحيدة التى بقيت من غالة فى يد القوط ؛ ثم استولى على عاصمتهم الجديدة ناربون . وحرر كلدبرت شقيقته من طغيان زوجها واستولى على كنوز القصر الملكى أيضاً . وقد فر آمالارك إلى برشلونة عن طريق البحر ، وما إن وصلها حتى قام نفر من أتباعه باغتياله . وبموت أمالارك انقرض فرع آل بالت Balt من الأسرة الحاكمة للقوط الغربيين .

اختير الكونت ثيودس ملكاً فى عام ٥٣١ ودام حكمه عشرين عاماً . وفى عهد ثيودس هذا انتقل سلطان القوط الغربيين إلى إسبانيا واتخذ الملك برشلونة عاصمة له . وفى سنة ٥٤١ نجح ثيودس فى صد هجوم شنه على سراجوسا الملكان الفرنجيان الأخوان كلدبرت ولوثير . واستولى ثيودس فى عام ٥٤٣ على حصن سبتة من أيدى السلطات الرومانية ، ولكنه لم يتمكن من المحافظة عليه وتوفى ثيودس فى سنة ٥٤٨ فى إشبيلية ، فخلفه ثيودجيزل الذى اغتيل فى نفس العام .

اعتلى عرش القوط الغربيين بعد ذلك الملك أجيلا (٥٤٨ — ٥٥٤) الذى ركز اهتمامه على إسبانيا وصرف النظر كلية عن غالة . وللتدليل على سياسته الجديدة نقل عاصمته إلى مريدا على نهر جواديانا (الوادى اليانع) ، ثم راح يتحرش بولاية بايتكا (الأندلس) Baetica . ولكن الكاثوليك من الأهلين ثاروا ضده وأوقعوا به هزيمة عند قرطبة ، كما قتلوا ابنه فى ميدان القتال . ولقد اتبع آجيلا سياسة متزمتة مع الكاثوليك ، كما وأنه جرد الكثيرين من نبلاء الأندلس من استقلالهم الذاتى الذى كانوا يتمتعون به . وقد جلبت هذه السياسة على آجيلا مشاكل عديدة ، لعل أهمها ظهور منافس له هو آثاناجلد Athanagild الذى راح يتآمر ضده ويطلب معونة عسكرية من الإمبراطور جستينيان للتمرد عليه . وفى سنة ٥٥٠ أرسل الإمبراطور أسطولا بقيادة لبريوس لتأييد آثاناجلد ، الذى تمكن بهذا من إيقاع الهزيمة بالملك آجيلا سنة ٥٥٤ عند إشبيلية . ثم جلس آثاناجلد على العرش (٥٥٤ — ٥٦٧) .

كان الثمن الذى دفعه آثاناجلد للإمبراطور البيزنطى مقابل المساعدة التى تلقاها باهظة للغاية : فقد تنازل له عن بايتيكا وجزء من قرطاجينينا وملقا وقرطاجينة

وقرطبة وإشبيلية . كذلك عين الحاكم البيزنطى حاكماً عسكرياً للإشراف على هذه الممتلكات الإسبانية بلقب Magister militum Spaniae . بعد هذا نقل آثاناجلد عاصمته إلى طليطلة فى وسط إسبانيا ، مما سهل على رجاله التغلغل فى شتى أرجاء شبه الجزيرة الأيبيرية . ولقد شن آثاناجلد حملة على قبائل الباسك ونجح فى دفعهم شمالا إلى نڤارو ، وتمكن أيضاً من صد تحرشات الفرنجة بإقليم سبتمانيا . اكتسب آثاناجلد شهرة واسعة ، وكان بلاطه فى طليطلة مزدهراً ، وتوافدت عليه السفارات تطلب صداقته . ولقد طلب ملكا الفرنجة سيجبرت صاحب استرازيا وكلبرك صاحب باريس الزواج من ابنتى العاهل القوطى . وقد جرت هاتان الأميرتان القوطيتان برونهلدة وجولزونثا شقاقاً وخراباً على البيت الفرنجى المالك .

بعد وفاة آثاناجلد خلفه على العرش أخواه ليوفا وليوفيجلد : الأول حكم من سنة ٥٦٨ إلى سنة ٥٧٢ ، والثانى ظل يحكم من ٥٦٨ إلى ٥٨٦ . وكان ليوڤيجلد يسعى لحكم شبه الجزيرة الإيبيرية كلها دون أن يأخذ فى الاعتبار مصالح بيزنطة فيها . وقد أضفى على بلاطه ملامح بلاط الأباطرة ، كما سك عملة ذهبية باسمه . وفى سنة ٥٧٢ استولى على أسيدونيا وقرطبة من أيدى البيزنطيين . ثم هجم على ثيودمير ملك السويف فى غاليسيا ، الذى كان قد تحالف مع قبائل كانتابرى فى مناطق الجبال جنوبى خليج بسكاى ، ونجح ليوڤيجلد فى الاستيلاء على مدينتى ليون وزاجورا من أعدائه هؤلاء . . ولمقابلة تحرشات الفرنجة منح أحد أبنائه ولاية سبتمانيا ليتفرغ للدفاع عنها . ولما تآمر ضده نبلاء قرطبة وطليطلة صادر أملاكهم وضمها للتاج ، ثم عين ابناً آخر من أبنائه حاكماً لدوقية طليطلة .

كانت سياسة ليوڤيجلد تقوم أساساً على الحرب والقوة ، من أجل إخضاع كل شبه الجزيرة للتاج . ولكن الخلافات المذهبية والانقسامات التى ظهرت بين أفراد البيت المالك حالت دون تحقيق هذا الغرض . فلم تكن سياسة الملك تجاه رعاياه الكاثوليك واضحة المعالم : فهو تارة يضطهد أساقفتهم وأخرى يتودد إليهم . وكان ليوڤيجلد قد زوج أكبر أبنائه، من زوجته البيزنطية، من أنجوندز ابنة الأميرة الإسبانية برونهلدة من زوجها الفرنجى سيجبرت . ولقد حاولت أرملة الملك آثاناجلد حمل أنجوندز على اعتناق المذهب الأريوسى ، ولكنها رفضت ، ولذا أرسل ليوڤيجلد

ابنه هرمينجلد وزوجه إلى أشبيلية . وفى أشبيلية تعرف هرمينجلد على لياندر Leander أسقف المدينة الكاثوليكى الذى اشتهر بعلمه وفنه ، والذى أقنع هرمينجلد باعتناق المذهب الكاثوليكى . وهلل أهل الأندلس فرحاً بهذا التحول . ولكن ليوڤيجلد فزع من هذه الأنباء وأرسل إلى ابنه يحذره من عاقبة هذه الخطوة ، ولكن هرمينجلد تمرد ضد أبيه وفتح باب المفاوضات مع ملك السويف الكاثوليكى ومع الإمبراطور البيزنطى .

دعا الملك العجوز الأساقفة الكاثوليك إلى مجلس عقده فى طليطلة ، سنة ٥٨٠ ، وعرض عليهم كافة أملاكهم التى انتزعت منهم إن هم اعتنقوا الأريوسية ، ورغبهم فى ذلك بإعلانه أنه لن يجبرهم على العماد مرة ثانية . وقد قبل البعض عرض الملك ، ولكن الغالبية أحجمت وتمسكت بكاثوليكيتها . واضطهد الملك هذا الفريق الأخير اضطهاداً شديداً فصادر أملاكهم وأعدم عدداً منهم .

بعد هذا شن ليوڤيجلد عدة حملات ضد السويف والباسك ، وقام بتأسيس مدينة ڤيتوريا لصد هجماتهم . وجرد حملة أخرى فى عام ٥٨٣ ضد السويف ، ثم ألحق هزيمة بالبيزنطيين فى نفس العام . ولما رأى هرمينجلد أن حلفاءه قد هزموا الواحد بعد الآخر ، تقهقر بقواته إلى حدود نهر الوادى الكبير وأشبيلية . ثم سقطت أشبيلية فى يد ليوڤيجلد بعد حصار دام عامين ، وقام بنفى ابنه هرمينجلد إلى بلدة تاراجونا ، حيث عرض عليه العودة إلى المذهب الأريوسى ولما رفض أمر بقتله (٥٨٥) . واستولى ليوڤيجلد كذلك على بورتو وبراجا من السويف وبعد وفاة مير Mir ملك السويف ضم مملكته إلى التاج القوطى .

ولكن الفرنجة راحوا يعدون العدة للانتقام من ليوڤيجلد : فلقد رأوا فى هرمينجلد شهيداً من شهداء الكاثوليكية ، كما وأنهم لم يغفروا للملك القوطى نفيه للأميرة الفرنجية إنجوندز إلى شمال أفريقيا حيث ماتت لاجئة هنالك . عقد الملك الفرنجى كلدبرت الثانى حلفاً مع جونترام ملك برجنديا ضد القوط ، ثم أرسل أسطولا لمساعدة السويف فى الثورة ضد ليوڤيجلد . وقام البرجنديون بغزو سبتمانيا فتصدى لهم ريكارد Recared ابن الملك ، الذى نجح أيضاً فى الاستيلاء على أسطول الفرنجة . وفى سنة ٥٨٦ توفى ليوڤيجلد وخلفه على عرش إسبانيا ابنه ريكارد ، الذى أسس مدينة حملت اسمه

هى ريكوبولس فى الكاريا Alcaria .

ولعل أهم حـــدث وقع فى عهد ريكارد (٥٨٦ – ٦٠١) هو اعتناق الأمة القوطية الإسبانية ومليكها المذهب الكاثوليكى وذلك فى سنة ٥٨٧ . ويرجع الفضل فى هذا إلى جهود الأسقف لياندر الذى كان قد شجع هرمينجلد على دخول الكاثوليكية ، ثم هرب إلى القسطنطينية من وجه ليوفيجلد . وفى بيزنطة التقى لياندر مع القاصد الرسولى (apocrysarius) جريجورى (البابا جريجورى الأول العظيم فيما بعد) . وكان الاثنان يجيدان اللسان اليونانى ، وسرعان ما توطدت صداقة متينة بين هذين الراهبين المرموقين . وقد ظل لياندر فى القسطنطينية من ٥٨١ إلى ٥٨٦ ، وعندما وصلته أنباء اعتلاء ريكارد العرش أسرع بالعودة إلى إسبانيا ، ولحق به مازونا Masona أسقف مريدا الذى كان هو أيضاً فى المنفى . وبعد اعتلاء ريكارد العرش بشهور عشرة قام بتدشين كاتدرائية طليطلة وفق الطقوس الكاثوليكية وذلك فى ١٣ أبريل سنة ٥٨٧ . واعتنق الكثير من الأساقفة الأريوسيين المذهب الكاثوليكى ثم قام جاثوليقوس (Katholikos) طليطلة بمسح ريكارد بالزيت المقدس فى حفل تتويجه ملكاً ، تمشياً مع التقاليد البيزنطية .

وفى سنة ٥٨٩ انعقد المجمع فى طليطلة وحضره اثنان وستون من الأساقفة وخمسة من رؤساء الأساقفة ، ورأس الملك ريكارد المجلس ، وكانت الملكة وسائر نبلاء الدولة من بين الحضور . وبعد مناقشات طويلة أعلن المجمع قراره بإدانة الأريوسية ونبذ تعاليمها ، ثم سجلت أسماء الأساقفة الأريوسيين الذين دخلوا الكاثوليكية ، وقرر المجلس قبول قرارات المجالس المكسونية فى نيقيا والقسطنطينية وأفيسوس وخالقيدونية . ولعل أهم ما يلفت النظر هنا هو أن أعضاء هذا المجمع قد بالغوا فى حرصهم على تأكيد ألوهية الابن (المسيح) فأضافوا إلى عقيدة نيقيا وقانون الإيمان النيقو – قنسطنطينى عبارة تقول بانبثاق الروح المقدس من الإبن Filioque وذلك لتأكيد مساواة الابن للأب فى الجوهر[١] . والواقع أن هذه الاضافة

(١) Isidore de Seville, Historia Gothorum :

"In ipsis enim regni sui (Recaredi) exordiis Catholicam fidem adeptus totius Gothicae gentis populos inoliti erroris labe detersa ad cultum rectae fidei revocat. Synodum deinde ad condemnationem arrianae haeresis de diversis Spaniae et Galliae provinciis congregat, cui concilio idem

الإسبانية إلى قانون الإيمان كانت شؤماً على تاريخ الكنيسة العالمية ؛ فهى التى مزقت الوحدة وأججت من نار القطيعة بين الشرق الأرثوذكسى والغرب اللاتينى فيما تلا من تاريخ . ولقد سجل لنا هذه الأحداث الخطيرة المؤرخ المعاصر إزيدور الأشبيلى Isidore of Seville شقيق الأسقف لياندر ، كما وردت أخبار هذا المجمع أيضًا فى كتابات جريجورى أسقف تور مؤرخ الفرنجة .

هذا وقد طلب الملك ريكارد من المجلس إدخال طقس بيزنطى فى الكنيسة الإسبانية ألا وهو أن يقوم جمهور المصلين فى الكنائس بتلاوة قانون الإيمان بصوت عال . وقد أصبحت قرارات مجلس طليطلة بمثابة القانون المدنى لدولة إسبانيا . وبعد أربع سنوات من اعتناقه للمذهب الكاثوليكى كتب ريكارد للبابا جريجورى الأول العظيم يبلغه بذلك ، كما أرسل إليه كأسًا للتناول المقدس مصنوعة من الذهب ومطعمة بالأحجار الكريمة ، وطلب إلى البابا أن يتوسط بينه وبين الإمبراطور البيزنطى موريس (٥٨٢ — ٦٠٢) لتسوية الموقف حول المدن الواقعة تحت السيطرة البيزنطية فى إسبانيا . وقد رد البابا جريجورى على ريكارد برسالة حارة تحمل التهنئة له لأنه أدخل أمة بأسرها فى حظيرة الإيمان الكاثوليكى القويم ، وأرسل له هدية بالغة القيمة ألا وهى مفتاح صغير مصنوع من القيود التى كانت تغل أيدى القديس بطرس الرسول أيام سجنه فى روما .

مات ريكارد سنة ٦٠١ وخلفه ابنه ليوفا الثانى الذى سار على سياسة أبيه الكاثوليكية : ولكن واحداً من الكونتات اسمه ڤيتريك Witteric قام بثورة ضده وقتله . وجلس ڤيتريك على العرش سبع سنوات جاهد خلالها فى سبيل القضاء على الكاثوليكية وإرجاع المذهب الأريوسى من جديد ، ولكن محاولاته باءت بالفشل ، واغتيل فى نهاية الأمر . ثم آل العرش إلى جندمار Gundemar سنة ٦١٠ وحكم لمدة عامين ،

religiosissimus princeps interfuit gestaque ejus praesentia sua et subscriptione firmavit, abdicans cum omnibus suis perfidiam quam hucusque Gothorum populos Arrio docente didiceret, et praedicans trium personarum unitatem in Deum, Filium a Patre consubstantialiter genitum esse, Spiritum sanctum inseparabiliter a Patre Filioque procedere et esse amborum unum spiritum, unde et unum sunt."

فخلفه على العرش الأمير سيزبوت Sisebut الذى اضطهد يهود إسبانيا وأجبر بعضهم على اعتناق المسيحية . وفى سنة ٦٢١ توفى سيزبوت وخلفه على العرش ابنه ريكارد الثانى الذى توفى بعد شهور قلائل من اعتلاء الحكم . ثم آل العرش إلى سونزيلا Swinthila الذى بسط سلطانه على كل إسبانيا بما فيها المعاقل البيزنطية وحصون الباسك . وقد أشرك سونزيلا زوجه ثيودورة وولديه معه فى الحكم ، وكان يقصد من وراء هذا الإجراء أن يجعل الحكم وراثيًّا فى أسرته وقد أدى هذا إلى قيام النبلاء بالثورة ضده لأنهم كانوا حريصين على التقاليد الجرمانية القائمة على مبدأ الانتخاب لا الوراثة فى الملك . ولقد نجح أحد هؤلاء الثوار وهو سيزيناند Sisenand حاكم سبتمانيا فى عقد حلف مع الفرنجة سنة ٦٣١ ثم خلع سونزيلا عن العرش وجلس مكانه . جمع الملك الجديد مجلس طليطلة فى نفس العام وأدان سياسة سونزيلا ثم تقرر فى هذا المجلس أن تعاد إلى مجلس الأعيان من العلمانيين والأساقفة حقوقه فى انتخاب الملك كما كانت الحال من قديم . وقرر المجلس أيضاً الاستيلاء على أبناء اليهود الصغار وتربيتهم على القواعد المسيحية . وفى سنة ٦٣٦ مارس مجلس الأعيان سلطته فاختار شنتيلا ملكاً وبعد وفاته اختار ابنه توبلجا Tulga . ولما أن لاحظ النبلاء العلمانيون فى المجلس أن زملاءهم من الأكليروس كانوا قد تطرفوا فى مواقفهم الدينية، تكتلوا فى وجههم واختاروا فى سنة ٦٤٢ واحداً من بينهم هو كندازفنث Chindaswinth ملكاً وطردوا توبلجا الذى دخل أحد الأديرة . وحكم من بعد كنداززفنث ابنه ريكزفنث Recceswinth (٦٥٣ — ٦٧٢) الذى بذل جهوداً كبيرة لمزج القوط بالرومان ، فأصدر فى سنة ٦٥٤ مقننه المعروفة باسم Liber Judiciorum التى سمحت بالتزاوج بين القوط والرومان ، وتنقسم هذه المقننة إلى ١٢ كتاباً و٥٤ موضوعاً و٥٩٥ مادة : وهى تتضمن الأحكام التى أصدرها الملوك القوط على مدى قرنين من الزمان . وتشبهاً بالإمبراطور جستينيان العظيم أصدر هذا الملك القوطى « ذيلا » لهذه القوانين عرف باسم « المتجددات » . وتنطق هذه القوانين بأثر رجال الدين فيها ، وهى أول محاولة لخلط القانون الجرمانى بالقانون الرومانى ، ووفقاً لها صارت اللاتينية لغة القضاء . وكانت هذه المجموعة من القوانين تلائم أحوال البلاد ونشاطها الزراعى والتجارى : فنجد فيها عقوبات ضد من يقطع أشجار الفاكهة ، وأخرى ضد المتلاعبين بحدود

ملكياتهم الزراعية وقنوات المياه ، وهناك فوق هذا عقوبات ضد أصحاب الكلاب « الضالة » والخنازير « المتشردة » .

بعد وفاة ركزفنت سنة ٦٧٢ انتخب النبلاء ڤامبا Wamba ملكاً وقد تآمر ضد الملك الجديد دوق سبتمانيا بول الذى عقد حلفاً مع الفرنجة ، ولكن ڤاميا أوقع به الهزيمة واقتاده أسيراً ذليلا فى موكب انتصاره وهو يدخل طليطلة سنة ٦٧٣ . وتعاقبت سلسلة من الملوك على العرش الإسبانى على الوجه الآتى : حكم إرڤيج Erwig من ٦٨٠ إلى ٦٨٧ ، ثم خلفه ڤيتزا Witiza من ٧٠٠ إلى ٧١٠ . وبعد موت ڤيتزا وقع خلاف بين أعضاء مجلس الأعيان وبين آكيللا Achilla ابن الملك المتوفى : فقد اختار المجلس رودريك دوق بايتيكا للعرش ، فى حين أن فريقاً آخر وقف بجوار آكيللا فى مطالبته بالتاج . ثم استنجد أتباع آكيللا بعرب أفريقيا ضد حزب رودريك (لزريق) . وقبل العرب مساعدة آكيللا ضد رودريك ، وفى ١٩ يوليو ٧١١ تقابل الجيشان العربى بقيادة طارق بن زياد ، والقوطى بقيادة رودريك على شواطئ بحيرة ياندا Janda فى إقليم قادش ، وحلت الهزيمة بالقوط . ثم استولى العرب على أشبيلية وقرطبة وأخيراً دانت لهم طليطلة . وفى العام التالى وصل القائد الأعلى للجيش العربى وهو موسى بن نصير إلى إسبانيا واستأنف الحرب ضد القوط فاستولى على مريدا وطارد رودريك إلى حدود غاليسيا ثم هزمه فى واقعة Segoyuela فى ولاية سالامنكا (سبتمبر ٧١٣) ، ويرجح أن رودريك قتل فى هذه المعركة . وعندما دخل موسى بن نصير طليطلة أعلن تبعية إسبانيا للخليفة الأموى ، ثم أعاد إلى آكيللا مقره وولايته فى طليطلة .

* * *

وقبل أن نطوى صفحة قوط إسبانيا يجب أن نتعرف على شخصية معاصرة مرموقة . ألا وهو ايزيدور الأشبيلى : ولد ايزيدور وشقيقاه لياندر وفولجنتيوس وشقيقته فلورنتينا لنبيل رومانى اسمه سفريانوس فى ولاية قرطاجة . وبعد وفاته نزحت العائلة إلى أشبيلية حيث سيم الأشقاء الثلاثة أساقفة وأصبحت شقيقتهم رئيسة لأحد الأديرة أيضاً ، وقد كتب لها شقيقها لياندر قانوناً لديرها عرف باسم De Institutione Virginum الإمبراطورية الرومانية .

وليانلدر هو صاحب الفضل فى تحويل مماكة القوط الغربيين إلى الكاثوليكية على عهد الملك ريكارد كما سبق القول . ولقد كتب عنه شقيقه إيزيدور فى كتابه « الرجال الأماجد » De Viribus Illustribus أنه « فصيح اللسان ومبشر من الطراز الأول ومؤلف لأعذب الأناشيد الكنسية » .

أما ازيدور فقد كرس حياته للعلم ، وطبقت شهرته الآفاق فقد كتب عنه تلميذه برولبو Braulio أسقف سراجوسا بأنه « مبعوث الإله لبعث آداب القدامى من الأكفان ولذا فإنه يستحق قول شيشيرون : « إذ نحن غرباء فى أوطاننا بعد أن ضللنا الطريق جاءت كتبك لتهدينا إلى الطريق » . ولقد بحث إيزيدور فى الكرونولوجيا وقوانين الاكليروس ونظم العائلة والدولة وجغرافية البلاد ومواقعها وأسمائها ، ومؤلفاته عديدة منها Prooemia

، De Ortu et Obitu Patrum ، Officia ، Synonyma ، De Natura Rerum

، Contra Judaeos ، De Numeriis ، De Nominibus Legis et Evangeliorum

، De Viribus Illustribus ، De Haeresibus ، Sententiae ، Chronica

، De Origine Gothorum et Regno Suevorum et etiam Vandalorum Historia

. Etymologics ثم Quaestiones

والكتاب الأخير هو أهم هذه المؤلفات جميعاً ، فهو يبحث فى أصول الكلمات، ولقد نهج فيه إيزيدور منهج كتاب دوائر المعارف القدامى من أمثال ڤارو وبليني وسيوتونيوس . ويغطى الكتاب نواح متفرقة من فروع المعرفة : فى الطب والتاريخ الطبيعى وعلم الأحياء والمعمار والرياضيات وعلم الحيوان والتشريح والفلك والقانون وعلم وظائف الأعضاء والجغرافيا الطبيعية والمعمار والمساحة والتعدين والزراعة والعلوم العسكرية .

٩ — اللومبارد

اللومبارد أصلا قبيلة جرمانية موطنها مصب نهر الب (باردنجاو) . وكانوا قد استقروا فى القرن السادس فى بانونيا ، بعد أن قضوا ، بمعونة الآفار ، على قبائل جبيدى ما بين عامى ٥٦٥ — ٥٦٧ . وقد قدم اللومبارد إلى القائد البيزنطى نارسس ، الذى كلفه الإمبراطور جستنيان بتحطيم مملكة القوط الشرقيين فى إيطاليا ، كتائب قوامها ٥٠٠٠ رجل .

والمجتمع اللومباردى مجتمع رعوى قام على نظام العشيرة ، وفكرة العدالة عندهم تقوم على القصاص والثأر . ولم يحتك اللومبارد أثناء هجراتهم بحضارة راقية وإنما اشتبكوا مع الآفار ، وقد تعرفوا على المسيحية وقت احتكاكهم بالجبيدى الأريوسيين ، هذا وإن كانت أعداد غفيرة منهم قد ظلت على وثنيتها وقت غزوهم لشمال إيطاليا . وقادة الحرب عندهم هم « الأدواق » الذين كانوا وقت غزو إيطاليا يخضعون لإمرة زعيم أو ملك واحد هو البوين Alboin .

قاد البوين شعبه فى سنة ٥٦٨ وزحف على شمال إيطاليا ، وكانت فى خدمته جماعات من البلغار والسكسون . وقد زحف هؤلاء من أكويليا على رأس الإدرياتيك إلى پادوا ومانتوا وكريمونا وبافيا على طول نهر پو . وقد دام حكم اللومبارد لإيطاليا أكثر من مائتى عام (من ٥٦٨ — ٧٧٤) . وقد دخل اللومبارد فى صراع طويل ومرير ضد الدولة البيزنطية فى محاولة كل فريق فرض سيطرته على إيطاليا . وبرغم هذا الصراع الطويل بين الطرفين نجد أنه قامت بينهما علاقات تزاوج ، وقد وضحت فى خلق اللومبارد وأساليب معيشتهم آثار الحضارة البيزنطية نتيجة للاحتكاك بين الجانبين .

ومرجعنا الأساسى عن تاريخ اللومبارد هو كتاب Historia Longobardorum لبولس الشماس ، وهو لومباردى الأصل ومن عهد النهضة الكارولنجية[٢] . وقد استعان الشماس بسجلات قديمة عند كتابة « تاريخه » هذا وكان على إلمام كاف

---

(٢) Paulus Diaconus, Historia Longobardorum, in P.L., Vol. 95.

بالأقاصيص الشعبية وملاحم البطولة اللومباردية . وقد تلقى الشماس تعليمه فى باڤيا وعاش وقتاً طويلا فى بلاط الملك راتكيز Ratchis ثم انتقل إلى بلاط الدوق اريكيز فى بنڤنتو . ومن بين مؤلفات الشماس « تاريخ لروما » Historia Romana اعتمد فيه على كتابات يوتربيوس . وفى سنة ٧٧٥ دخل الشماس دير مونت كاسينو وارتدى مسوح الرهبان : وهناك كتب « تعليقاً » على القواعد المتبعة فى البيوت الديرية البندكتية ، ولقد وصف لنا الكاتب هجوم اللومبارد على دير مونت كاسينو ونهبهم له ، وكيف هرب الرهبان سالمين إلى مدينة روما . وفى سنة ٧٨٢ عندما كان بولس الشماس عالمًا مرموقاً بين رجال القلم فى غرب أوربا قام بزيارة مملكة الفرنجة ليستعطف شارل العظيم ليعفو عن شقيق له كان قد شارك فى الثورة اللومباردية ضد شارل سنة ٧٧٦ . ولقد استقبله شارل بحفاوة واحترام بالغين ، ومكث بولس فى إقليم موزيل بضع سنوات ألف خلالها كتابه بعنوان Gesta Episcoporum Mettensium. ثم عاد بولس إلى مونت كاسينو سنة ٧٨٦ وهنالك أخرج كتابه فى « تاريخ اللومبارد » Historia Longobardorum الذى سجل فيه الأحداث حتى وفاة الملك ليتوبراند سنة ٧٤٤ . وتلبية لرغبة شارلمان وضع بولس كتاباً فى « المواعظ » ليخدم رجال الدين الصغار كل فى كنيسته .

بعد أن استولى البوين وشعبه على مدائن فريولى وڤيرونا وباڤيا استقرت كل قبيلة لمباردية تحت إمرة قائدها فى إحدى المدن الإيطالية واستولت على الأراضى المتاخمة لها . ولقد نزعت خمس وثلاثون من القبائل اللومباردية إلى شيء من الاستقلال الذاتى ولم تعترف بسلطان الملك اللومباردى . وقد قام اثنان من قواد اللومبارد فى بداية الغزو بحملات على الجنوب الإيطالى : فأسس فاروالد Faroald دوقية سپولتو Spoleto وأسس زوتو Zotto دوقية بنڤنتو .

وبعد ثلاثة أعوام ونصف من غزو شمال إيطاليا قامت الملكة روزاموند بتدبير مؤامرة لقتل زوجها الملك البوين : وكان البوين قد هزم جماعة من الجپيد Gepid فى البلقان وقتل ملكهم كونموند Cunimond ثم تزوج ابنته روزاموند . وطبقاً لرواية بولس الشماس اتخذ البوين من جمجمة الملك القتيل كأساً يحتسى فيها الخمر . وفى إحدى الليالى طلب من زوجه ، وهى ابنة كونموند ، أن تشرب الخمر

فى الكأس هذا ، وقد أكرهت على تلبية رغبة زوجها . ولكنها مذ تلك اللحظة البشعة راحت تدبر للانتقام من البوين ، فحرضت عليه هلمكس حامل درع الملك وأخاه بالتبنى . واغتال هلمكس الملك البوين ، وخلفه فى الحكم كلف Cleph الذى اغتيل هو أيضاً فى سنة ٥٧٤ . ونتيجة لهذه الاغتيالات المتتابعة اتفق النبلاء اللومبارد على ألا ينتخبوا ملكاً عليهم ، وظل العرش شاغراً سنوات عشر .

عمل الإمبراطور الرومانى (البيزنطى) على تحرير إيطاليا من اللومبارد ، ففى سنة ٥٧٠ عقد جستين الثانى (٥٦٥ — ٥٧٨) صلحاً مع الآفار ليتفرغ لمقاتلة اللومبارديين . وفى سنة ٥٧٥ قامت حملة بقيادة الإكزارخ باديواريوس لتحقيق هذا الغرض ، وقد رست الحملة قرب نابلى حيث اشتبك العدوان اللدودان وهزم البيزنطيون وقتل قائدهم . على أن الإمبراطور موريس (٥٨٢ — ٦٠٢) نجح فى تعيين إكزارخ دائم فى مدينة رافنا وخلع عليه لقب باتريكيوس ليعزز من مركزه فى إيطاليا وبخاصة فى نظر أهل روما . كذلك تقرب موريس من كلدبرت حاكم استرازيا وأنقده ٥٠،٠٠٠ قطعة ذهبية مقابل مهاجمته للومبارد . وقام الملك الفرنجى بعدة حملات على اللومبارديين ما بين عامى ٥٨٤ و٥٨٨ ولكنها جميعاً لم تصادف نجاحاً يذكر . وكان البيزنطيون قد نجحوا سنة ٥٧٩ فى استرجاع ميناء كلاسيس ، وهو مفتاح رافنا للبحر ، من أيدى دوق سپولتو .

فى سنة ٥٨٤ قرر النبلاء اللومبارد انتخاب ملك لهم ليوحد جهودهم ضد المد البيزنطى ، وقد وقع اختيارهم على أوثارى ابن كلف . وفى عام ٥٩٠ وهو نفس العام الذى تولى فيه جريجورى الأول العظيم العرش البابوى اختير إجيلولف دوق تورين ملكاً على اللومبارد (٥٩٠ — ٦١٦) . وقد تزوج اجيلولف من أميرة كاثوليكية هى ثيودلندة ابنة دوق بڤاريا . وفى عهد هذا الملك نشطت هجمات اللومبارد ضد المعاقل البيزنطية فى إيطاليا : فهاجم دوق بنڤنتو مدينة نابلى ، وقام دوق سپولتو بإغارة على روما ، فى حين أن الملك زحف على رأس جيشه سنة ٥٩٣ على بروجيا وروما . وأمام هذا الخطر الداهم اضطر البابا جريجورى إلى أن يشترى السلام من الملك اللومباردى مقابل جزية سنوية بلغت ٥٠٠ جنيه ذهبى يدفعها البابا كل عام . وفى سنة ٦٠٢ استولى اللومبارد على مدينة پادوا التى كانت تحت سيطرة البيزنطيين ،

فقطعت بذلك سبل الاتصال بين رافنا — مقر الإكزارخ البيزنطى — وبين استريا ، ثم دانت للومبارد بعد ذلك كل من مانتوا وكريمونا ، وباتت روما فى خطر من جديد . ولكن الملك اجيلولف توفى فى سنة ٦١٦ فأفلتت روما — لحين — من خطر محقق .

توالى على العرش اللومباردى بعد هذا الملوك أدالوالد (٦١٦ — ٦٢٦) واريوالد (٦٢٦ — ٦٣٦) وروثارى (٦٣٦ — ٦٥٢) . وروثارى كان قبل تتويجه دوقاً على بريشيا Brescia وقد تزوج من الأميرة جندبرجة ابنــة ثيودلندة . وفى عهده دارت حرب طاحنة بين اللومبارد والبيزنطيين انتهت بفوز المعسكر اللومباردى فى واقعة مودينا ، وبعدها سقطت جنوة فى أيدى روثارى (٦٥٢) . وفى عهد الملك إريبرت (٦٥٢ — ٦٦١) تحولت المملكة اللومباردية عن المذهب الأريوسى إلى الكاثوليكية ، ووضحت آنئذ علامات الحضارتين اليونانية واللاتينية على المجتمع اللومباردى ، ولعل أبرز ما يدلك على ذلك تلك الحركة التى دأبت على تجديد الدراسات القديمة الحرة فى مدينة ميلان .

وفى عهد الملك جريموالد (٦٦٢ — ٦٧١) أجبرت دوقات سبولتو وفو يولى وبنفنتو المستقلة على الخضوع للتاج اللومباردى .

كانت الإمبراطورية البيزنطية فى القرن السابع مضطرة إلى الإلقاء بكل ثقلها العسكرى على الجبهة الشرقية فى صراعها المرير ضد الفرس أولا ثم مع العرب بعد ذلك . ولذا لم تكن السلطات البيزنطية تملك من الوسائل ما يمكنها من حسم الموقف فى إيطاليا مع العدو اللومباردى . وفى عهد هرقل (٦١٠ — ٦٤١) توقف وصول الجزية المعتادة من إيطاليا إلى الخزانة الإمبراطورية ، بل إن اللومبارد دبروا مؤامرة اغتالوا فيها اكزارخ رافنا الذى كان يمثل الإمبراطور فى شبه الجزيرة الإيطالية .

أدرك الحزب البابوى فى روما أن صاحب العباءة الأرجوانية على البسفور لم يعد قادراً على حماية روما وكنيستها من التحرشات اللومباردية ، ولذا فقد أغفل البابا حقوق حامل التاج وراح يعين الموظفين الإداريين والعسكريين بغية حماية الدوقيات الإيطالية وتنظيم شئونها الدفاعية ضد اللومبارد . وقد ضاعف من هذا الوجوم فى العلاقات بين البلاطين البابوى والبيزنطى تلك السياسة الدينية التى اتبعها كل من هرقل

وابنه قنسطانز الثانى ، وهى الترويج لمبدأ الإرادة الواحدة للمسيح (المونوثيليتية) ، والتى كانت خروجاً على قواعد الدوغما الكاثوليكية[٣] .

وعندما أرسل قنسطانز الثانى حملة إلى إيطاليا ضد اللومبارد تصدى لها الملك جريمولد وأوقع بالبيزنطيين هزيمة نكراء (٦٦٣) . ثم زحفت القوات اللومباردية لطرد البيزنطيين من الجنوب الإيطالى واستولت بالفعل على تارانتو وبرنديزى وكلابريا .

ولما شعر قنسطانز أن الشرف البيزنطى قد أهين فى إيطاليا قام بزيارة لروما سنة (٦٦٥) وعمل على تقوية نفوذ رئيس أساقفة راڤنا للحد من النفوذ المتزايد للبابا ، كما جاهد لمنع العرب من غزو جزيرة صقلية . وقد كانت هذه آخر مرة يظهر فيها إمبراطور بيزنطى فى العاصمة القديمة للإمبراطورية . وعندما اغتيل قنسطانز سنة ٦٦٨ كان العرب يهاجمون صقلية للمرة الثانية .

استأنف الملك اللومباردى بركتارت (٦٧١ — ٦٨٨) الحرب ضد القوات البيزنطية فى إيطاليا ، وفى عام ٦٨٠ وقعت هدنة بين الطرفين على أساس الاعتراف بالوضع الراهن Status quo فى إيطاليا : أى أن تعترف الإمبراطورية البيزنطية بما وقع من ممتلكات تحت أيدى اللومبارديين ، مقابل ألا يتحرش هؤلاء بما يتبقى لبيزنطة من ممتلكات فى إيطاليا .

ولقد سعى الملك ليتوبراند (٧١٣ — ٧٤٤) إلى الحد من نفوذ البابوية وذلك بترقية نفوذ رئيسى أساقفة ميلان وراڤنا . وقد انتهز ليتوبراند فرصة احتدام الجدل حول الأيقونية واللاأيقونية فى بيزنطة وقام بالاستيلاء على بولونا سنة ٧٢٩ ، وفى سنة ٧٣٢ دخل راڤنا ، وفى سنة ٧٣٩ ضرب الحصار حول روما ذاتها . واستنجد البابا جريجورى الثالث بالسلطات البيزنطية ، ولكنها كانت عاجزة تماماً عن أن تمد يد العون للبابا . وهنا التفت البابا إلى شارل مارتل ملك الفرنجة القوى يطلب منه المساعدة ضد اللومبارد . ولكن مارتل كان قد تلقى بعض العون من اللومبارد أثناء حربه ضد عرب إسبانيا ، ولذا فقد تعمد أن يتجاهل طلب البابا .

حكم اللومبارد بعد ذلك الملك راتكيز (٧٤٤ — ٧٤٩) ثم خلفه على العرش

(٣) راجع فصل « هراطقة وأرثوذكس » .

استولف (٧٤٩ — ٧٥٦) الذى نجح سنة ٧٥١ فى الاستيلاء على راڤنا والإطاحة بالإكزارخ البيزنطى بصفة قاطعة . وبسقوط راڤنا انهار خط الدفاع الشمالى لروما وكانت الأملاك البابوية معرضة لخطر اللومبارد الداهم . أمام هذا الخطر الداهم فتح البابا ستيفن الثالث باب المفاوضات مع پين Pepin ملك الفرنجة ، ووجه الأخير الدعوة للبابا للقيام بزيارة لمملكة الفرنجة . وفى خريف سنة ٧٥٣ وصل إلى روما وفد فرنجى من قبل الملك پين برياسة الدوق أوتكار Autchar وكرودجانج Chrodegang أسقف متز لتوجيه الدعوة الرسمية للبابا لزيارة الملك پين . وقبل البابا الدعوة شاكراً ورحل عن طريق باڤيا إلى فرانكيا ، ثم عبر الركب البابوى جبال الألب إلى برجنديا حيث كان فى استقبالهم بعثة شرف يرأسها فولارد مقدم دير سنت دينيس ، وهو الدير الميروفنجى العظيم المجاور لباريس . ووصل پين وولداه كارل وكارلومان فى عيد غطاس ٧٥٤ للترحيب بمقدم البابا ، وانحنى پين أرضاً إجلالاً للسيد البابا ثم أمسك « بلجام » الجواد الذى امتطاه البابا علامة على الولاء للسلطان البابوى الروحى . أمضى البابا ستيفن شتاء عام ٧٥٤ فى سنت دينيس ، ولما حل عيد الفصح عقد اجتماعاً مع الملك ونبلائه فى الڤيلا الملكية فى كيرزى Quierzy حيث طلب من الملك المساعدة العسكرية ضد اللومبارد . وفى منتصف العام نفسه قام البابا بتتويج پين ملكاً على الفرنجة ومسحه بالزيت المقدس ، كما توج معه ولديه كارل وكارلومان ، ثم خلع على الملك الفرنجى لقب باتريكيوس .

وبهذا أصبح الملك پين الحامى الرسمى للكرسى البابوى ، وأثبتت رحلة البابا ستيفن إلى مملكة الفرنجة أنها كانت المسمار الأخير فى نعش المملكة اللومباردية : ففى سنة ٧٥٤ قاد الملك پين حملة وزحف على لمبارديا بينما كان القادة الفرنجة يحيطون بموكب البابا وهو يعبر ممر سنس من غالة إلى إيطاليا . ألحق پين هزيمة فادحة باستولف واضطره إلى التقهقر إلى باڤيا حيث أملى عليه شروط الصلح : بأن يعترف بالتبعية للملك الفرنجة وأن يسلم راڤنا وبضع أراض أخرى إلى السيد البابا . وفى سنة ٧٥٦ أرسل پين حملة أخرى ضد اللومبارد لأن استولف لم يلتزم بشروط الصلح المبرمة من قبل ، وحققت الحملة أهدافها وسلم قائدها الأراضى التابعة للعرش البابوى إلى البابا ستيفن . وعندما لقى استولف مصرعه أثناء إحدى رحلات الصيد

ساعد كل من البابا ستيفن والملك الفرنجى فى انتخاب دزيدريوس دوق توسكانيا ملكاً للومبارد بعد أن تعهد بأن يعيد إلى البابوية كل ما يخصها من أراض فى شمال إيطاليا . وقد توفى البابا ستيفن بعد عام واحد من انتخاب دزيدريوس ملكاً (٧٥٧) . وذيدريوس هذا هو آخر الملوك اللومبارد الذى سيشهد نهاية مملكته ، والذى سوف يساق هو وأفراد أسرته جميعاً إلى مدينة لييج Liége ليدخلوا السجن على يد كارل العظيم أو شرلمان ، كما سنوضح فى الفصل الخاص بشرلمان :



الفصل السادس

روما البابوية

Quod Romana Ecclesia a solo Domino sit fundata,

Quod solus Romanus Pontifex iure dicatur universalis.

يعتز الكرسى البابوى برسالة القديس بولس الرسول إلى أهل رومية (ربما فى عام ٥٨ م على عهد الإمبراطور كلوديان) التى خاطبهم فيها بقوله : « إن إيمانكم ينادى به فى كل العالم . . . إنى مشتاق أن أراكم كى أمنحكم هبة روحية لثباتكم . . . أنا متيقن من جهتكم يا إخوتى أنكم مشحونون صلاحاً ومملوءون كل علم . . . » .

وهناك اعتقاد بأن كلا من القديس بولس والقديس بطرس قد استشهد فى مدينة روما : فلقد أمضى القديس بولس عامين كاملين فى بيت استأجره لنفسه فى روما ، كما نطالع فى سفر « أعمال الرسل » : « وهكذا أتينا إلى رومية . ومن هناك لما سمع الأخوة بخبرنا خرجوا لاستقبالنا إلى فورن أبيوس والثلاثة الحوانيت . فلما رآهم بولس شكر الله وتشجع . ولما أتينا إلى رومية سلم قائد المائة الأسرى إلى رئيس المعسكر . وأما بولس فأذن له أن يقيم وحده مع العسكرى الذى كان يحرسه . وكان يقبل جميع الذين يدخلون إليه كارزا بملكوت الله ومعلماً بأمر الرب يسوع المسيح بكل مجاهرة بلا مانع » . وبعد أن أطلقت السلطات الرومانية سراحه رحل القديس بولس يواصل حملاته التبشيرية بين الأمميين ، ويقال إنه وصل حتى إسبانيا . وبعد ذلك عاد إلى الشرق ، ثم قام بزيارة روما مرة أخرى حيث أمرت السلطات الرومانية بوضعه فى السجن ، وقد قطعت رأسه فى عهد الطاغية نيرون (٥٤ — ٦٨) .

وقبل هذه الفترة بقليل كان القديس بطرس أيضاً قد وصل إلى روما حيث

استشهد . وبطرس – من وجهة النظر الكاثوليكية – هو أول الأساقفة فى روما (من عام ؟ إلى عام ٦٧ م)، ثم سلم الأسقفية من بعده إلى لينوس (من ٦٧ – ٧٩)، الذى خلفه آنا كليتوس (٧٩ – ٩٠) ثم كلمنس الأول (٩٠ – ٩٩) الذى وجه رسالة إلى أهل كورنتوس على نفس المنوال الذى اتبعه كل من بولس وبطرس ، يحثهم فيها على التمسك بقوامة الإيمان ويطالب رجال الأكليروس بالسير على هدى الرسل .

وعلى هذا فالصفة الأولى التى تتمسك بها كنيسة روما هى صفة الرسولية ، أى أن مؤسسها واحد من رسل المسيح الإثنى عشر وهو بطرس الرسول . ولكن بطرس – من وجهة النظر الرومانية – ليس برسول عادى فهو أمير الرسل أو رأس الحواريين ويدللون على ذلك بحجج كثيرة : فهو « يصطاد الناس » بأمر المسيح[١] ، وهو « يدفع الجباية أو الجزية » عن سيده وعنه[٢] ، وبطرس هو أول من قام المسيح بغسل رجليه وقت العشاء الأخير[٣] . وبعد القيامة ظهر المسيح بوجه خاص لسمعان بطرس[٤] . وكان المسيح قد أنبأ بطرس بأنه سينال إكليل الشهادة[٥] ، وقد أوصاه بأن « يثبت إيمان إخوته »[٦] . وأهم من هذا وذاك فى نظر كنيسة روما ذاك الحوار الذى دار بين المسيح وبطرس : « ولما جاء يسوع إلى نواحى قيصرية فيلبس سأل تلاميذه قائلا من يقول الناس أنى أنا ابن الإنسان . فقالوا . قوم يوحنا المعمدان . وآخرون إيليا . وآخرون إرميا أو واحد من الأنبياء . قال لهم وأنتم من تقولون إنى أنا : فأجاب سمعان بطرس

---

(١) « فقال يسوع لسمعان لا تخف . من الآن تكون تصطاد الناس : « لو : ١٠ .

(٢) « ولكن لئلا نعثرهم اذهب إلى البحر وألق صنارة والسمكة التى تطلع أولا خذها ومتى فتحت فاها تجد إستاراً فخذه وأعطهم عنى وعنك » : مت ١٧ : ٢٦ .

(٣) « قام عن العشاء وخلع ثيابه فأخذ منشفة واتزر بها . ثم صب ماء فى مغسل وابتدأ يغسل أرجل التلاميذ ويمسحها بالمنشفة التى كان متزرا بها . فجاء إلى سمعان بطرس فقال له ذاك يا سيد أنت تغسل رجلى : » يو ١٣ : ٦

(٤) لو : ٢٤ : ٣٤ .

(٥) يو : ٢١ : ١٩ .

(٦) « ولكنى طلبت من أجلك لكى لا يفنى إيمانك . وأنت متى رجعت ثبت إخوتك » : لو ٢٢ : ٣٢ .

وقال أنت هو المسيح ابن الله الحى . فأجاب يسوع وقال له طوبى لك يا سمعان ابن يونا . إن لحماً ودماً لم يعلن لك لكن أبى الذى فى السموات . وأنا أقول لك أيضاً أنت بطرس وعلى هذه الصخرة أبنى كنيستى وأبواب الجحيم لن تقوى عليها . وأعطيك مفاتيح ملكوت السموات . فكل ما تربطه على الأرض يكون مربوطاً فى السموات . وكل ما تحله على الأرض يكون محلولا فى السموات(٧) » . كذلك كلف المسيح تلميذه بطرس بأن « يرعى غنمه » أى أنه سامه راعياً عاماً لكل الرعية(٨) .

وبعد القيامة نجد أن بطرس يضطلع برياسة الكنيسة ويطلب إلى إخوته الرسل اختيار واحد بدلا من يهوذا الأسخريوطى الخائن ليكتمل عددهم(٩) . وعندما يعدد الإنجيليون رسل المسيح يذكرون بطرس أول ما يذكرون ، ويخصونه بالأولوية لا فى العدد وإنما فى الرتبة ؛ لأنهم لايرتبون بقية التلاميذ ترتيباً عددياًّ بل يكتفون بذكر أسمائهم فحسب(١٠) . وبطرس هو أول من بشر بالإنجيل ، يوم « حلول الروح القدس » قائلا : « أيها الرجال اليهود والساكنون فى أورشليم أجمعون . ليكن هذا

---

(٧) مت ١٦ : ١٣ — ٢٠ .

(٨) « يا سمعان بن يونا أتحبنى أكثر من هؤلاء . قال له يا رب أنت تعلم أنى أحبك . قال له ارع خرافى . . . ارع غنمى . . . ارع غنمى » . يو٢١ : ١٥ — ١٧ .

(٩) « وفى تلك الأيام قام بطرس فى وسط التلاميذ . . . فقال أيها الرجال الإخوة كان ينبغى أن يتم هذا المكتوب الذى سبق الروح القدس فقاله بفم داود عن يهوذا الذى صار دليلا للذين قبضوا على يسوع . إذ كان معدوداً بيننا وصار له نصيب فى هذه الخدمة . فإن هذا اقتنى حقلا من أجرة الظلم وإذ سقط على وجهه انشق من الوسط فانسكبت أحشاؤه كلها . وصار ذلك معلوماً عند جميع سكان أورشليم حتى دعى ذلك الحقل فى لغتهم حقل دما أى حقل دم . . . فأقاموا اثنين يوسف الذى يدعى بارسابا الملقب يوستس ومتياس . . . ثم ألقوا قرعتهم فوقعت القرعة على متياس فحسب مع الأحد عشر رسولا . » أعمال الرسل ١ : ١٥ .

(١٠) « ثم دعا تلاميذه الاثنى عشر وأعطاهم سلطاناً على أرواح نجسة حتى يخرجوها ويشفوا كل مرض وكل ضعف . وأما أسماء الاثنى عشر رسولا فهى هذه .

الأول سمعان الذى يقال له بطرس واندراوس أخوه . يعقوب بن زبدى ويوحنا أخوه . فيلبس وبرثولماوس . توما ومتّى العشار . يعقوب بن حلفى ولباوس الملقب تداوس . سمعان القانونى ويهوذا الأسخريوطى الذى أسلمه . » مت ١٠ : ١ — ٤ .

معلوماً عندكم وأصغوا إلى كلامى . لأن هؤلاء ليسوا سكارى كما أنتم تظنون لأنها الساعة الثالثة من النهار . . . أيها الرجال الإسرائيليون اسمعوا هذه الأقوال . يسوع الناصرى رجل قد تبرهن لكم من قبل الله بقوات وعجائب وآيات صنعها الله بيده فى وسطكم كما أنتم أيضًا تعلمون . هذا أخذتموه مسلماً بمشورة الله المحتومة وعلمه السابق وبأيدى آثمة صلبتموه فقتلتموه »[11] . ولما احتدم الخلاف حول مسألة « اختتان الأمميين » قبل دخول المسيحية كان بطرس أول المتكلمين وعلى نفس النهج للذى رسمه فى هذا الأمر سلك بقية الرسل[12] . ومن بين الأسماء التى أعطيت للقديس بطرس اسم « قيافا » ومعناه « الصخرة الروحية » التى شبه بها القديس بولس المسيح ذاته [13] .

ويرى الكاثوليك من كل هذه الشواهد السابقة أن السيد المسيح أراد بتعيينه بطرس أميراً للرسل ورأساً على الكنيسة العالمية أن يصون وحدتها وأن يقيمها على إيمان شبيه بإيمان « الصخرة الروحية » ، ذاك الإيمان الذى تفرد به سمعان بطرس . ولما كانت الكنيسة جسداً واحداً فإن الحزب البابوى لايتصور أبداً أن يكون لهذا الجسم أكثر من رأس واحد وهو بطرس الرسول أو خليفته وهو البابا أسقف روما . والقديس جيروم يؤكد « أن الكنيسة تأسست على بطرس وأن المسيح اختاره من بين الاثنى عشر رأساً أعلى عليها منعاً للشقاق »[14] . ويردد هذا الرأى أيضًا القديس كبريان فى قوله « معمودية واحدة ، روح مقدس واحد ، كنيسة واحدة تأسست

---

(١١) أع ٢ : ١٤ – ٢٣ .

(١٢) « فبعد ما حصلت مباحثة كثيرة قام بطرس وقال لهم أيها الرجال الإخوة أنتم تعلمون أنه منذ أيام قديمة اختار الله بيننا أنه بفمى يسمع الأمم كلمة الإنجيل ويؤمنون . والله العارف القلوب شهد لهم معطيا لهم الروح القدس كما لنا أيضاً . ولم يميز بيننا وبينهم بشىء إذ طهر بالإيمان قلوبهم – » أع ١٥ : ٦ – ١٠ .

(١٣) « لأنهم كانوا يشربون من صخرة روحية تابعتهم والصخرة كانت المسيح » . كور ١٠ / ٤ .

(١٤) **S. Hieronymus, Adv. Jovin. 1, n. 26 :**

"Super Petrum fundatur Ecclesia; .. propterea inter duodecim unus eligitur, ut capite constituto schismatis tollatur occasio."

على بطرس ابتغاء الوحدة وضماناً لصيانة هذه الكنيسة »(١٥) .

ومن هذا المنطلق راح كتاب الكنيسة اللاتينية مذ وقت مبكر يزعمون بأن الأسقف روما الإمارة على الكنيسة العالمية « فى المحبة أى المسيحية » ؛ لأن أسقف روما هو خليفة القديس بطرس . وهذا ما يؤكده القديس اجناتيوس الذى توفى سنة ١٠٧م(١٦) . والقديس ترتوليان يصف البابا زفرينوس Zephyrinus (١٩٨ — ٢١٧) على أنه « الأسقف الأعظم ، أسقف الأساقفة الذى يملك حق الغفران عن الخطايا »(١٧) . أما القديس أريناوس فإنه يعترف صراحة بأن أسقف روما يملك حق الإمارة على سائر الكنائس لأنه خليفة القديس بطرس ؛ ولذا فإنه يتحتم على كل الكنائس — فى رأيه — أن تكون « فى الشركة » مع كنيسة روما لأنها « هى التى تحفظ التراث الرسولى وتصونه على صواب »(١٨) . وأما القديس كبريان فإنه يرى أن « من يقاوم الكنيسة أو يتنكر لكرسى القديس بطرس الذى هو حجر الزاوية للكنيسة لا يحق له أن ينتمى إلى عضوية الكنيسة »(١٩) .

---

(١٥) S. Cyprian, Epist. 70 ad Januar. et alios :

"Quando et baptisma unum sit, et Spiritus S. unus, et una Ecclesia a Christo Domino super Petrum origine unitatis et ratione fundata."

(١٦) Epist. ad Rom. "proka themene tes agapes."

(١٧) De Pudicitia, c. 1. "Audio esse edictum propositum et quidem peremptorium : Pontifex maximus, i.e. episcopus episcoporum, edicit : Ego et moechiae et fornicationis delicta poenitentia functis dimitto."

(١٨) "Hac ordinatione et successione, ea, quae est ab Apostolis in ecclesia traditio et veritatis praeconatio, pervenit usque ad nos. Et est pleinissima haec ostensio, unam et eamdem vivificatricem fidem esse, quae in ecclesia ab Apostolis usque nunc sit conservata et tradita in veritate."

(١٩) De unitat. Eccl., n. 4: "..Haec erant utique et caeteri apostoli, quod fuit Petrus, pari consortio praediti et honoris et potestatis, sed exordium ab unitate proficiscitur .. Hanc ecclesiae unitatem qui non tenet, tenere se fidem credit ? Qui ecclesiae renititur et resistit, qui cathedram Petri, super quem fundata est ecclesia, deserit, in ecclesia se esse confidit ?"

ولقد اعترف الآباء المجتمعون فى المجمع المسكونى الأول فى نيقيا برياسة أسقف روما على سائر أساقفة إيطاليا (والغرب ؟) وذلك وفق القانون السادس من قوانين هذا المجمع :

« فلتحفظ السنن القديمة التى فى مصر وليبيا وبنطابوليس ؛ فى أن أسقف الإسكندرية يكون له السلطان على هذه كلها ، من حيث إن أسقف رومية له هذه العادة أيضًا » . وقد التقطت الدوائر اللاتينية هذا القانون وصدرته بعبارة دخيلة ليست من وقائع مجمع نيقيا فى شىء ، وهذه العبارة تقول : « لقد كان لكنيسة روما دوامًا الإمارة على الكنائس[٢٠] » . وهذا القول لا أساس له من الصحة التاريخية ، ولكن أحداً من الآباء فى المجامع التالية لم يتعرض له بالتفنيد ، كما وأن البابوات ظلوا يمارسون صلاحيات هذه الرياسة بالقول وفى الفعل دون أن يجدوا حرجاً فى ذلك .

وقد وقع البابا ليبريوس (٣٥٢-٣٦٦) فى خلاف شديد مع أباطرة بيزنطة بسبب سياستهم فى تأييد المذهب الآريوسى ضد الأرثوذكسية ، وانتهى الصراع بنفى البابا وبتعيين واحد من أنصار الإمبراطور هو فيلكس . ولما احتج أسقف ميلان — وهى العاصمة الجديدة للنصف الغربى للإمبراطورية — على سياسة الإمبراطور الآريوسية ، نفى هو الآخر وعين الإمبراطور مكانه آريوسيا ضالعاً هو أوكزنتيوس . وأخذ نفوذ روما يتضاءل فى حين أن أسقفية ميلان غدت صاحبة الكلمة بعد أن صار لها الإشراف على أساقفة شمال إيطاليا جميعاً . أما روما فلم يعد لأسقفها من نفوذ سوى على الكنائس الواقعة فى إيبارشيتها كوحدة إدارية . وكان الواقع يشير إلى أن أسقفية ميلان سوف تبتلع حقوق أسقف روما بتأييد من الإمبراطور ، ولكن ما إن ما انتهت فترة أسقفية أوكزنتيوس (٣٥٥ — ٣٧٤) حتى خلفه على كرسى الأسقفية فى ميلان رجل كان من أقوى المدافعين عن كنيسة روما والبابوية ؛ ذلكم هو القديس أمبروز (٣٧٤ — ٣٩٧) الذى ساهم بقوة حجته فى إرجاع ما كان لروما وكنيستها من هيبة ونفوذ .

---

(٢٠) Mansi, Sacrorum Conciliorum Amplissima Collectio, Vol. II, Col. 895 : "Romana Ecclesia semper habuit primatum."

وفى القرن الرابع أصبح البابا يهيمن على سائر كنائس وسط وجنوبى إيطاليا والجزر التى بلغ عددها مائتين ، وصار للبابا الحق فى تكريس أساقفتها جميعاً . ولقد قام البابا داماسوس (٣٦٦ – ٣٨٤) بتكريس ٦٢ أسقفاً علامة على خضوعهم لكرسى روما . أما خلفه سيريكيوس (٣٨٤ – ٣٩٨) فقد تحدث فى إحدى رسائله (سنة ٣٨٥) عن « حق أسقف روما فى الإشراف على بقية الكنائس بوصفه الراعى لقطيع القديس بطرس وخليفته »[٢١] . ولقد قام البابا أنوسنت الأول (٤٠١ – ٤١٧) بسيامة ٥٤ من الأساقفة . أما البابا ليو الأول العظيم (٤٤٠ – ٤٦١) فقد كرس ١٨٥ أسقفاً ! وليو الأول هذا هو الذى أفاض فى تأكيد إمارة روما على الكنيسة العالمية ، فهو يقول فى إحدى مواعظه إنه على الرغم من أن كل راع مسئول عن رعيته فإن أسقف روما بوصفه الراعى الأكبر يشرف على هؤلاء الرعاة ، « فهذا من صميم اختصاصنا فى كل أنحاء المسكونة انطلاقاً من المسئولية والصلاحيات التى فوضها المسيح لبطرس أمير الرسل »[٢٢] . ولقد اتضح موقف ليو أيضاً فى مجمع خلقيدونية المسكونى (٤٥١) : فقد اعترض على القانون الثامن والعشرين من قوانين هذا المجمع لأنه أعطى أسقفية بيزنطة المركز الثانى بعد أسقفية روما . وفى الجلسة الختامية لهذا المجمع أبرز المندوب البابوى الأب باسكازنيوس وثيقة قرأ منها القانون السادس

---

(٢١) Ex ep. ad Himerium Episc. Tarraconensem :

" ... Consulationi tuae responsum competens non negamus, quia officii nostri consideratione non est nobis dissimulare, non est tacere libertas, quibus maior cunctis Christianae religionis zelus incumbit. Portamus onera omnium, qui gravantur; quin immo haec portat in nobis beatus apostolus Petrus, qui nos in omnibus, ut confidimus, administrationis suae protegit et tuetur heredes."

(٢٢) Sermo V: "Quamvis enim singuli quique pastores speciali sollicitudine gregibus suis praesint, sciantque se pro commissis sibi ovibus reddituros esse rationem; nobis tamen cum omnibus cura communis est, neque cujusquam administratio non nostri laboris est portio; ut dum ad beati Apostoli Petri sedem ex toto orbe Concurritur et illa universalis ecclesiae a Domino eidem commendata dilectio etiam ex nostra dispensatione deposcitur, tanto amplius nobis instare oneris sentiamus, quanto cunctis majora debemus."

لمجمع نيقيا فى صيغته اللاتينية التى كانت تعبر عن مبدأ إمارة كنيسة روما . وكان فى مقدور الآباء المجتمعين أن يناقشوا هذه الصيغة اللاتينية الدخيلة — كما سبق أن أوضحنا — ولكنهم لم يفعلوا . ثم كتب البابا إلى الإمبراطور مرقيان يعاتبه على موقفه ويعنف أسقف بيزنطة « بسبب طموحه الزائد » ، وهو فوق هذا يذكر الإمبراطور بالأصل الرسولى لكنيسة روما وينفى عن كنيسة بيزنطة صفة الأسقفية « لأنها ليست رسولية » . وليو فى الواقع هو أول البابوات الذين أصروا على التحلى بلقب « نائب القديس بطرس وخليفته » ، وهو بهذا الحكم الأول والأخير فى شئون الكنيسة العالمية وصاحب حق الحل والربط .

هذا وقد كان على الأساقفة الذين يعينهم البابا أن يجتمعوا كل عام فى روما فى عيد تتويج البابا Natale Papae ، علامة على الولاء والتبعية للجالس على عرش القديس بطرس . وهم يلجأون إلى البابا ليلتمسوا منه التوجيه والنصح فى المسائل الهامة كما أنهم يتخذون من طقوس كنيسة روما وأحكامها نموذجاً يسيرون على هديه فى كنائس أبيارشياتهم .

وكان يشرف على إدارة أمور الكنيسة فى روما سبعة من الدياكنة (Diakonos) أو الشمامسة ، وهم يمثلون الطبقة البيروقراطية فى الكنيسة اللاتينية . وكانوا يتدرجون فى مختلف الوظائف الأكليروسية ، وغالباً ما كان البابا يختار من بينهم . وعلى هذا فإن الأرشيدياكون (كبير الشمامسة) كان أهم شخصية بعد البابا ، ومن احتل هذا المنصب كان يترقب دائماً لحظة الجلوس على العرش البابوى . وكان البابا ينظر فى الشكاوى من الأساقفة إما بنفسه وإما عن طريق نوابه الملقبين « بالقاصدين الرسوليين » . ومن حق البابا أن يقيل الأسقف الذى تثبت إدانته وذلك بالإضافة إلى حقه الأصلى فى « الربط والحل » بوصفه خليفة القديس بطرس .

أما الأبروشيات الإيطالية الأخرى الواقعة خارج نفوذ البابا فقد كانت من اختصاص أساقفة كل من ميلان وأكويليا وراڤنا . وبرغم هذا نجد أن بعض البابوات كثيراً ما تدخلوا فى شئون هذه الأسقفيات . ومع أنه لم يكن من حق البابا أن يتدخل فى انتخابات أساقفة هذه الأبروشيات ، إلا أنه كان لزاماً على هؤلاء الأساقفة حضور المجالس التى يعقدها البابوات فى روما ، ومن ثم الالتزام بالقرارات والقوانين

الكنسية التى تتخذ نيها . وكان هذا يعنى أن تحديد أركان القوامة والصلاح فى الكنائس قد صار وقفاً على السيد البابا ومجلس كرادلته أو الكيوريا Curia .

ولقد وجدت البابوية فى شخص ليو الأول العظيم رجلا قوياً وقوة دافعة ، فرفع من هيبة الكرسى البطرسى ونفوذه وسار على خطاه خلفاؤه على مدار العصور الوسطى . ولم يكن ليو رومانى المولد ولكنه كان من بين الأكليروس الرومانى منذ سن مبكرة ، وأصبح واحداً من الدياكنة السبعة فكبيراً لهم . وفى سنة ٤٣٠ كان اسم ليو يدوى عالياً بين المدارس اللاهوتية المتناحرة إلى حد أن القديس كيرلس السكندرى قد استعان به ليؤيده فى صراعه ضد نسطور وهرطقته . كذلك أثار ليو حماس البابا سلستين الأول (٤٢٢ — ٤٣٢) فى تضييق الخناق على نسطور ، فتحمس فى الدفاع عن السيدة العذراء وعن « الكلمة التى صارت جسداً » ، وهذا ما اتفق عليه فى مجمع أفيسوس سنة ٤٣١[٢٣] . ولقد تنبه البلاط الإمبراطورى إلى هذا الشاب النابغ ليو فعين سفيراً إمبراطورياً فى غالة . وعند وفاة البابا سكستوس الثالث فى أغسطس ٤٤٠ اختير ليو للعرش البابوى .

وقد تفرد ليو بلسان لاتينى رائع فهو آخر البابوات الذين كانت لاتينيتهم على الرصانة والأناقة الكلاسيكية ، ولغته تنم عن قوة شخصية صاحبها ، كما وأنه كان لاهوتياً ضالعاً . ويعد عصر ليو بداية العصر الذهبى فى تاريخ البابوية الوسيطة . ولقد كانت مقولة ليو بعنوان Tomus فصل القول فى إدانة النسطورية ومن بعدها على المونوفيزيتية . وليو هو الذى أطلق على مجمع أفيسوس الثانى (٤٤٩) الذى هلل له السكندريون اسم « مجمع اللصوص »[٢٤] Latrocinium .

ولقد عاصر البابا ليو الأحداث المهولة التى صاحبت غزو آتيلا ملك الهون لإيطاليا، وكذلك غزوة جنزريك ملك الفندال لروما . وتصوره الأساطير منقذاً لروما من الهوان على يد الهون : فقد أوفده شعب المدينة على رأس سفارة لمقابلة آتيلا على نهر

---

(٢٣) Anathematismi Cyrilli contra Nestorium : "Si quis non confitetur, Deum esse veraciter Emmanuel, et propterea Dei genitricem sanctam virginem : peperit enim secundum carnem factum Dei Verbum, anathema Sit.."

(٢٤) راجع فصل « هراطقة وأرثوذكس » .

Mincio ، وعندما دخل معسكر الملك المتبربر كانت تحوم فوق رأسه هالات القديسين بطرس وبولس ، الأمر الذى أدخل الرعب فى قلب الزعيم الهونى وجعله يعدل عن غزو روما . كذلك نجح البابا فى إقناع جنزريك ملك الفندال بالاكتفاء بما كان قد سلبه من ذهب وفضة وبأن يعود من حيث أتى . ولقد وجد البابوات خلفاء ليو فى سيرته ومواقفه البطولية وفى رسائله ومواعظه برهاناً جديداً أضافوه إلى حججهم للتدليل على حقوقهم ولتأييد طموحهم فى صراعهم مع السلطات الدنيوية أو العلمانية .

والبابا الثانى الذى ساهم فى إرساء قواعد النظرية البطرسية هو جيلازيوس الأول (٤٩٢ – ٤٩٦) . وجيلازيوس أفريقى الأصل ، ولقد ارتقى العرش البابوى حينما كان ثيودوريك ملك القوط يدك شمال إيطاليا لينتزع روما من يد أودواكر . وفى هذا الجو المضطرب الملتهب بالخطر كتب جيلازيوس إلى الإمبراطور أناستاسيوس الأول يبين له أن الله قد قسم سلطان هذا العالم بين اثنين : البابا والإمبراطور ، وأن العبء الملقى على كاهل البابا أثقل بكثير من العبء الذى وكل به الله إلى أمير الدنيا ، لأنه يتحتم على البابا أن يقدم « كشف حساب » فى الآخرة عن كافة الناس أميرهم وفقيرهم على حد سواء(٢٥) . كذلك أكد جيلازيوس سلطان روما على سائر الكنائس « لأنها صخرة بطرس الرسول التى لا دنس فيها ولا عيب »(٢٦) .

أما البابا جريجورى الأول العظيم (٥٩٠ – ٦٠٤) فهو مؤسس العصور الوسطى

---

(٢٥) P.L., Vol. 59, Cols. 41-47 : "Gelasius episcopus ad Anastasium Augustum .. Duo quippe sunt, imperator Auguste, quibus principaliter mundus hic regitur : auctoritas sacra pontificum, et regalis potestas. In quibus tanto gravius est pondus sacerdotum, quanto etiam pro ipsis regibus Domino in divino reddituri sunt examine rationem. Nosti enim, fili clementissime, quod licet praesideas humano generi dignitate, rerum tamen praesulibus divinarum devotus colla submittis, atque ab eis causas tuae salutis expetis, inque sumendis coelestibus sacramentis, eisque disponendis, subdi te debere cognoscis religionis ordine potius quam praeesse. Nosti itaque inter haec, ex illorum te pendere judicio, non illos ad tuam velle redigi voluntatem.."

(٢٦) Ibid.: "Est ergo prima Petri Apostoli sedes, Romana Ecclesia, non habens maculum, neque rugam, nec aliquid huiusmodi."

بحق . وهو نبيل رومانى الأصل[٢٧] ، ولد فى الوقت الذى كانت فيه جحافل جستينيان العظيم تقاتل القوط للقضاء عليهم ولإرجاع إيطاليا إلى حظيرة الإمبراطورية . وشهد جريجورى فى طفولته المدينة الخالدة تخضع للحصار بعد الحصار ، وقاسى مع الأهلين من المجاعات التى تعرض لها الجميع ومن الأوبئة التى اجتاحت العاصمة القديمة . وكان جريجورى طفلاً فى السادسة عندما زحف توتيلا ملك القوط (سنة ٥٤٦) على روما وقد جن جنونه فعمل على إزالة روما من الوجود فأخلاها من الأهلين وتركها نهباً لوحوش الكمپانا ستة أسابيع كاملة . وفى سن الرابعة عشرة شهد جريجورى خروج آخر القوط من إيطاليا . وبعدها بأربعة عشر عاماً (سنة ٥٦٨) شهد قبائل اللومبارد المتبربرة وهى تتدفق من وراء جبال الألب لتكتسح شمال إيطاليا . وكان جريجورى يشغل وقتها منصب البرايتورية فى روما ؛ أى أنه كان مسئولاً عن شئون المدينة المالية وعن الشرطة والقضاء، إلى جانب مشكلات التموين . وعندما بلغ جريجورى الخامسة والثلاثين اتخذ قراراً خطيراً : فباع ضياعه الواسعة وأسس بثمنها سبعة أديار رهبانية وارتدى مسوح الرهبان ودخل الدير ممتثلاً لنظام القديس بندكت . وفى سنة ٥٧٩ رسمه البابا بيلاجيوس الثانى شماساً ثم أوفده « قاصداً رسولياً » apocrisarius إلى القسطنطينية . ومكث جريجورى فى العاصمة البيزنطية سبع سنين ، وهناك تعرف على لياندر الأسقف الإسبانى المرموق، وتوطدت بين الاثنين أواصر الصداقة المتينة . وفى سنة ٥٩٠ اختير جريجورى للعرش البابوى .

ومنذ اللحظة الأولى لتوليه العرش البابوى قام جريجورى بحركة تطهير فى البيت اللاتيرانى (Lateran) ؛ فطرد رئيس الدياكنة بتهمة الاختلاس وأنذر الدياكنة السبع بالتزام حدودهم وبالانصراف إلى خدمة الكنيسة وفقراء الرعية ، كما أنه طرد العلمانيين من البلاط البابوى . وحول جريجورى أروقة اللاتيران إلى هياكل انقطاع للصلاة ، فصار القصر شبيهاً بالأديرة الصامتة . وحرم البابا الاتجـار بالمناصب الكنسية (السيمونية) ، بل إنه ألغى رسوم سيامة رجال الإكليروس وإصدار الترخيصات الكنسية ، وصارت جميعها تعطى بالمجان . ولم يكن جريجورى دارساً عميقاً ، و برغم

(٢٧) Liber Pontificalis (ed. L. Duchesne), Vol. I, P. 312 : "Gregorius, natione Romanus, ex patre Gordiano..".

هذا فهو صاحب الفضل الأول فى تبسيط العقيدة لأهل العصور الوسطى على مدى ألف عام كاملة . ولقد غدا هذا « النبيل الزاهد » محط الأساطير المتأخرة فى تصويرها لقديسى العصور الوسطى « المظلمة » . ولغة جريجورى العظيم هى لغة الڤولجاتا سكريبتا (Vulgata Scripta) التى يرى فيها النقاد دليلا على الضعف الذى أصاب الحياة الأدبية فى غرب أوربا ، ولكن هذا الرجل هو الذى بشر عالم الظلام الدامس الغارق فى التبربر ببلاغة من طراز جديد ألا وهى الإيمان والبساطة . وجريجورى ليس من الطرز الفكرية العملاقة المتمثلة فى كبريان أو أمبروز أو أغسطينوس ، ولكنه يفضلهم جميعاً وهو يعظ « بالكلمة » من فوق المنبر، وهو أيضاً نموذج للنسكية والفضائل الحلوة . وجريجورى بعد هذا سيد أخلاقيى العصور الوسطى وتنطق بذلك « موراليا » Moralia ويؤكدها سلوكه المثالى . وإلى جانب « الموراليا » كتب جريجورى عدة مؤلفات أخرى أهمها Regula Pastoralis ، الذى ترجم إلى اليونانية والأنجلو-سكسونية ، وله تعليقات رائعة على بعض فصول الكتاب المقدس[٢٨] . ولعل أهم عمل قام به جريجورى العظيم هو تحويل إنجلترا الأنجلوسكسونية من الوثنية إلى المسيحية . وهناك رواية مأثورة تقول بأن البابا كان قد رأى بعض الأسرى الإنجليز فى أسواق النخاسة فى روما ، وكان من بينهم بعض الأطفال الإنجليز ، ولما سأل عنهم قالوا له إنهم إنجليز على الوثنية ، فحزن حزناً شديداً وجعل همه فى إدخال المسيحية إلى هذه الجزيرة المتبربرة . ففى العام الخامس من جلوسه على العرش البابوى كلف جريجورى المسئول عن الولايات البابوية فى غالة بشراء الصبية الإنجليز من أسواق العبيد وإرسالهم إلى روما ، حيث أدخلهم الأديرة وعلمهم أصول المسيحية ثم أرسلهم ليقوموا بالتبشير فى بلادهم . ثم اختار البابا رئيسه السابق فى الدير وهو أغسطينوس ليرأس الإرسالية التبشيرية إلى إنجلترا[٢٩] . وعند وصوله إلى غالة سمع أغسطينوس ورجال بعثته روايات كثيرة عن وحشية

---

(٢٨) Liber Pontificalis, II, loc. cit.: "Hic exposuit omelias Evangeliorum numero XL, Job, Ezechielum, Pastoralem et Dialogorum et multa alia quae enumerare non possumus."

(٢٩) Ibid.: "Eodem tempore beatissimus Gregorius misit servos Dei Mellitum, Augustinum et Johannem et alios plures cum eis monachos timentes Deum; misit eos in praedicationem ad gentem Angulorum ut eos convert ad Dominum Jesum Christum..".

الإنجليز ، فدخل الرعب قلوبهم وعادوا من حيث أتوا . ولكن جريجورى العظيم حث رجال هذه البعثة على « التسلح بالإيمان » ومواصلة الرحلة ، وسامهم رسائل إلى أساقفة غالة وملوك أسترازيا وبرجنديا لتسهيل مهمتهم التبشيرية[٣٠] . وقد ساعد هذا فى تخفيف آلام الرحلة على أغسطينوس ، خاصة وأن ملك الفرنجة قد زوده ببعض المترجمين . وأخيراً رست البعثة الأغسطينية عند مدينة Ebbsfleet فى ولاية كنت Kent وذلك قرابة عيد الفصح لعام ٥٩٧ . وكانت زوجة ملك كنت أميرة فرنجية على المذهب الكاثوليكى ، ولذلك فقد أحسن الملك اثلبرت Ethelbert استقبال أغسطينوس واستمع إلى مواعظه التبشيرية بأذن صاغية[٣١] . وعندما حل عيد الميلاد لنفس العام كانت صلوات أغسطينوس والمعجزات الروحية التى تمت على أيدى جماعته قد أتت أكلها فاعتنق بضعة آلاف من إنجليز كنت المسيحية على المذهب الكاثوليكى . وفى عام ٦٠١ أرسل البابا إلى أغسطينوس عباءة الأسقفية Pallium ، وهذا تقليد جديد يعبر به البابا عن إعزاز خاص لبعض الأساقفة المخلصين فى تأدية رسالتهم . ومع هذا الإنعام البابوى وصلت أوامر جريجورى بتنظيم الكنيسة الإنجليزية فى منطقتين : واحدة تتمركز ابارشيتها فى لندن والأخرى فى يورك . وقد اختار أغسطينوس مدينة كنتربرى Canterbury ، وهى عاصمة كنت ، مقراً لكرسيه اللندنى ، واحتفظ طيلة حياته بحق الإشراف على القسمين . ويرجع الفضل فى تحرير الكنيسة الإنجليزية من سلطة الدولة إلى جهود البابا جريجورى الذى جعل تبعية الكنيسة المباشرة للكرسى الرسولى فى روما فقط .

بعد وفاة أغسطينوس سنة ٦٠٤ خلفه أحد رهبانه واسمه لورنس رئيساً لأساقفة كنتربرى . على أنه بوفاة الملك اثلبرت انقسمت مملكته إلى سبع ممالك مستقلة ، وأصيبت جهود روما التبشيرية بنكسة خطيرة : فقد ارتد ابن اثلبرت

---

(٣٠) G.H. Trevelyan in his "History of England", p. 58 puts it like this : "Augustine was no more than the worthy instrument of Gregory the Great. The impulse for the conversion of the "Angles" into "angels" came from Gregory in person."

(٣١) Ibid., p. 33 : "St. Augustine and his monks were bringing back with them the Latin alphabet and the custom of written record."

وخلفه إلى الوثنية . وفعل ابنا ملك اسكس Essex نفس الشيء فى نفس العام (٦١٦) . وسرت الوثنية تبتلع جهود أغسطينوس وفريقه من الرهبان سريان النار فى الهشيم ، وفزع أسقفا لندن وردشستر وهربا إلى غالة . وكاد رئيس الأساقفة فى كنتربرى أن يهرب هو أيضاً إلى القارة ، ولكن الرواية تقول إن القديس بطرس ظهر له أثناء الليل وعنفه على « ضعف إيمانه » بل إنه جلده بسوطه حتى توقظ فيه ضربات أمير الرسل حرارة الإيمان ومغالبة اليأس . وفى صبيحة اليوم التالى قصد رئيس الأساقفة إلى مقام سيده الوثنى الملك ايادبولد Eadbald وكشف له عن آثار ضربات القديس بطرس ، وكانت هذه المعجزة كافية لأن يقبل ايادبولد العماد وأن يظل بقية حياته على ولاء للمسيحية . وحدث أن تزوج ادوين Edwin ملك نورثمبريا Northumbria الوثنى من شقيقة الملك كنت ، وذلك فى عام ٦٢٤ ، وكان ادوين هذا أقوى ملوك الممالك الإنجليزية السبع . ولقد صحب الأميرة التى زفت إلى نورثمبريا أحد الرهبان الرومان واسمه باولينوس الذى صار أسقفاً لإبيارشية يورك . ولقد أحسن الملك أدوين استقباله ، ولكن شعب كنيسة يورك وأسقفها الجديد فى بداية الأمر لم يكن ليعدو الملكة وبعض وصيفاتها فحسب . ولما أن أحرز أدوين انتصاراً عسكرياً رائعاً على أعدائه أدخل باولينوس فى روعه أن هذا النصر قد جاء ثمرة لتضرعات كنيسة يورك لله ، ولذا فإنه فى عيد ميلاد سنة ٦٢٥ قبل الملك المعمودية هو وعدد كبير من نبلائه وكبار الكهنة الوثنيين فى مملكته . وازدهرت أحوال الكنيسة التى أرسى قواعدها باولينوس وفريقه فى مملكة نورثمبريا لمدة ثمانية أعوام .

وفى سنة ٦٣٥ عقد ملك شمالى ويلز حلفاً مع ملك ميرشيا Mercia ضد أدوين ملك نورثمبريا . والغريب فى أمر هذا الحلف أن الأول كان بريطانياً مسيحياً ، فى حين أن الثانى كان سكسونياً وعلى الوثنية . وهجم الحليفان على عدوهما المشترك فى واقعة Hatfield Chase وأوقعا به هزيمة نكراء : فأبيد جيشه وسقط هو فى الميدان على مقربة من مدينة دونكستر Doncaster . هربت أرملة أدوين وأطفالها والأسقف باولينوس إلى بلاط شقيق الملكة فى كنت ؛ بينما وقعت نورثمبريا فريسة لنهب الحزب المنتصر . وهكذا فى ضربة قدر واحدة طمست جهود باولينوس فى

أسقفية يورك المزدهرة . على أن المسيحية سوف تعود ثانية إلى يورك ، ولكن هذه المرة على أيدى مبشرين من الشمال البريطانى من أتباع القديس يونا Iona ، وليس من قبل روما(٣٢) .

* * *

لعل خير ما يدلل على الفضل الذى أسداه البابا جريجورى العظيم لإنجلترا وللإنجليز بل وللتاريخ هو بيده الوقور The Venerable Bede ، ذاك الإنجليزى الذى ولد بعد سبعين عاماً من وفاة جريجورى العظيم . وبيده عالم فريد وعبقرى أصيل ، ونحن مدينون له فى التأريخ لإنجلترا فى تلك الفترة المظلمة من تاريخ العصور الوسطى . ولد بيده فى مدينة وارموث أوجاررو Jarrow سنة ٦٧٣ . ولقد توفى والداه وهو بعد طفل صغير ، فقضى حياته فى دير القديسين بطرس وبولس الذى أسسه القديس بينت بسكوب St. Benet Biscop . وانخرط بيده فى سلك الرهبانية ، وفى سنة ٦٩٢ رسم شماساً ، وفى سنة ٧٠٣ سيم قساً ، وتوفى سنة ٧٣٥ بعد حياة حافلة بالصلوات والدراسة . وقد شملت كتابات بيده كل فروع المعرفة المعروفة عند أهل العلم فى العصور المظلمة ، ويرى فيه الإنجليز « أب التاريخ

---

(٣٢) In the "Dream of the Rood", the Christian poet, probably a Northumbrian of the Eighth century, has blended the ethical ideas of Mediterranean Christianity with the heroic legend of the gallent thegns of the North :

"Stripped himself then the young hero,
that was God Almighty,
strong and brave :
he mounted the high cross
courageously in the sight of many,
when he wanted to set mankind free.
I trembled when the hero embraced me.
I dared not bend to the earth.

(Trevelyan, p. 67).

الإنجليزى »(٣٣) . ويراع بيده هو الذى حفظ لنا كل ما وقعت عليه يدا هذا الراهب من تراث القدامى والآباء الباكرين : فهو يكتب عن الشعر وحساب الوقت والفلسفة واللاهوت والترانيم . ولعل أهم أعماله جميعاً كتابه بعنوان « التاريخ الكنسى للشعب الإنجليزى » الذى تميز بالإنصاف فى معالجة المادة التاريخية وبرشاقة فى الأسلوب مما يجعل بيده أعظم مؤرخى عصره على الإطلاق . ومؤلفه هذا هو العمل الأوحد الذى نعثر عليه على طول المسافة بين « مدينة الله » ونهضة القرن الثانى عشر .

* * *

لا نبالغ فى القول إن نحن أكدنا هنا أن جهود البابوات الثلاث ليو الأول العظيم وجيلازيوس وجريجورى هى التى جعلت البـــابوية بحق الوريث الشرعى للإمبراطورية الرومانية . لقد سار الجالسون على كرسى القديس بطرس فى روما على خطاهم ، وبإلهام من سير هؤلاء العمد الثلاثة أبرزت البابوية لعالم العصور الوسطى « هبة قنسطنطين » المزيفة ، وأقدم ليو الثالث على نقل التاج من على رأس الجالس على عرش بيزنطة إلى رأس شرلمان ، وأصدر هلدبزاند مراسيمه الشهيرة باسم Dictatus Papae التى أذل بها الإمبراطور الرومانى المقدس . وعلى ثقل النظرية البطرسية وهبة قنسطنطين وبطولات هؤلاء البابوات جميعاً راح الحزب البابوى يصف الجالس على عرش كنيسة روما بالآتى :

"Sacerdos magnus, Summus Pontifex. Tu princeps episcoporum, tu haeres Apostolorum, tu primatu Abel, gubernato Noe, Patriarchatu Abraham, ordine Melchisedech, dignitate Aaron, auctoritate Moyses, judicatu Samuel, potestate Petrus, unctione Christus."(٣٤)

---

(٣٣) Trevelyan, op. cit., p. 63 : "We moderns value him most as the "father of English history."

(٣٤) St. Bernard de Clairvaux, De Consideratione, lib. II, Cap. viii, 15, Col. 1032, in Opera Omnia, J. Mabillon's edition.

الفصل السابع

الميروفنجيون والكارولنجيون

كارل العظيم (شرلمان) والنهضة الكارولنجية

"Sit dominus aut pater, sit rex et sacerdos, sit omnium Christianorum moderantissimus gubernator."

توفى الملك كلوفس — مؤسس مملكة الفرنجة الميروفنجية — فى عام ٥١١م ، بعد أن سيطر على كل أجزاء غالة تقريباً فيما عدا برجنديا وبروفانس وسبتمانيا . وكان كلوفس يعتمد فى تصريف أمور دولته على الأساقفة ، وينظر إليه على أنه المؤسس الأول للدولة الفرنسية[1] .

ولقد اعتبر الميروفنجيون بلاد غالة إرثهم الطبيعى ، فراح الأبناء يقتسمون ملك الآباء فى أقدار متساوية . ولذا فإنه بعد وفاة كلوفس اقتسم أبناؤه ثيودوريك (ثيرى) وكلوديمير وشلدبرت وكلوتار أراضى المملكة ، واتخذوا عواصمهم فى كل من ريمز وأورليانز وباريس وسواسون ، ودار الصراع بين الإخوة الأربعة كل يريد توسيع رقعة مملكته الصغيرة على حساب الآخر . وعند وفاة كلوديمير فى عام ٥٢٤ قام أخواه شلدبرت وكلوتار بقتل أطفاله ليقسما أملاك أخيهما المتوفى فيما بينهما . وعند وفاة ثيودوريك فى عام ٥٣٤ خلفه فى الحكم ابنه القوى ثيودبرت الذى ظل يحكم حتى عام ٥٤٨ وعند وفاته خلفه ابنه ثيودبالد الذى قتل فى عام ٥٥٥ . أما شلدبرت فقد توفى عام ٥٥٨ ، وهكذا لم يبق من أبناء كلوفس سوى كلوتار الأول ، الذى صارت له السيادة على كل أراضى المملكة الميروفنجية . ولما تمرد كرامنوس Chramnus على أبيه كلوتار وهرب إلى حليفه كنوبير Chnober كونت بريتانى ، هجم عليه أبوه وقضى على فتنته ، ثم قيده

---

(١) Cambridge Medieval History, Vol. II, p. 116. seq.

وزوجه وأطفاله داخل أحد الأكواخ وأشعل فيها النيران[٢] . على أن هذه الفعلة الشائنة أشعلت ناراً فى قلب الأب كلوتار وبات يتلوى بالشعور بالذنب ووخز الضمير .

وكان قد برر قتله لابنه على هذه الشاكلة بما وقع بين النبي داود وابنه بشالوم ، ولكن ضميره بات ينغص عليه حياته ، ولم يهدئ من روعه الندم والتوبة على ضريح القديس مارتن فى بلدة تور . ووقع الرجل صريع مرض الهم والشعور بالذنب وتوفى محسوراً حزيناً فى قصره فى كومبين Compiègne وكانت آخر كلماته : " ماذا تظنون فى ملك السموات الذى يلقى بملوك الأرض على هذه الشاكلة ؟ " .

ولقد قام أبناؤه الباقون بدفنه فى حفل رائع فى بازيليكا سانت ميدار St. Medard فى سواسون فى عام ٥٦١[٣] .

ومع أن مملكة الفرنجة آنذاك كانت مقسمة إلى أربعة جزاء ، إلا أنه كان ينظر

---

(٢) P.L., Vol. 71, Gregorii Tourensis Episcopi Opera Omnia, Historia Francoıum, Liber Quartus, XX, Cols. 285-86 : "Chlothacharius autem rex, contra Chramnum frendens, cum exercitu adversus eum in Britanniam dirigit .. Ea quoque nocte Chonober comes Britannorum dicit ad Chramnum : Injustum censeo te contra patrem tuum debere egredi .. Ibatque Chlothacharius rex tanquam novus David contra Absalonem filium pugnaturus, plangens atque dicens : Respice, Domine, de coelo, et judica causam meam, quia injuste a filio injurias patior. Respice, et judica juste; illudque impone judicium, quod quondam inter Absalonem et patrem ejus David posuisti. Confligentibus igitur pariter, Britannorum comes terga vertit, ibique et cecidit. Denique Chramnus fugam iniit, naves in mari paratas habens : sed dum uxorem et filias suas liberare voluit, ab exercitu patris oppressus, captus atque ligatus est. Quod cum Chlothachario regi nuntiatum fuisset, jussit eum cum uxore et filiabus igni consumi : inculsique in tugurio cujusdam pauperculi, Chramnus super scamnum extensus orario suggillatus est; et sic postea super eos incensa casula cun uxore et filiabus interiit."

(٣) Ibid., "Rex vero Chlothacharius anno quinquagesimo primo regni sui, cum multis muneribus liminia beati Martini expetiit, et adveniens Turonis ad sepulcrum antedicti antistitis, cunctas actiones quas fortasse negligenter egerat replicans, et orans cum grandi gemitu, ut pro suis culpis beatus confessor Domini misericordiam exoraret, et ea quae irrationabiliter commiserat, suo obtentu dilueret. Exin regressus, quinquagesimo primo regni sui anno, dum in Cotia silva venationem exerceret, a febre corripitur, et exinde Compendium villam rediit : in qua cum graviter vexaretur a febre, aiebat : Vua ! Quid putatis, qualis est ille Rex coelestis, qui sic tam magnos reges interficit ! In hoc enim taedio positus, spiritum exhalavit."

إليها برغم هذا على أنها وحدة متكاملة باسم مملكة الفرنجة Regnum Francorum :
فلقد أكمل أبناء كلوفس المهمة التى بدأها أبوهم فأخضعوا مملكة برجنديا ، وكان سجسموند
ملك برجنديا قد استرجع دير أجاونوم Agaunum من الفرنجة ، كما عقد مجلسا فى إپاونى
Epaône فى عام ٥١٧ حيث تقرر اتخاذ إجراءات صارمة ضد الهرطقة الأريوسية .
ولكن هذه الجهود لم تنج سجسموند من أبناء كلوفس الذين هجموا عليه فى عام ٥٢٣
وأوقعوا به هزيمة ساحقة وأخذوه أسيراً وسلموه وزوجه وأطفاله إلى كلودومير الذى ألقى
بهم جميعاً فى بئر فى سانت براڤى لاكولومب St. Péravy-la-Colombe على مقربة
من مدينة أورليانز . ولكن جودمار شقيق سجسموند استجمع قوته وانتقم لأخيه بأن قتل
كلودومير فى ٢٥ يونية سنة ٥٢٤ عند مدينة ڤيزيرونس واستعاد مملكة برجنديا وظل
يحكمها حتى عام ٥٣٤ . ولكن شلدبرت وكلوتار وثيودبرت هجموا مرة أخرى على
برجنديا وقسموها فيما بينهم . لقد ظلت مملكة برجنديا مستقلة قرابة القرن ، وأنتجت
مؤرخا مرموقا هو ماريوس من اڤنتيكوم وشاعراً مجيداً هو آڤيتوس . وحتى يومنا هذا
ما زال البرجنديون يحتفظون بصفات خاصة بهم تميزهم عن بقية جنس الفرنجة ، وليس
من الصعب اليوم أن نتبين فى سكان الساءون والرون سمات خلقية واجتماعية ترجع إلى
أجدادهم البرجنديين الأول ، الذين كان يبلغ طول الواحد منهم سبعة أقدام أو يزيد ،
وهم معروفون بالعمل الدائب وحب المتعة والخمر فى آن واحد ، ولهم شهرة ذائعة فى فظاظة
اللسان والسوقية .

كذلك ضم أبناء كلوفس إقليم بروڤانس والمدائن الواقعة شمال ديرانس التى كانت
تحت سيطرة القوط الشرقيين . وكان ڤيتجيس قد منح هذه الأراضى لأبناء كلوفس مقابل
حيادهم فى الصراع الذى نشب بينه وبين جستنيان العظيم .

وهكذا دانت كل أراضى غالة لبيت كلوفس فيما عدا ولاية سبتمانيا التى ظلت فى
يد القوط الغربيين حتى عهد پين Pepin الذى نجح فى ضمها إلى مملكة الفرنجة .

وفى خلال القرن السادس عندما غزا الأنجلو-سكسون جزيرة بريطانيا فر بعض
السكان الأصليين من الكلت من جزيرتهم وحلوا فى شبه جزيرة ارموريكان حيث
أعطوا هذه البقعة اسمهم ألا وهى بريتانى Brittany ، وكان ذلك على حساب ملوك
الفرنجة بطبيعة الحال . واختفت من بريتانى اللغة اللاتينية وحلت محلها اللغة الكلتية ،

وسرعان ما ظهرت أسماء للقديسين الكلت من قبيل القديس بريوك St. Brieuc والقديس تيوتال St. Tutwal والقديس مالو St. Malo والقديس جوديكايل St. Judicaël[٤] .

وانقسم أهل بريتانى إلى ثلاثة أقسام هى برو — واروك Bro-Waroch نسبة إلى اسم زعيمهم ، وكورنوفى Cornovii نسبة إلى كورنوول ثم دومنيونيه Domnonée نسبة إلى ديفون . وقد اعترف زعماء بريتانى بسيادة الملوك الفرنجة عليهم ولكنهم لم يقبلوا تدخل هؤلاء الملوك فى اختيارهم زعماء للكلت على بريتانى ، وبذا كانوا شبه مستقلين عن مملكة الفرنجة .

بعد هذا شهدت مملكة الفرنجة انقساماً خطيراً بين أبناء الملك كلوتار الأول وهم شريبرت Charibert وسيجبرت Sigebert وشلبريك Chilperic . وكان شريبرت ملك باريس أول من اختفى من مسرح الصراع فقد توفى فى عام ٥٦٧ .

دار الصراع الآن بين الأخوين سجبرت ملك متز وشلبريك ملك سواسون ، واستغل جونترام ملك اورليانز وبرجنديا هذا الصراع بين الأخوين ، وراح يؤيد هذا تارة وذاك تارة أخرى ليفت فى عضد الاثنين . ولقد زاد من ضراوة الصراع بين الأخوين الحقد الدفين بين زوجتيهما . وكان سيجبرت قد تزوج من الأميرة برونهلد (برونهوت) ابنة أثاناجلد ملك القوط الغربيين بعد أن تخلت عن المذهب الأريوسى واعتنقت الكاثوليكية . وقد تم هذا الزواج فى مدينة متز فى أبهة زائدة . وقد ألقى الشاعر الشاب فورتيناتوس قصيدة عصماء بهذه المناسبة . ولم يكن هنالك من بين الحاضرين من يفهم هذا الشعر الرصين سوى العروس برونهلد التى كانت على درجة وافرة من الثقافة اللاتينية . ولقد أضفت هذه الأميرة المهذبة على بلاط سيجبرت هالة من الوقار والعلم سرعان ما أشعلت نار الحقد والغيرة فى قلب شلبريك . ،

وكان شلبريك شخصا منحلاً ، فلقد تزوج من امرأة تافهة هى اودوفيرا ثم طلقها ليعاشر إحدى الخادمات وهى فرديجوند . وبعد أن علم بالزواج الموفق الذى حصل عليه أخوه طلب يد شقيقتها جولسونزا من أبيها أثاناجلد . وزفت جولسونزا إلى بلاط سواسون ، وفى أول الأمر « أحبها زوجها حبًّا كبيراً بسبب ثروتها » ، ولكنه سرعان

(٤) Cambridge Medieval History, Vol. II, p. 118.

ما هجرها ورجع إلى خليلته القديمة . وذات صباح فوجئ أهل القصر بالملكة جولسونزا ترقد قتيلة فى فراشها . وبعد قليل من هذا الحادث تزوج الملك خادمته وخليلته فرديجوند ، ثم أمر بإعدام زوجه الأولى أودوفيرا . ثم دار الصراع بين فرديجوند وبرونهلد ، الأمر الذى أدى إلى قيام الحرب بين الأخوين سيجبرت وشلبريك . انتصر سيجبرت على شلبريك واستولى على معظم ممتلكاته وأودعه السجن فى مدينة تورناى على أنه عند مدينة فترى على مقربة من آراس انقض عليه اثنان من عبيد فرديجوند وقطعا عنقه بالخناجر المسمومة . واسترد شلبريك مملكته ووضع برونهلد فى السجن . ولكنها نجحت فى الهروب ووصلت أوسترازيا حيث أعلن ابنها شلدبرت الثانى ملكا .

كان شلبريك ملكاً مستبداً وأرهب شعبه بالضرائب المجحفة . كما صادر أملاك الأغنياء منهم ، وكان لا يخفى حقده على الكنائس التى كانت خزائنها مليئة بالذهب . ولذلك فقد استولى على الكثير من أموال الكنائس وراح يبيع مناصب الأسقفية بالمال . وكان شلبريك يكره فكرة الثالوث فى المسيحية فأصدر قراراً بعدم ذكر اسم الأب أو الابن أو الروح القدس فى الصلوات .

وكان لا يحترم عهداً ولا ميثاقاً ، إلى حد أن جريجورى أسقف تور شبهه بنيرون الطاغية وبهيرودوس زمانه . ولقد شن شلبريك حربا قاسية ضد برونهلد وولدها شلدبرت ، وانتزع منهما بواتييه وتور . وذات يوم عند عودته من رحلة صيد فى Chelles اقترب منه رجل وطعنه فأرداه (سنة ٥٨٤) ، ولم يعثر على القاتل[٥] .

كان شلبريك قد نجح فى تشديد قبضته على الفرنجة الغربيين فى المناطق التى ضمت حديثاً للملكة الميروفنجية والتى عرفت باسم نوستريا Neustria وهى اصطلاح مشتق من كلمة Niust أى « الجديد » أو « الحديث » . وفى نفس الوقت نجحت الملكة برونهلد فى السيطرة على مناطق أوسترازيا وذلك باسم ابنها الملك شلدبرت الثانى (٥٧٥ — ٥٩٦) .

---

(٥) P.L., Vol. 71, col. 412 : "His itaque cum hac praeda pergentibus, Chilpericus, Nero nostri temporis et Herodes, ad villam Calensem, quae distat ab urbe Parisiaca quasi centum stadiis, accedit, ibique venationes exercet. Quadam vero die regressus de venatione, jam subobscura nocte, dum de equo susciperetur, et unam manum super scapulam pueri retineret, adveniens quidam eum cultro percutit sub ascellam, iteratoque ictu ventrem ejus perforat; statimque profluente copia sanguinis tam per os quam per aditum vuleneris, iniquum fudit spiritum."

ولكن رجالات المملكة وقفوا ضد الملكة برونهلد وعاونهم فى تمردهم ضدها نبلاء نوستريا . ولكن الملكة نجحت فى إحباط المؤامرة وعقدت حلفا مع جونترام ملك برجنديا الذى تبنى ابنها شلدبرت واعترف به ملكا (عام ٥٧٧) . وتخلصت برونهلد من أعدائها من النبلاء بالاغتيال . ولما استقدم النبلاء مطالباً للعرش واسمه جندوبالد هجمت برونهلد ورجالها عليه فى مدينة Comminges وقتلوه (٥٨٥) . وبعد ذلك بعامين قتلت زعماء التمرد فى قلب كنيسة ڤردان . وعند وفاة جونترام ملك برجنديا استولت على مملكته لحساب ابنها الذى كان جونترام قد تبناه .

ولما توفى شلدبرت ظلت الملكة الأم تمارس سلطاتها حتى بعد أن اقتسم ابنا شلدبرت وهما ثيودبرت وثيودوريك المملكة ، الأول على أوسترازيا والثانى على برجنديا .

ولكن حفيدها ثيودوبرت سرعان ما ثار ضد هذه المرأة المتجبرة ، فهربت إلى برجنديا حيث حكمت على الباتريكيان إجيلا Egila بالإعدام ونفت ديديه Didier أسقف ڤين Vienne عن المملكة ثم قامت بجمع الضرائب دون أن ينبس واحد ببنت شفة . ثم راحت تحرض حفيدها ثيودوريك ضد حفيدها وعدوها ثيودوبرت ، ودارت الحرب بين الأخوين فهزم ملك استرازيا على ضفاف الموسل Moselle على مقربة من بلدة تول ، ثم أخذ أسيراً وأعدم فى زولپك Zülpich . وفجأة توفى حفيدها وحليفها ثيودوريك (عام٦١٣) وهو فى السابعة والعشرين من عمره . وسعت برونهلد إلى أن تختار ابنه الأكبر سجبرت الثانى للعرش ، مخالفة فى هذا التقاليد الفرنجية التى كانت تقضى بتقسيم المملكة بين جميع الأبناء . ولكن القوات الاوسترازية هبت لتقاوم هذه الملكة المستبدة ، ولجأ ارنولف أسقف متز وپپن Pepin وزير البلاط إلى كلوثير الثانى ملك نوستريا للمساعدة ضد برونهلد . ودارت الدائرة على برونهلد ، فوقعت أسيرة فى أيدى أعدائها على ضفاف بحيرة نيوشاتل Neuchatel . وقتل جميع أبناء أحفادها الباقين واختفوا من التاريخ . أما برونهلد ذاتها فقد وضعت على ظهر جمل وعذبت ثلاثة أيام ، ثم قيدوها بشعر رأسها ، وأوثقوا ذراعها وقدمها بذيل حصان جامح وألهبوا ظهره بالسياط فمزقها قطعا . وكان ذلك فى عام ٦١٤ .

كانت برونهلد — من وجهة نظر العصر الذى عاشت فيه وهو عصر العنف — سيدة متدينة فاضلة : فلقد بنت الكنائس والأديرة وكانت تعطف على رجال الدين ،

كذلك كانت حاكما ممتازاً . ولقد اهتمت اهتماماً زائداً ببناء القلاع والحصون والطرق ، وما زال بعضها يحمل اسمها حتى اليوم Chausées de Brunehaute . ولئن كانت برونهلد قد تميزت بالتهور والقسوة ، فإن هذا الحكم ينطبق تماما على كافة معاصريها . ولا يجب أن نحكم على شخصيتها إلا على ضوء أخلاق العصر الذى عاشت فيه .

أصبح كلوتير الثانى بعد أن تخلص من برونهلد ملكاً على كل من أوستراز يا و برجنديا ونوستريا (من ٦١٣ — ٦٢٨) . على أن السلطة الحقيقية لم تكن فى يد الملوك وإنما انتقلت بالفعل إلى أيدى وزراء البلاط Mayors of the Palace فى هذه الأقطار الثلاثة . ولقد أصبح هذا المنصب يعطى لصاحبه مدى الحياة فازدادت أهميته .

ولقد دخل كلوتير الثانى فى حرب ضد السلاف : ذلك أن أحد زعماء الفرنجة واسمه ساموقد لجأ إلى معسكرهم وجند عدداً من قبائلهم وسار على رأسهم لمحاربة بنى جلدته من الجرمان وأحرز عليهم بعض الانتصارات . وفى عام ٦٢٢ نصب كلوتير ابنه داجوبرت ملكا على استرازيا . وكان وزير قصره أو بلاطه اللورد پپن Pippin صاحب إقطاعيتى لاندن وهرزال ، ومن الأخيرة اشتق اسم شهرته پپن من هرزال . كذلك كان للملك مستشار مرموق هو أرنولف أسقف متز الذى كان صديقاً حميما لپپن . وكان هذا الأسقف متزوجاً إذ كان زواج رجال الأكليروس أمراً شائعا فى ذلك الوقت : ولقد زوج ابنه انزيجزل Ansegisil من بجا Begga ابنة پپن . ومن هذا الزواج انبثق الفرع الفرنجى الشهير بالكارليين نسبة إلى كارل العظيم أو شرلمان .

توفى كلوتير الثانى فى عام ٦٢٨ وخلفه ابنه داجوبرت ملكا على الفرنجة جميعا ، وقد أشرك معه أخاه شريبرت فى الحكم بأن أعطاه مملكة أقطانيا ، ولكن شريبرت توفى فى عام ٦٣٠ . أمضى كلوتير معظم سنى حكمه فى الغرب فى مملكة نوستريا التى لم يكن فى بلاطها وزراء أقوياء ينازعونه سلطاته . أما فى مملكة استرازيا فقد اعتزل وزير البلاط الأسقف ارنولف فى عام ٦٢٩ حياة الحكم والشئون العلمانية وقضى بقية عمره مترهباً فى جبال الثلوج ، حيث أكسبته حياته الزاهدة هناك لقب القديس . وآلت أمور الحكم فى مملكة استرازيا إلى انزيجزل ابن ارنولف وإلى پپن . وفى عام ٦٣٢ نصب داجوبرت ابنه سجبرت الثالث ملكا على استرازيا. وفى عام ٦٣٨ توفى داجوبرت تاركاً سجبرت الثالث ملكاً على استرازيا وشلدڤيج الثانى ملكا على برجنديا . وفى العام التالى توفى وزير البلاط پپن واحتل ابنه جرموالد منصب الوزير دون أن يكلفه

أحد به . ولذلك فقد تذمر نبلاء استرازيا ولكن جرموالد سحق ثورتهم ، وجعل من هذا المنصب الخطير وظيفة وراثية فى أسرته . وكان سيجبرت ملكا هزيلا فى أيدى جرموالد القوى . ولذا فإنه يعتبر أول « الملوك الدمى » أو العاطلين Les rois fainéants

توفى سجبرت الثالث فى عام ٦٥٦ ، فقبض وزير بلاطه جرموالد على ولى العهد دجوبرت الثانى ونفاه إلى إيرلندة . ثم نصب ابنه شلدبرت ملكاً على استرازيا .

ولكن النبلاء هبوا ضد الوزير وابنه وقتلوهما ، ثم خضعت ممالك الفرنجة جميعاً للملك شلدفيج الثانى ملك نوستريا الذى توفى فى نفس العام .

ومنذ هذا التاريخ لم تعد لملوك الفرنجة أهمية تذكر وإنما يهتم الدارسون فقط بوزراء البلاط الذين كانوا بمثابة الملوك الحقيقيين . اختار النبلاء إبروين Ebroin وزيراً للبلاط فى مملكة نوستريا ، الذى استخدم وسائل العنف لتحقيق مآربه الخاصة ، ولم يتورع عن قتل كل معارضيه فى نزواته الاستبدادية على حساب الملك ، وكان من بين ضحاياه القديس ليجير St. Leger أسقف أوتون .

وبعد أن سيطر تماماً على نوستريا هاجم أوسترازيا التى كانت فى واقع الأمر فى يد وزير بلاطها پبن من هرزال (الأصغر) . وانتصر إبروين على پبن ، ولكنه اغتيل بعد عام واحد من هذا الانتصار ، وبذلك ضاعت جهوده التى بذلها من أجل إعلاء شأن نوستريا . واصل پبن الحرب مع نوستريا وفى عام ٦٨٧ سحقت قواته جيش ونوستريا تماما فى واقعة تسترى Testry وأصبح پبن الرجل الأول فى مملكتى استرازيا ونوستريا . ويعتبر عام ٦٨٧ عاماً فاصلا فى تاريخ الفرنجة ففيه تحددت السيادة لاسترازيا واستقرت مقاليد السلطة فى بيت پبن .

استن پبن (٦٨٧ — ٧١٤) سياسة اهتدى بها كل خلفائه من بعده ألا وهى إخضاع الشعوب المجاورة لحدود مملكة الفرنجة من فريزيين وثورنجيين وبفاريين وألمانى وأقطانيين لسلطانه . وعند وفاة پبن كان له خلفان : ابن غير شرعى هو شارل مارتل وحفيد هو ثيدوالد الذى كان فى الخامسة من عمره . وكان پبن قد عين خلفا له فى منصبه هذا الطفل الصغير ثيدوالد . هذا وقد قامت زوج پبن ، بلكتروديس ، بالوصاية على حفيدها ، ثم ألقت بشارل فى السجن . غير أن نبلاء نوستريا ثاروا ضدها وغزوا

استرازيا بمعونة الفريزيين ، وهزمت بلكتروديس واضطرت إلى الاستجابة لمطالب نبلاء نوستريا . وفى خلال ذلك تمكن شارل من الهرب من السجن واعترف به الاسترازيون وزيراً للبلاط . كان عهد شارل مليئاً بالحروب : فلقد أجبر النوستريين على الاعتراف به وزيراً للبلاط . كما قام بعدة حملات ضد الفريزيين فى أعوام ٧١٩ ، ٧٢٢ ، ٧٣٣ ، ٧٣٤ ؛ وضد السكسون فى أعوام ٧١٨ ـ ٧٢٠ ، ٧٣٨ . وضد الباڤاريين فى أعوام ٧٢٥ ، ٧٢٨ ؛ وضد الألمانى أيضاً . وكانت سياسية شارل تهدف إلى إخضاع كل هذه الشعوب وتوحيدها تحت لواء الحكومة المركزية الواحدة .

فى عام ٧١١ فتح العرب إسبانيا وتمكنوا فى أقل من تسعة أعوام من السيطرة على كل شبه جزيرة أيبيريا ، وفى عام ٧٢٠ عبروا جبال البرانس وتوغلوا داخل بلاد الغال . وقد تصدى للعرب الدوق يود Eudes صاحب أقطانيا ، ثم عقد معهم صلحاً وزوج ابنته لعثمان أحد قواد الجيش العربى . وكان يود يسعى إلى الاستقلال عن سيطرة شارل مارتل ، ولكن شارل أوقع به هزيمة نكراء فى عام ٧٣١ . ثم تمرد القائد العربى عثمان ضد عبد الرحمن أمير إسبانيا ، ولكن الثورة قد سحقت وقتل عثمان . ورفض عبد الرحمن تجديد الحلف الذى كان عثمان قد أبرمه مع الدوق يود . وهنا آثر الدوق أن يلقى بنفسه تحت رحمة شارل مارتل طالباً العفو . ثم جمع شارل مارتل رجاله ومضى ليقابل العرب ، وانتصر عليهم فى واقعة پواتييه (أو تور أحياناً) وذلك فى عام ٧٣٢ ، وقتل عبد الرحمن فى هذه الواقعة التى تعرف أيضاً باسم « بلاط الشهداء » .

وفى العام التالى لواقعة تور قام شارل مارتل بقمع ثورتين اندلعتا فى برجنديا وأقطانيا . وبذلك ساد الهدوء والسلام فى كل أرجاء مملكة شارل مارتل المتسعة .

وفى عام ٧٤١ قسم شارل الحكم بين ولديه كارل وپپن : وتلقى الأول الجزء الشرقى من مملكة الفرنجة ، والثانى حصل على الجزء الغربى . وتوفى شارل مارتل فى نفس العام . هذا ، ولم يكن هنالك جالس على عرش الفرنجة فى السنوات الأربع الأخيرة من حكم شارل مارتل ، لأن الملك ثيودوريك الرابع كان قد توفى فى عام ٧٣٧ ولم يعين مارتل خلفاً له على العرش الميروڤنجى ، ولم يشعر أحد بحاجة إلى آخر من هذه الدمى الميروڤنجية .

ولقد شهد عصر شارل مارتل محنة خطيرة تهددت كنيسة الفرنجة ، وذلك بسبب

الصراع بين طائفتين من المبشرين : الرهبان الأرلنديون من ناحية والمبشرون من قبل الكرسي البابوى من ناحية أخرى . وهذا يدعونا إلى استعراض النشاط الكنسى فى أيرلندة فى إيجاز : يرجع دخول المسيحية فى أيرلندة إلى وقت القديس باترك (توفى حوالى سنة ٤٩٣) ؛ وسرعان ما تحولت الجزيرة إلى الدين المسيحى واشتهر أهلها بالتقوى حتى أطلق عليها « جزيرة القديسين » . وكانت الكنيسة الأيرلندية مستقلة عن كنيسة روما ، وكانت تخالفها أيضاً فى الطقوس الكنسية وتاريخ عيد الفصح ورداء الكهنوت والتنظيم الكنسى . وكانت الروح الغالبة على الكنيسة الأرلندية هى روح الزهد والتقشف . وقد انتشرت البيوتات الديرانية فى معظم أنحاء الجزيرة . وكان رهبان أيرلندة شديدى الغيرة على كنيستهم وعقدوا العزم على نشر المسيحية فى طابعها الأرلندى فى كل أنحاء القارة . وكان هؤلاء الرهبان المبشرون يرون أن رسالتهم الحقيقية تكمن فى الترحال خارج بلادهم « حجاجا لنشر اسم المسيح » Peregrinare Pro Christo على حد تعبيرهم . وكان هؤلاء النساك الأرلنديون لا يرتادون المدن وإنما يفضلون الإقامة فى البرارى . وأول رحلة لهم كانت إلى اسكتلندة : فلقد وصل القديس كولمبا واثنا عشر من أتباعه إلى اسكتلندة فى عام ٥٦٣ وحصلوا على جزيرة يونا . ومن هذه الجزيرة بدأت مهمة كولمبا التبشيرية بين السكوت والأنجلو سكسون أيضاً . وبعد قليل انتقل المبشرون الأرلنديون إلى منطقة لندزفارن على الساحل الشرقى لإنجلترا ومارسوا نشاطهم التبشيرى بين الإنجليز من هناك . كذلك بعث الأرلنديون بإرساليات تبشيرية إلى القارة ، وكان أول هؤلاء المبشرين القديس كولمبانوس ورفاقه الاثنى عشر وذلك فى عام ٥٩٠ على وجه التقريب . وقد حل القديس على ملك برجنديا جونترام الذى رحب بمقدمه فى حماس زائد . اشتهر كولمبانوس بالتقوى والزهد ، وكان قاسياً ضد الشر والأشرار وكثيراً ما قرع الملوك وكبار النبلاء على الفساد الذى تردت فيه حياتهم . وبرغم تشدده الزائد الذى وصل إلى حدود التزمت صادف كولمبانوس نجاحاً عظيما . وتوافدت على مقره جماهير غفيرة تطلب المعونة للروح فى عصر ملىء بالعنف والآثام ، ولكن الرجل انسحب إلى جبال الفوج حيث أقام أربعة أديرة أشهرها بيت لوكزل Luxeuil . وما لبث القديس أن اصطدم بالملكة الجبارة برونهلد بسبب قسوتها فأمرت بنفيه . سافر القديس إلى نوستريا حيث استقبله ملكها كلوتير الثانى بالترحاب .

وبعد قليل قصد إلى استرازيا فكلفه ملكها ثيودبرت الثانى بالتبشير بين قبائل الألمانى على بحيرة كونستانس . وأمضى كولمبانوس بعض الوقت فى برجنز Bregenz ومنها قصد إلى إيطاليا حيث أسس دير بوبيو Bobbio وتوفى فيه فى عام ٦١٥ . وأكمل المهمة من بعده تلميذه القديس جاللوس St. Gallus الذى سافر إلى سويسرا وأسس الدير الشهير الذى يحمل اسمه ، والذى أصبح مركز الإشعاع الرهبانى فى قلب أوربا ، والذى غدا مدرسة كبرى لتدريب المبشرين على الاضطلاع بإرسالياتهم . وتخرج من هذا البيت عديدون من المبشرين الأرلنديين الذين كان لهم الفضل الأول فى نشر المسيحية بين القبائل الجرمانية التى كانت لا تزال على الوثنية . ومن بين أعلام هذه المدرسة القديس كيليان St. Kilian الذى استقر هو واثنا عشر من تلاميذه فى مدينة فرزبورج فى فرنكونيا فى عام ٦٨٠ ؛ والقديس الوكيوس St. Eloquius الذى مارس مع الاثنى عشر من تلاميذه أيضا نشاطه فى بلجيكا فى نفس الوقت ؛ والقديس روبرت الذى كان يبشر هو وتلاميذه فى بفاريا فى عام ٧٠٠ تقريباً ؛ والقديس وليبروورد St. Willibrord الذى كان يبشر وصحبه فى فريزيا فى عام ٦٩٠ ؛ هذا فى حين أن سيجبرت قد أسس دير دسنتس Disentis فى الألب العليا . ولقد أتت هذه الجهود أكلها فانتشرت المسيحية فى كل تلك الجهات ونمت المدن من حول هذه الأديرة ، ودب فيها النشاط التجارى والعلمى .

على أن هؤلاء الرهبان الأرلنديين — برغم ما صادفوه من نجاح مرموق — لم ينتصروا فى النهاية بل خسروا المعركة التبشيرية . ويرجع ذلك إلى روح الزهد المتطرفة التى كانت تسيطر على حياتهم ، كما وأنهم كانوا يسعون إلى تحويل مملكة الفرنجة إلى شىء أشبه بمملكة الأديرة والرهبان ، ولم يكن الفرنجة بالشعب الذى يستسيغ هذه النزعة النسكية المثالية . كذلك يؤخذ عليهم سوء الإدارة والتنظيم ؛ فلم ينجحوا فى توحيد كنائسهم تحت رأس واحد وحكومة كنسية متمركزة . ولعل من أهم العوامل التى قد أجهضت هذه الجهود الأرلندية المضنية خلافهم الطقوسى مع كنيسة روما ، وهى الكنيسة الأم للكنيسة الفرنجية . ولقد أدركت البابوية خطورة الموقف وساورتها الشكوك فى أن الرهبان الأرلنديين قد يؤسسون كنيسة فرنجية قومية مستقلة عن النفوذ البابوى . ولذلك فقد عمدت البابوية إلى محاربة النشاط الأرلندى فى القارة وفى مملكة الفرنجة بصفة خاصة .

ونجح البابا حيث فشلت مدرسة كولبا . واضطر الرهبان الأرلنديرن أمام الجيوش المتتابعة من المبشرين الرومان إلى التقهقر والتوارى ، وعلى التدريج فقدوا شعبيتهم وأصيبوا بالشلل — وبينما كان نجم كولبا آخذاً فى الأفول كانت صيحات القديس بونيفاس تتعالى لحساب الجالس على عرش القديس بطرس .

ومن بين العوامل الأساسية التى أسهمت فى إنجاح مهمة بونيفاس ذاك التأييد الكبير الذى لقيه القديس من جانب شارل مارتل ؛ الذى مد له يد العون وبسط على مهمته ما يكفل لها الحماية . وليس سراً أن النجاح الذى أحرزه بونيفاس فى نشاطه التبشيرى لم يكن رومانيًّا بحتاً ، إذ كان سيف شارل مارتل يوقع الرعب فى قلوب الناس قبل أن يتقدم بونيفاس ليلقى بتعاليم المسيحية على الطراز البابوى فى هذه القلوب الملتاعة . وفى مقابل هذا العون الكبير الذى قدمه شارل مارتل لكنيسة روما ، تعمدت البابوية أن تغمض عينيها عن كل سوءات مارتل وآثامه التى لا تحصى : فهو ابن غير شرعى ، وهو سيمونى من الطراز الأول يبيع المناصب الأسقفية لمن يدفع لشرائها المبلغ الأكثر دسما وهو بعد هذا يستولى على إقطاعيات من أراضى الكنيسة يهبها « أرزاقا » Beneficium للفرسان الذين يحاربون فى صفه ضد أعدائه ؛ كما أنه كثيراً ما قام بخلع الأساقفة عن أبروشياتهم ونقل أراضيهم إلى فرسانه لأنه لم يكن يملك من المال ما يكفى لدفع الرواتب الباهظة لهؤلاء الفرسان المشاغبين . وكلما كانت الكنيسة الفرنجية تعلى صوتها محتجة عليه كان شارل مارتل يرهبهم بحجة أنه يدافع عن كيانهم وكيان المسيحية ذاتها ضد الوثنيين الجرمان وضد عرب إسبانيا . وكان هذا كفيلا بأن يخرس ألسنة الأساقفة الذين زالت عروشهم .

قبل أن يتوفى شال مارتل (فى عام ٧٤١) نصب ولديه فى الحكم فجعل كرلمان وزيراً للبلاط فى مملكة استرازيا ، وعين پبن المعروف « بالقصير » Le Bref وزيراً للبلاط فى نرستريا . وأمضى الأخوان الأعوام السبعة الأولى فى حروب دائمة ضد الأقطانيين والألمانى والباڤاريين والسلاف والسكسون ، وقد نجحا فى إخضاع هذه الشعوب جميعاً لسلطان مملكة الفرنجة . ولكى يضفى الأخوان على حكمهما لمسة من الشرعية اختارا واحداً من البيت الميروفنجى هو شلدريك الثالث وعيناه ملكا ، ولكنه كان مجرد شبح يحمل التاج ، وقد قدر له أن يمضى من سجلات التاريخ على أنه آخر الملوك

الميروفينجيين أو آخر « الملوك المعطلين» . وفى عام ٧٤٧ تنازل كرلمان عن سلطته لأخيه پبن القصير وعينه وصياً على أبنائه ، وقصد كرلمان إلى قمم جبل سوراكت على مقربة من روما وارتدى مسوح الرهبان . ووفدت على مقامه جماعات غفيرة من الناس لتحملق فى هذا الزاهد من بيت القديس آرنولف . وبعد ذلك بقليل انتقل كرلمان إلى ديرمونت كاسينو Monte Casino .

لما انفرد پبن القصير بإمرة البلاط الفرنجى كله راح يفكر فى وضع التاج على رأسه ، فأرسل سفارة إلى روما تطلب من البابا زكريا الإجابة عن السؤال الآتى : أيهما يحق له أن يكون ملكا هذا الذى يحمل اللقب والتاج وليس له حول ولا قوة أم ذاك الذى بيده كل السلطات فيما عدا اللقب ؟ ولما كان البابا زكريا فى حاجة ملحة إلى حليف قوى ينصره على أعدائه اللومبارد، فقد أجاب بأن صاحب السلطة الحقيقية هو الذى ينبغى أن يتوج ملكا . وعليه فقد عقد مجلس كبير فى مدينة سواسون Soissons فى عام ٧٥١ ، واقتيد الملك الميروفنجى شلدريك الثالث إلى هناك واجتز شعره وألبس رداء الرهبانية ويعث به إلى أحد الأديرة النائية . ثم قام القديس بونيفاس بإعلان پبن القصير ملكاً على الفرنجة ومسحه بالزيت المقدس . وهذا تقليد جديد على المجتمع الجرمانى تعمدت الكنيسة إدخاله فى طقوس تتويج ملك الفرنجة لتشعره بفضلها عليه ولتوثق العلاقة بينها وبينه حليفاً ضد كل أعدائها ، وهو فى نفس الوقت تقليد يسبغ على صاحبه شرعية من « فوق » أى من السماء .

كان اللومبارد - كما سبق أن بينا - قد دخلوا إيطاليا فى عام ٥٦٨ ، وبعد سنين قلائل نجحوا فى السيطرة على السهل الشمالى ودوقيتى سپولتو وبنفنتو . ولكن البيت اللومباردى الحاكم لم ينجح فى الحفاظ على التاج بالتوارث ، فمن بين الواحد والعشرين ملكا لومباردياً الذين حكموا قرنين من الزمان كان ثمانية منهم من عائلات مختلفة . ولكن هؤلاء الملوك جميعاً كانوا يرمون إلى توحيد إيطاليا كلها تحت حكمهم ، غير أنه لسوء حظ إيطاليا لم يفلح هؤلاء الملوك فى جهودهم . وكانت الإمبراطورية البيزنطية تسيطر على إكزارخية Exarchate راڤنا ، فى حين أن الجزء الجنوبى من شبه الجزيرة والإقليم المحيط بروما كان واقعاً تحت سلطان البابا . وبمرور الوقت طلق اللومبارد المذهب الأريوسى واعتنقوا المذهب الكاثوليكى ، ويرجع الفضل فى ذلك إلى ثيودلندة الأميرة

البافارية الكاثوليكية التي تزوجها الملك اللومباردى اوثارى (٥٨٤ — ٥٩٠) والتي تزوجت بعد وفاته من خلفه اجيلولف (٥٩٠ — ٦١٦) ، التي جاهدت جهاداً حسناً في سبيل الكاثوليكية . وعلى عهد الملك روثارى (٦٣٦ — ٦٥٢) كانت الأريوسية قد زالت تماماً من المجتمع اللومباردى . وقد كان هذا التحول العقائدى سبباً في سرعة الاندماج بين اللومبارد والإيطاليين، وظهر ذلك بوضوح في القرن السابع . وقد شجع هذا الملك ليتوبراند (٧١٣ — ٧٤٤) على المضى في خطته لتوحيد كل إيطاليا تحت إمرته على حساب النفوذ البيزنطى في الجزيرة من ناحية والنفوذ البابوى من ناحية أخرى . وكان الخلاف الذى دب بين البابا جريجورى الثانى (٧١٥ — ٧٣١) وجريجورى الثالث (٧٣١ — ٧٤١) من ناحية وبين الإمبراطور ليو الثالث الأيسورى (٧١٧ — ٧٤١) بسبب سياسة الإمبراطور اللاأيقونية حافزاً للملك ليتوبراند لأن ينفذ خطته في توحيد إيطاليا . فقام في عام ٧٢٧ بالهجوم على اكزراخية رافنا ودانت له معظم أراضيها ، كما ضم المنطقة المعروفة بالنتابولس Pentapolis « المدائن الخمس » ، وبعدها راح يفكر في غزو روما . ولكن قوات الإمبراطورية البيزنطية سارعت لتحبط خطة ليتوبراند ، واستعادت رافنا منه ، كما قام بالثورة ضده دوقا سپولتو وبنفنتو وانضمت قواتهما إلى الجيش البابوى . ثم عقد ليتوبراند حلفاً مع اكزارخية رافنا ضد البابا على أن تعطى روما للإكزارخ وتسلم دوقيتا بنفنتو وسبولتو لليتوبراند . ونجح ليتوبراند في تحقيق مخططه ، ثم زحف على مدينة روما لا ليغزوها وإنما ليعرض الصلح على البابا . ويرجع هذا التغير المفاجئ في سياسة ليتوبراند إلى أنه بات يخشى ازدياد نفوذ الإمبراطورية البيزنطية من جديد في شبه الجزيرة الإيطالية . وتم الصلح بين الأطراف الثلاثة المتناحرة : إمبراطور بيزنطة والبابا والملك اللومباردى ، على أن يخضع البابا للإمبراطور وأن تعود رافنا للإكزارخ البيزنطى .

أما البابا جريجورى الثالث فكان ساخطاً على الإمبراطور البيزنطى والكنيسة الشرقية بسبب العنف الذى اضطهد به العاهل الأيسورى أتباع الأيقونية في الإمبراطورية . ولذا فقد أعد الإمبراطور أسطولا لغزو إيطاليا وإخضاعها للتاج وأيضاً للقبض على البابا وإيداعه السجن في القسطنطينية . ولكن عاصفة حطمت الأسطول ، وبذلك تحطمت آمال الأباطرة الأيسوريين في إرجاع إيطاليا إلى حظيرة الإمبراطورية . وهناك وثيقتان

هامتان تعبران عن روح الكراهية التى باتت تحكم العلاقات بين البابوية والإمبراطورية البيزنطية منذ ذلك التاريخ : فقد كتب البابا جريجورى الثانى إلى الإمبراطور البيزنطى يتحداه ويهدده ويتهمه بالكفر . وهو أيضاً يلوح له بالحقيقة المرة وهى أن الإمبراطور لن يجرؤ على الاقتراب من روما لأن غرب أوربا كله سوف يهب للدفاع عنها ضد بيزنطة . أما جريجورى الثالث فقد عقد مجاسا فى روما فى عام ٧٣١ وأصدر فيه قراراً بالحرمان ضد محطمى الأيقونات .

وفى عام ٧٣٨ تمرد دوق سپولتو ضد الملك ليتوبراند ولكنه هزم وفر يطلب الحماية عند البابا جريجورى الثالث . طلب الملك إلى البابا أن يسلم إليه الدوق المتمرد ولكن البابا رفض مطلبه ، فقام ليتوبراند بغزو الأراضى البابوية وهدد روما نفسها . أمام هذا أرسل جريجورى الثالث مفاتيح قبر القديس بطرس إلى شارل مارتل ملك الفرنجة وأنعم عليه بلقب باتريكيان ، طالباً منه أن يخف لنجدته من عدوه اللومباردى . وتفيض رسائل جريجورى الثالث بالسباب ضد اللومبارد ومليكهم . ولكن مارتل كان على علاقات طيبة مع ليتوبراند ، كما أن مشاكله الخاصة فى مماكته لم تسمح له بالمغامرة فى إيطاليا ، ولذا فقد رفض أن يقدم المساعدة للبابا . وتوفى كل من شارل مارتل عاهل الفرنجة والبابا جريجورى الثالث وليو الثالث الإمبراطور البيزنطى فى عام واحد هو سنة ٧٤١ . وقد أبرم البابا زكريا (٧٤١ – ٧٥٢) صلحا لمدة عشرين عاماً مع الملك ليتوبراند ، الذى أعاد للبابوية كل ما اقتطعه منها من أراض ، كما قدم هدايا ثمينة للبابا .

توفى ليتوبراند فى عام ٧٤٤ وخلفه على عرش اللومبارد ابن أخيه هلدبراند الذى خلع عن العرش فى نفس العام بسبب ضعفه ، وحل محله راكيس Ratchis دوق فريولى ملكا على اللومبارد (٧٤٤ – ٧٤٩) . واحترم راكيس المعاهدة المبرمة مع البابوية وبيزنطة حتى عام ٧٤٩ حين هاجم بروغيا Perugia التابعة للإمبراطورية البيزنطية . ولكن البابا زكريا قام بزيارته وأقنعه بضرورة الحفاظ على السلام فى إيطاليا . ولقد اقتنع راكيس بوجهة نظر البابا وأوقف الحرب ضد بيزنطة ثم قرر أن يدخل الديرانية ، تاركا الملك لأخيه استولف (٧٤٩ – ٧٥٦) . لم يكن استولف على شاكلة أخيه ، وقرر استئناف الحرب ضد بيزنطة والبابوية ، وقام بالهجوم على رافنا ؛

ثم استولى على بنفنتو، وبعدها زحف قبالة روما ليخضعها للتاج اللومباردى . وفى طريقه أرسل إلى البابا ستيفن الثالث (٧٥٢-٧٥٧) سفارة تطالبه بالاعتراف بسيادة ملك لومبارديا عليه . ولم تكن قرارات الحرمان ، ذاك السلاح البابوى العتيد ، ذات فعالية ضد استولف المتجبر العنيد ، فالتفت البابا إلى ملك الفرنجة پبن القصير لينقذه من مخالب العدو . ورحل البابا عن روما إلى مملكة الفرنجة فى عام ٧٥٣ ليبسط قضيته أمام العاهل الفرنجى القوى . ولقد استقبله پبن استقبالاً حافلا واستمع إلى شكواه وطيب من خاطره . ثم عقد پبن مجلسا فى سيرزى سير أوايز Céirsy-sur-Oise فى إبريل لعام ٧٥٤ وفيه قرر أن يعيد للبابوية أملاك القديس بطرس المعروفة باسم « الباتريمونيوم » Patrimonium التى كان اللومبارد قد استولوا عليها . كذلك تعهد پبن بحماية البابا وشعب روما وأبروشيتها . ولقد بقى البابا بضعة أشهر ضيفاً على ملك الفرنجة حيث ساهم فى حسم كثير من القضايا مثل طبيعة العلاقات بين الأحرار والعبيد فى المملكة ، ومسائل المعمودية والزيجة وسلطات رجال الإكليروس . ولعل أهم عمل قام به البابا أثناء إقامته فى مملكة الفرنجة هو أنه أعاد مسح وتتويج پبن ملكا على الفرنجة فى كنيسة سانت دينيس ، كما أنعم عليه بلقب باتريكيان .

ولم يكن هنالك ما يبرر إعادة هذه المراسيم التى كان بونيفاس قد اضطلع بها من قبل . ولكن هذه لم تكن مجرد مراسيم عادية وإنما قصد بها تأكيد شرعية حكم پبن لمملكة الفرنجة بواسطة الرأس الأكبر للكنيسة اللاتينية ذاته ، وبالتالى إضفاء صفة الحكم الإلهى المقدس على حامل التاج . والدليل على ذلك أن البابا قام أيضا بتتويج برترادا Bertrada زوج پبن وولديه كارل وكرلمان ، ثم مسحهما بالزيت المقدس . وقد طلب من النبلاء فى هذا الحفل الكبير أن يقسموا يميناً بالولاء لبيت پبن وألا يختاروا ملوكا إلا من هذا البيت . وعلى هذا أقرت الكنيسة الرومانية قيام ملكية مقدسة فى هذه الأسرة الفرنجية الجديدة . ولئن كان پبن قد جنى من هذه الزيارة مكاسب وافرة ، فإن مكاسب البابوية من ورائها كانت بغير حدود ، فإلى جانب الحماية التى ضمنتها البابوية من جانب ملك الفرنجة ، أمكن للجالس على العرش البابوى فيما تلا من تاريخ أن يدعى لنفسه السلطان فى تعيين وخلع الملوك ، مستنداً فى هذا الادعاء على هذه السابقة مع پبن القصير .

فى أثناء ذلك انقضت الجيوش الفرنجية من فوق جبال الألب على إيطاليا ، واضطر استولف إلى التحصن فى مدينة باڤيا . ولما رأى أنه لم يكن نداً لپپن عرض عليه الصلح وقبل الملك الفرنجى ذلك . وكانت شروط الصلح تنص على أن يعيد استولف للبابا الأملاك التى كان قد استولى عليها منها ، وأن يؤدى يمين الولاء عن مملكته لپپن . ثم عاد پپن بعد توقيع هذا الصلح إلى غالة . ولكن استولف لم يكن ينوى احترام شروط الصلح ، فلم يعد أرضاً للبابا بل قام فى عام ٧٥٥ — ٧٥٦ بمهاجمة روما ومحاصرتها .

أرسل البابا ستيفن رسالة إلى پپن على لسان القديس بطرس ذاته يطلب منه فيها حماية كنيسة الله بحماية استقلال روما وحريتها . عبر پپن جبال الألب مرة أخرى وأجبر استولف على رفع الحصار عن روما والتقهقر إلى باڤيا . وعقد صلح جديد بين الطرفين على أن يقدم استولف جزية ورهائن للملك الفرنجة وأن يعيد للبابوية أملاكها . وقد وصل سفراء الإمبراطور البيزنطى عند عقد هذا الصلح ليطالبوا بإعادة إكزارخية راڤنا للإمبراطورية . ولكن پپن صاح فى سفراء بيزنطة بأنه لم يدخل الحرب لحساب أحد وإنما قد حمل السيف لخلاص روحه ولإرضاء القديس بطرس ، ومن ثم فإنه سيهب الأراضى التى وقعت فى يده لهذا القديس . أما الإمبراطور البيزنطى — فى رأى پپن — فإنه لا يستحق أملاكا فى إيطاليا بسبب عجزه فى الدفاع عن البابا من ناحية ولأنه مهرطق من الناحية الأخرى . وهكذا آلت إلى البابوية إكزارخية راڤنا والبنتابولس ودوقية روما . ويحدد هذا التاريخ بداية السلطان الزمنى لبابوية العصور الوسطى .

أمضى پپن بقية سنى حكمه فى الحروب ضد جيرانه عرب إسبانيا ودوق أقطانيا . وقد تمكن پپن من أن ينتزع سبتمانيا وناربون من أيدى العرب ، وبذلك مد حدود مملكته إلى جبال البرانس . وفى عام ٧٦٠ قام ويفر Waifer دوق أقطانيا بالثورة ضد پپن واستمر الصراع بينه وبين الملك الفرنجى أعواماً سبعة . وفى نهاية الأمر انتصر پپن على خصمه الإقطانى ، وقد قام بعض أتباع الدوق باغتياله ثم خضعوا لپپن (٧٦٨) . وكانت هذه الولايات فى جنوب غالة ضرورية لكى تكتمل خريطة المملكة (فرنسا) بحدودها الطبيعية . وقد وزع پپن أراضى أقطانيا بين عدد من ضباطه

ومنح كلا منهم لقب « كونت » .

كذلك ثار تاسيلو Tassilo دوق بڤاريا ضد پبن فى عام ٧٦٣ ، كما تحرش السكسون بأراضى الحدود الشرقية ، ولكن پبن نجح فى إحباط هذه المحاولات جميعاً . وكان پبن أقوى شخصية فى غرب أوربا فى عصره ، ووفدت على بلاطه السفارات من مختلف أنحاء العالم : من بلاط بيزنطة لطلب يد ابنته لولى العهد البيزنطى ، ومن بلاط بغداد لضمان تأييد پبن للخلافة العباسية فى مشروعاتها ضد عبد الرحمن الأموى فى الأندلس . وقد توفى پبن فى ٢٤ سبتمبر عام ٧٦٨ بعد أن قسم المملكة بين ولديه كرلمان على النصف الجنوبى ، وكارل على نصفها الشمالى .

لم يكن الأخوان كرلمان وكارل على وفاق ، ولولا جهود الملكة الأم برتا لقامت الحرب بين ابنيها بعد وفاة أبيهما مباشرة . وقد انتهز هنولد والد ويفر الدوق الأقطانى الفرصة وخرج من الدير الذى كان قد اختبأ فيه ايقود ثورة ضد كارل . واستنجد كارل بأخيه كرلمان ولكن الأخير رفض مساعدته . وبرغم هذا فقد انتصر كارل على خصمه الأقطانى ، وأودع هنولد أحد الأديرة مرة أخرى ثم وزع أراضى أقطانيا على كونتات من الشمال . بعد هذا سعى كارل إلى تحصين نفسه ضد كرلمان فتزوج من ديزيديراتا Desiderata ابنة دزيدريوس ملك اللومبارد وشقيقة جربرجا زوج كرلمان . كذلك عقد كارل حلفاً مع تاسيلو دوق بڤاريا ليستخدمه ضد كرلمان .

وكان البابا قد عارض زواج كارل من ديزيديراتا لأن أى تقارب بين البلاط الفرنجى والبلاط اللومباردى كان خليقاً بأن يهدد نفوذ البابوية فى إيطاليا . على أن مخاوف البابا سرعان ما زالت ذلك لأن كارل طرد ديزيديراتا إلى بلاط أبيها لأنها كانت عاقراً على حد قول كارل ذاته . وأراد كرلمان أن ينتقم لشقيقة زوجه من الإهانة التى ألحقها بها كارل ولكنه توفى فجأة فى عام ٧٧١ . فرت جربرجا وطفلها إلى بلاط أبيها ملك اللومبارد ، بينما قصد نبلاء وأساقفة مملكة كرلمان إلى بلاط كارل واعترفوا به ملكاً عليهم ، وهكذا دانت كل المملكة الفرنجية لكارل وحده .

فى خلال ذلك الوقت كان دزيدريوس (٧٥٦ — ٧٧٤) قد رفع مظلمة ابنته مطلقة كارل إلى البابا هادريان (٧٧٢ — ٧٩٥) طالباً منه أن يعترف بحفيده ابن كرلمان ملكاً على الفرنجة خلفاً لأبيه المتوفى . ولكن البابا رفض وراح يطالب دزيدريوس

بأن يرد للبابوية أراضى فاينزا وايمولا وفرارا وانكونا واوزيمو ، بحجة أن هذه الأراضى جميعاً كانت ضمن الأراضى التى كان الملك پبن قد تعهد بردها للبابوية .

ظن دزيدريوس أن الملك كارل منصرف كاية لمشاكل مملكته وقرر تقليم أظافر البابا هادريان ، فقام بغزو البنتابولس وأعد العدة لحصار روما . استنجد البابا بكارل، ولما كان الملك الفرنجى فى حربه ضد السكسون فقد أرسل أوامره إلى ديزدريوس أن يسلم الأراضى التابعة للقديس بطرس إلى البابوية ؛ ولما رفض دزيدريس الاستجابة لهذه الأوامر قام كارل بغزو لومبارديا فى عام ٧٧٣ وحاصر الملك اللومباردى فى مدينة بافيا ، ثم أمضى كارل عيد الفصح لعام ٧٧٤ فى مدينة روما . وبعد قليل استسلم دزيدريوس فأرسل إلى فرنسا حيث أودع أحد الأديرة ، أما ابنه أدلكس Adelchis فقد هرب إلى القسطنطينية حيث توفى بعد بضع سنوات .

هكذا انتهت مملكة اللومبارد ، وأعلن كارل نفسه ملكاً عليها وتلقب بلقب .

Carolus, gratia Dei rex Francorum et Longobardorum atque patricius Romanorum

وفى عام ٧٨٠ عين كارل عشرين كونتا فرنجياً لحكم المملكة تحت إمرة ابنه پبن الذى توجه ملكاً على اللومبارد . وقد تسلم البابا اكزارخية راڤنا والبنتابولس ودوقية روما وبعض المدن فى توسكانيا .

وفى هذه الفترة من تاريخ العصور الوسطى ظهرت الوثيقة الشهيرة باسم « هبة قنسطنطين » Donatio Constantini . ويحتمل أن هذه الوثيقة كانت موجودة فى غرب أوربا قبل ذلك ولكنها استخدمت فى الربع الأخير من القرن الثامن بصفة قاطعة كبرهان لإقناع كارل ملك الفرنجة بأن ما يسديه للبابوية من خدمات فى إيطاليا بإرجاعه « الأملاك البطرسية » إليها إنما هو تجديد لما فعله قنسطنطين العظيم من قبل مع البابا سلفستر . وهذه الوثيقة مزيفة تماماً ، ولا نعرف كاتبها ولكن أغلب الظن أنها كتبت فى روما بيد مسئول فى البلاط البابوى أو ربما بيد البابا ذاته . ويرجع الفضل فى اكتشاف زيف هذه الوثيقة التى ظلت مقبولة فى غرب أوربا بل وفى بيزنطة على أنها أصيلة ، إلى العالم لورنتيوس ڤاللا فى القرن الخامس عشر . وهذه الوثيقة الخطيرة تروى أن قنسطنطين كان مصاباً بمرض عضال هو الجذام وأن كهنة الأوثان قد جمعوا له

عدداً كبيراً من الأطفال الرضع لينحروهم ويغتسل قنسطنطين بدمهم لكى يبرأ ، وأمر الإمبراطور بإعداد هذه « المذبحة » وراحت أمهات الأطفال الأبرياء يولولن على صغارهن الذين أعدوا للذبح . على أن قنسطنطين أشفق على هؤلاء الصغار الأبرياء وأعادهم إلى أمهاتهم . وفى هذه الليلة زاره فى المنام القديسان بطرس و بولس وأرشداه إلى مخبأ البابا سلفستر وبشراه بأن شفاءه من هذا المرض ورجسه سوف يتم على يد هذا البابا . وقد عمد البابا الإمبراطور وطهره من رجس هذا المرض الخبيث بماء المعمودية . ولما أن برأ قنسطنطين من دائه أراد أن يكافئ البابا على حسن صنيعه له فقرر الانسحاب من مدينة روما وإقامة عاصمته فى القسطنطينية ، ليترك مدينة روما تحت سلطان البابا فقط . كما منح قنسطنطين للبابا سلفستر حكم إيطاليا والغرب كله .

وأنعم قنسطنطين على البابا ورجال الإكليروس كذلك بعديد من الامتيازات التى كانت وقفاً على شخص الإمبراطور والسيناتو وبذلك صار شرف أسقفية روما نداً لشرف الإمبراطورية ذاتها : من ذلك أن يقيم البابا فى قصر اللاتيران وأن يرتدى التاج والعباءة الأرجوانية ويحمل الصولجان ويقوم على خدمته هيئة من المستشارين فى البلاط البابوى . كذلك صار من حق رجال الإكليروس أن يمتطوا الجياد البيضاء ويتمتعوا بحصانات السيناتوريين والباتريكيان[٦] . وهذه « المزيفة » هى واحدة من اللبنات الهامة إلى جانب النظرية البطرسية التى قامت عليها ادعاءات البابوية فى السلطانين الروحى والزمنى على مدار العصور الوسطى .

وإذا كان كارل فى قضائه على مملكة اللومبارد قد أسدى خدمة جليلة للبابوية

---

(٦) أنظر النص الكامل لهذه الوثيقة المزيفة والمعنونة Edictum Constantini فى حاشية الكتاب :

"Et sicut imperialis militia ornatur ita et clerum Sanctae Romanae ecclesiae ornari decernimus.. Unde ut pontificalis apex non vilescat sed magis quam terreni imperii dignitas, et gloria et potentia decoretur; ecce tam palatium nostrum quanque Romanam urbem et omnes Italiae et occidentalium regionum provincias, loca et civitates, praefato beatissimo papae Sÿlvestro universali papae contradimus atque relinquimus .. Ubi enim principatus sacerdotum et Christianae religionis caput ab imperatore coelesti constitutum est, iustum non est ut illic imperator terrenus habeat potestatem."

فإنه بحروبه ضد السكسون قد كسر شوكة الوثنية ورفع لواء الكاثوليكية عالياً فى هذه المجاهل الضاربة فى التبربر . ولقد استمرت حروبه ضد السكسون من عام ٧٧٢ حتى عام ٨٠٤ . وعلى عهد كارل كان الجرمان يمثلون قسمين متميزين : فكانت الشعوب المقيمة فى المناطق غربى الراين تدين بالمسيحية وقد أخذت تتعرف على أساليب الحضارة ، أما القبائل الهائمة شرقى الراين فقد كانت على الوثنية والتبربر . وكان من الأهمية بمكان لكيان الجرمان أن يوحد هذان القسمان ، وهذا ما قام به كارل ؛ ومن ثم فقد كتب لألمانيا سجلها الماجد فى التاريخ . قام كارل بأول معاركه ضد السكسون فى عام ٧٧٢ وأخضع قبائل الانجريان Engrians واستولى على مركزهم الحصين فى ارزبورج حيث شيد كنيسة ، ثم أقسم له زعماؤها يمين الولاء وقدموا له الرهائن . وبعد أن أقام كارل حاميات لحراسة ارزبورج عاد إلى الغرب .

على أن السكسون قد انتهزوا فرصة انشغال كارل فى حروبه ضد اللومبارد فقاموا بالثورة واستولوا على ارزبورج وطردوا منها الحماية الفرنجية وضربوا القرى والحصون حتى حدود الراين ونهبوا دير فرتزلار كما حطموا كل الكنائس التى صادفوها فى طريقهم واضطر كارل إلى قتال السكسون من جديد فهجم عليهم فى عام ٧٧٥ وأوقع الهزيمة بالوستفاليين والايستفاليين والانجريان ، وأدى زعماء هذه المناطق يمين الولاء من جديد للعاهل الفرنجى . وبرغم هذا نجد السكسون يقومون بالثورة مرة أخرى فى عام ٧٧٦ حينما كان كارل يعمل على إخضاع دوقى فريولى و بنفنتو فى إيطاليا ؛ ولذا فقد سارع كارل بالهجوم على الثوار وأخذهم على غرة واضطرهم إلى التسليم له واعتناق المسيحية . على أن زعيما وستفاليا هو ڤدوكند Widukind رفض أن يستسلم لكارل وفر إلى الشمال .

أراد كارل أن يدخل الرهبة فى قلوب السكسون وأن يظهر لهم قوته فعقد مجلساً (دياط Diet) فى بلدة بادربورن فى ربيع عام ٧٧٧ حضره نبلاء الفرنجة والسكسون ، حيث أعلن الزعماء السكسونيون الذين كانوا قد اعتنقوا المسيحية ولاءهم لكارل وللكنيسة . وبينما كان كارل فى بادربورن قصد إليه سفراء من قبل بعض الزعماء العرب فى أسبانيا يعرضون عليه ولاءهم مقابل أن يساعدهم ضد عبد الرحمن الأموى . وكان هذا العرض من العوامل التى شجعت كارل على القيام بحربه الإسبانية ضد العرب فى عام ٧٧٨ . قسم كارل جيشه إلى قسمين التقيا أمام سراجوسا ، ومع أنه لم ينجح فى الاستيلاء على هذه

المدينة إلا أن ظهوره بكتائبه فى إسبانيا قد قوى من شوكة حلفائه شيوخ برشلونة وجيرونة وهيوسكة ، الذين أدوا له يمين الولاء والطاعة . وعند عبوره ورجاله جبال البرانس عائداً إلى غالة هاجمت قبائل الباسك Basques مؤخرة جيشه ، مع أن هذه القبائل كانت تتظاهر بالصداقة لملك الفرنجة . وقد وقع كثير من فرسان كارل ضحايا لغدر الباسك ومن بينهم كونت مرموق من بريتانى ذاع صيته فى الشجاعة هو رولاند . وحول رولاند هذا ذاعت ملاحم أدبية رائعة تمجد بطولته وحبه لسيده « إمبراطور الله » فى حربه ضد أعداء الفرنجة . وقد كتبت « أنشودة رولاند » Chanson de Roland هذه فى شعر رائع باتت تتغنى به بلدان غرب أوربا ، وكانت ملحمة رولاند هذه عاملاً هامًّا من عوامل « الاستنفار » Excitatorium فى الحرب المقدسة التى تبنتها بيوتات دير كلونى والبابوية فى حركة الاسترداد الإسبانية ثم فى الحرب الصليبية (٧) .

ثارت سكسونيا بينما كان كارل يحارب فى إسبانيا ، وألهب الزعيم ڤيدوكند مشاعر بنى جلدته ضد الفرنجة وكنائسهم . واضطر كارل إلى قيادة حملة أخرى ضد سكسونيا ، ولكن ڤيدوكند أفلت من يديه . قسم كارل أراضى سكسونيا إلى أقسام أشبه ما تكون بنظام الأبروشيات الكنسية فى مملكة الفرنجة ، ثم عين عليها قسيسين ورهباناً وأوصاهم بالاختلاط بالشعب لتبصيرهم بروح الدين المسيحى ، الذى فرضه كارل على شعوب

---

(٧) La Chanson de Roland :

E ! France dulce, cun hoi remendras guaste
De bons vassals, cunfundue e defaite !
Li emperere en avrat grant damage."
A icest mot sur sun cheval se pasmet. . .
Dist Oliver : "Or vos oi jo parler.
Jo ne vos vei, veied vus Damedeu !
Ferut vos ai, car le me pardunez !"
Rollant repunt : "Jo n'ai nient de mel.
Jol vos parduins ici e devant Deu."
A icel mot l'un a l'altre ad clinet.
Par tel amur as les vus deseured.

سكسونيا هذه المرة بحد السيف . وحرصاً على أعناقهم توافد الناس فى جماعات غفيرة يلقون بأنفسهم فى مياه الأنهار وقد غاص القسيسون الفرنجة فى المياه حتى ركابهم ليقوموا بطقوس العماد لهذه الأعداد الضخمة من الداخلين إلى الكاثوليكية * .

ثم أصدر كارل فى عام ٧٨٠ مرسوماً يحدد السياسة التى استنها فى حكم هذه الأراضى المفتوحة . وقد أعطى القانون صلاحيات واسعة للكنيسة وأنعم عليها بحصانات وضمانات مختلفة ، لأنها كانت ساعده الأيمن فى نشر النفوذ الفرنجى بين هذه الشعوب المغلوبة . وذلك بالأسلوب الدينى . ووفق هذا القانون تمتعت الكنيسة بحق حماية من يلجأ إليها من المجرمين ومنحه « اللجوء » . ونص القانون على معاقبة من يلحق ضرراً بالكنيسة أو بنشاطها بعقوبة الموت ، واندرج تحت طائلة هذه العقوبة أيضاً تقديم الأضحيات الآدمية وقتل القسيسين ورفض العماد وحرق جثث الموتى وإغفال مراسيم الصوم . كذلك تقرر أن يكون الأحــد يوماً للرب ، وألزمت الرعية بدفع العشور للكنيسة .

مرة أخرى ظهر ڤيدوكند فى عام ٧٨٢ وتنكر السكسون للقسم الذى كانوا قد أدوه لكارل وعملوا على طرد الفرنجة من بلادهم . أرسل كارل جيشاً لقمع هذه الثورة ولكن بعض الزعماء السكسون غرروا بقيادة هذا الجيش وأوقعوه فى كمين عند جبال سونتل على مقربة من أوزنابروك حيث قضى عليه تماماً . وغضب كارل وقاد جيشاً قوياً

* كانت مراسيم العماد تجرى على المنوال الساذج الذى نسوقه فى الآتى :

Q. Forsachistu diobolae ?	A. Ec Forsacho diobdae.
Q. End allum diobologeldae ?	A. End ec Forsacho allum diobolgelde.
Q. Gelobistu in got alamchtigan Fadaer ?	A. Ec gelobo ..
Q. Gelobistu in Grist godes suno ?	A. Ec gelobo ..
Q. Gelobistu in halogan gast ?	A. Ec gelobo ..

وعسكر برجاله عند ڤردان وأرسل ينذر الزعماء السكسون ويطالبهم بتسليم كل من تسببوا فى إبادة جيشه . وقدم له الزعماء أربعة آلاف وخمسمائة من الرجال ، وأمر كارل بإعدامهم جميعاً . ولقد جن جنون السكسون بسبب هذه المذبحة ودار القتال عنيفاً بينهم وبين العدو الفرنجى . هلك الآلاف من شعوب السكسون فى هذه الحرب القاسية ووقع آلاف آخرون فى الأسر ، وقد قام كارل بتوطينهم فى غالة . ولما دارت الدائرة على الزعيم ڤدوكند ورأى أنه يحارب حرباً لا محالة خاسرة سلم نفسه لكارل طالباً العفو . وقد أنزله الملك الفرنجى فى آتينى Attigny فى غالة حيث قبل المعمودية . واختفى ڤدوكند من صفحات التاريخ ليظل فى فترة متأخرة بطلا أسطوريًّا . وكانت آخر ثورات سكسونيا فى عام ٨٠٤ عندما تمردت على كارل جماعة نوردالبنجيان Nordalbingians وهى إحدى القبائل القاطنة شمالى همبورج . وقد قمع كارل هذه الثورة مثلما قمع سابقاتها ، ثم رحل عشرة آلاف من بنيها بعد أن صادر أملاكهم ووزعها على أفصاله من كونتات ورجال دين ورؤساء أديرة . وهكذا تمت السيطرة على سكسونيا بعد جهد شاق طويل . ودخلت المسيحية هذه البلاد بحد السيف وهى وسيلة عنيفة ولا أخلاقية ، ولكن الغريب فى الأمر أنه بعد مضى قرن ونصف من الزمان كانت سكسونيا قد تشربت تماماً بتعاليم المسيحية وغدا شعبها أكثر شعوب الجرمان قاطبة تمسكاً بالمسيحية وغيرة عليها . ولقد ظهرت فى منتصف القرن التاسع ملحمة شعبية دينية بعنوان « هلياند » Heliand تفصح معانيها عن تفهم واع للمبادئ المسيحية عند السكسون وتعبر عن « غيرة مسيحية » زائدة لدى هذا الشعب .

وقد أقام كارل عدة أسقفيات فى سكسونيا : فى كل من مندن Minden وبادربورن Paderborn وڤردان Verden وبرمن Bremen واوزنابروك Osnabrueck وهالبرشتات Halberstadt ، ومونستر Münster وهامبورج . وقد قدر لهذه المراكز أن تزدهر وتثرى فى النواحى الحضارية المختلفة وانتشرت من حولها المدن والكنائس فكانت عاملا من عوامل الإنعاش الاقتصادى للمجتمع الوسيط .

أما عن دوقية بڤاريا فكانت أشبه ما تكون بدولة مستقلة بأراضيها الواقعة بين نهر إن Inn ونهر ليخ Lech . وكانت تحكمها أسرة نبيلة بالتوارث : وكان لها تنظيمها الكنسى المستقل الذى كان على رأسه رئيس أساقفة سالزبورج ، وكانت لها قوانينها الخاصة وموظفوها المستقلون . حقيقة أن دوق بڤاريا كان يدين بالولاء للملك الفرنجة ، ولكن هذا الولاء كان اسميًّا لأنه كان مستقلاً بمجالسه وشئون دوقيته السياسية والكنسية . ولقد حاول الدوق تاسيلو Tassilo أكثر من مرة أن ينفض عن كاهله هذه التبعية الاسمية لملك الفرنجة ولكن محاولاته باءت بالفشل . وكانت زوج تاسيلو ابنة للملك اللومباردى دزيدريوس ، ولذا فقد كان من طبيعة الأمور أن تحرض زوجها الدوق ضد عدو والدها كارل الفرنجى . وفى عام ٧٨٢ استدعاه كارل إلى مدينة ورمز حيث جدد أداء يمين الولاء والطاعة له أمام المجلس . وبعد ذلك بخمسة أعوام عندما استشعر كارل أن تاسيلو يخطط للقيـــام بالثورة بادر الملك الفرنجى بإرسال جيشه لإرهابه . واضطر تاسيلو إلى أن يسلم دوقيته لكارل على أن يتلقاها منه إقطاعاً فيصبح وفق التقاليد الإقطاعية « رجل الملك » . وبرغم هذا فإنه بعد أقل من عام وجه إليه كارل تهمة عدم الولاء له وحكم عليه بالإعدام . وبعد توسلات كثيرة عدل كارل عن حكمه على الدوق ، ولكنه أجبره وجميع أفراد أسرته على دخول أحد الأديرة . وبذلك ضمت بڤاريا إلى مملكة الفرنجة ، فقسمها كارل إلى كونتيات أقطعها لأتباعه .

أما الآڤار ، وهم من أصل تركى ، فكانوا قد استقروا فى أواسط الدانوب وأسسوا مملكة كبرى امتدت على طول الأراضى التى تكون فى عصرنا الحديث الجزء الشرقى للمجر . وأخضع الآڤار قبائل كثيرة من السلاف لسيطرتهم ، وكانوا يرهبون جيرانهم بإغاراتهم المتكررة التى اتسمت بالسرعة والعنف . وفى عام ٧٨٨ أغاروا على بڤاريا فقرر كارل أن يحاربهم ، فقاد جيشاً فرنجياً يؤازره جيش آخر من اللومبارد بقيادة ابنه بپن . غير أن ثورة مفاجئة فى سكسونيا اضطرت كارل إلى وقف القتال ، ثم استأنف

حربه ضد الأفار بعد أن قمع ثورة السكسون . على أن هذه الحرب لم تحسم نهائيًّا إلا فى عام ٧٩٦ عندما استولى پبن على قصر خان الآفار وعلى كنوزه . وقد أجبر الخان (أو الخاقان) على الخضوع لكارل . وبعد هذا الإذلال لم تعد لمملكة الآفار قوتها السابقة وباتت عاجزة عن الدفاع عن كيانها فوقعت نهباً للعناصر السلافية والماغيارية .

وقد احتل السلاف المنطقة الواقعة بين نهرى إلب ونيمن Niemen ، تلك المنطقة التى كانت تحت قبضة القوط والبرجنديين واللومبارد قبل هجراتهم جنوباً على أراضى الإمبراطورية الرومانية . ولعل أهم ما يستلفت النظر فى تاريخ الجرمان فى العصور الوسطى هو أنه بعد أن كونوا لهم ممالك قوية راحوا يعملون على إعادة فتح هذه الأراضى من جديد ، واتجهت حركتهم التوسعية الآن على الجبهة الشرقية بعد أن دانت لهم الأراضى الإمبراطورية كلها فى الغرب . ومن هنا سعى الجرمان نحو فتح الأراضى التى استقر فيها السلاف بهدف استعمارها وجرمنة هذه العناصر أيضاً . وكان كارل أول من أقدم على هذه الخطة ، فقاد حملة فى عام ٧٨٩ غربى نهر الأودر حيث دانت له جماعات الأبوترايت Abotrite والفلتزيس Wiltzes . وقد تمرد الفلتزيس ضد كارل فى عام ٨١٢ ولكنه أخمد ثورتهم دون عناء كبير .

كذلك كانت بوهيميا تخضع لعنصر سلافى من التشيك ، فأرسل كارل حملة ضدهم فى عام ٨٠٥ وأجبرهم على دفع جزية له وعلى الاعتراف بسلطانه عليهم . وإلى جانب كل هذا نجح كارل فى بناء أسطول بحرى استول به على جزر سردينيا وكورسيكا وجزر البليار . وفى عام ٧٩٥ نظم كارل الأراضى التى نجح فى غزوها فى أسبانيا إلى وحدة عرفت بالمارك أقام عليها حاكماً بلقب مارك جراف أى الكونت الحامى للحدود . ومن هذا المارك بدأت عمليات التوسع جنوباً حتى وصلت حدود شرلمان (كارل) إلى نهر الابرو فى عام ٨١٢ .

من هذا العرض الموجز لحروب شرلمان يتضح أن سنى حكمه جميعاً كانت مليئة بالحروب فى جبهات متعددة . وقد كان النجاح حليف شارل العظيم (كارل — شرلمان)

فى كل الحروب التى قد خاضها واتسعت حدود مملكته إلى حد أنها أعادت للأذهان ذكريات الإمبراطورية الرومانية ذاتها . ومن هذا الشعور تولدت فكرة إحياء الإمبراطورية فى الغرب التى كانت قد سقطت فى عام ٤٧٦ على يد أودواكر القوطى .

والحق أن فكرة الإمبراطورية كانت قد طمست فى أذهان سكان الولايات بعد الغزوات المتبربرة ، التى قطعت هذه الولايات عن الحكومة المركزية والتى أقام الزعماء البرابرة فيها حكومات أو ملكيات مستقلة تماماً عن التاج الإمبراطورى فى روما الجديدة (القسطنطينية) . ولكن كنيسة روما القديمة وعلى رأسها البابا كانت تقف شامخة تدلل بكيانها وهيبتها على فكرة الوحدة الضائعة ، ولقد أيدها فى هذا العقيدة الرسولية الواحدة والطقوس المتماثلة والتنظيم الكنسى الواحد . كذلك كان لأسقف روما اليد الطولى فى تنصير معظم شعوب الغرب المتبربر ، فصار للبابوية هالة الحاكم الروحى الأول على كل كنائس الغرب ونظرت شعوب غرب أوربا إليه على أنه وكنيسته يمثلان الرابطة التى تشد جميع المسيحيين تحت لواء كاثوليكى واحد . خاصة بعد أن استؤصلت شأفة الأريوسية من بين الكنائس الجرمانية المختلفة . وعلى هذا صارت كنيسة روما بمثابة الإمبراطورية الروحية الشاملة . ولكن البابوات لم ينسوا أن الإمبراطورية الدنيوية الشرعية كانت قائمة وفى ثقل على ضفاف البسفور فى بيزنطة . تلك الإمبراطورية التى كان لا بد لها أن تدوم ما دامت هنالك حياة على وجه المسكونة . ولذا كان لزاماً على البابا أن ينظر إلى الجالس على عرش قنسطنطين على أنه الرأس الأول وكان خليقاً به أن يخضع له . ولكن البابوات قد ساءهم موقف أباطرة بيزنطة وكنيستهم فى أيا صوفيا : فلقد أهين بابوات كثيرون ونكل بهم ونفوا عن كرسى القديس بطرس بسبب استبداد الجالس على عرش قنسطنطين ، كما وأن الهرطقات التى لم تنته فى الكنيسة الشرقية كانت مبعث آلام مبرحة لخليفة القديس بطرس . كذلك لم تجد صرخات البابوية آذاناً صاغية فى القسطنطينيه عندما كان اللومبارد والعرب يهددون مدينة روما ذاتها .

والحق أن الإمبراطور فى بيزنطة كان دائماً منصرفاً إلى التهديدات التى لم تنقطع

على حدود إمبراطوريته الشرقية ، ومن ثم كان عاجزاً العجز كله عن أن يمد يد العون للبابا ولمدينة روما . كذلك اعتاد الإمبراطور منذ عصر قنسطنطين العظيم أن يضطلع بمهمة حامى الكنيسة والحكم الأول فى مسائل الهرطقة . وكان أسقف بيزنطة يخضع لمشورته إن لم يكن لإمرته ، بل كان من حق البازيليوس Basileus أن يخلع من البطارقة من يشاء وأن يرفع على عرش أيا صوفيا من يشاء أيضاً . وكان طبيعيًّا أن تستنكر البابوية هذا التدخل العلمانى البغيض فى شئون كان يرى البابا دواماً أنها من صميم اختصاصاته كحامل مفاتيح القديس بطرس وكصاحب الحق الأوحد فى الحل والربط على الأرض وكذلك فى السماء . ولما احتدم الجدل حول الأيقونية واللاأيقونية فى بيزنطة وقرر الأباطرة الأيسوريون تحطيم أيقونات القديس بطرس ذاته فى مدينة روما ، فزع البابا وأيقن أن الجالس على عرش قنسطنطين قد تردى فى الكفر ، فكتب إليه صراحة بحقيقة مشاعره وأنذره بأنه إن هو اقترب من مدينة روما فإن شعوب الغرب قاطبة ستحمل سيوفها للدفاع عن السيد البابا وعن أيقونات أمير الرسل .

ولعل أهم حقيقة يجب مراعاتها فى هذا الصدد هى أنه فى القرون الأولى للعصر المسيحى كانت مراكز الفكر والتعمق اللاهوتى جميعاً تقع فى النصف الشرقى للإمبراطورية على حين أن تلك المراكز فى القرن الثامن قد توارت واختفت تماماً ، وهكذا بعد أن كان الغذاء الروحى يفد من الشرق لم يعد هنالك شىء يذكر يأتى من هنالك ، اللهم إلا سلسلة من الهرطقات والتجديف على الأب والابن والروح القدس ومحاولات لتدنيس الصور المقدسة للقديسين والقديسات . وكان الغرب قد أنجب عمداً باتوا يغذونه غذاء روحيًّا ، وصار بمقدور كنيسة روما أن تفاخر بأمبروز وأغسطينوس وجريجورى العظيم وكولومبا وبونيفاس وكلهم من القديسين .

كذلك قامت فى غرب أوربا مراكز ثقافية هائلة باتت مناراً للفكر واللاهوت والعلوم المختلفة ، ولم يعد هنالك مبرر للنظر إلى الإسكندرية وأنطاكية وأورشليم ، تلك المدائن التى ضاعت من الإمبراطورية تماماً . وراح الرومان ينظرون إلى مدارس باريس وتور

وريمز وكنتر برى ويورك وميتز وكولون ليتلقوا منها المفاهيم الكاثوليكية . من هنا راح البابا يفكر جاداً فى التمرد على الإمبراطور « الشرقى » ويبحث عن بديل يشد أزره فى الغرب . وقد وجدت البابوية ضالتها فى الجالس على عرش ملكة الفرنجة ، ذاك الحليف المخلص الذى نجاها من مخالب اللومبارد والذى نشر الكاثوليكية بحد السيف بين الجرمان الوثنيين والعناصر السلافية .

كذلك كان فى روما حزب قوى راح يفكر فى إعادة المجد القديم إلى روما الخالدة رأس العالم . على أن أعضاء الحزب كانوا ساخطين على البابا بسبب استبداده وتسلطه على شعب المدينة ، ولذلك فإنهم فى عام ٧٩٨ قاموا بالثورة ضد البابا ليو الثالث فأمسكوا به وضربوه ثم طردوه عن المدينة متهمين إياه بالغش .

هرب البابا إلى حليفه شرلمان وقابله فى مدينة بادربورن وتوسل إليه أن يعيده إلى عرشه وأن يبسط عليه الحماية . ولم يتوان شرلمان فى تقديم العون للبابا . فأرسله معززاً مكرماً فى حماية ضباطه إلى مدينة روما ، وبعد قليل وصل شرلمان ذاته إلى المدينة ليحسم الموقف . وفى روما عقد شرلمان محكمته وظهر ليو وخصومه أمام قضاة العاهل الفرنجى وأقسم البابا أنه برىء من الجرائم والاتهامات الموجهة إليه من قبل أعدائه الحاقدين المتآمرين . وقضى شرلمان ببراءة ليو الثالث وأعاده إلى عرش البابوية[٨] . وحلت ليلة عيد الميلاد لعام ٨٠٠م وامتلأت كنيسة القديس بطرس بالمصلين وبضباط شرلمان المدججين بسيوفهم . وبينما كان شرلمان يركع للصلاة أبرز البابا ليو الثالث تاجاً ووضعه على رأس

---

(٨) M.G.H.SS., Annales Regni Francorum :

"Post septem vero dies Rex, concione vocata, cur Romam venisset omnibus patefecit, et exinde cotidie ad quae venerat facienda operam dedit. Inter quae vel maximum, vel difficillimum erat, quod primum inchoatum est, de discutiendis quae Pontifici objecta sunt criminibus. Qui tamen postquam nullus probator criminum esse voluit, coram omni populo in basilica beati Petri apostoli evangelium portans ambonem conscendit, invocatoque sanctae Trinitatis nomine, jurejurando se ab objectis criminibus purgavit.'

العاهل الفرنجى ثم انحنى له على عادة القدامى ، وهنا صاح جميع الحاضرين :

"Carolo augusto, a Deo coronato, magno et pacifico imperatori Romanorum, vita et victoria."

وهكذا أصبح شرلمان إمبراطوراً رومانياً(٩) . ويحدثنا إينهارد Einhard صاحب كتاب Vita Caroli Magni أن سيده قد أعلن فيما بعد أنه لم يكن على علم بنوايا البابا فى أمر تتويجه إمبراطوراً وإنما هو قد أخذ فى هذا الأمر على غرة ، بل يضيف نفس المؤرخ قائلا بأنه « لو كان شرلمان قد علم مسبقاً بما كان سوف يتم لما كان قد ذهب للصلاة برغم ما لهذا العيد وللصلاة فيه من مقام » فى نفس شرلمان(١٠) . وهذه الرواية محيرة للغاية : فنحن من ناحية لا ندرى كيف صاحت الآلاف من المصلين باللاتينية فى وقت واحد ، هاتفة بحياة شرلمان أغسطسا لله فى آن واحد وبعبارة واحدة توحى بأنهم كانوا قد دربوا على ترديدها قبل دخول الكنيسة . كما وأن هنالك شواهد على أنه فى نفس الوقت الذى اندفعت فيه تلك الهتافات من الحناجر كان بعض رجال الحرس الشرلمانى الكبير يعملون سيوفهم فى رقاب بعض الساخطين من الرومان خارج بوابات كنيسة القديس بطرس . ومن ناحية أخرى لا نرى مبرراً يدعو اينهارد إلى اختراع هذه الرواية ، فلا بد أن يكون لها أساس من الحقيقة . وتزداد حيرتنا عندما نعلم أن شرلمان كان راغباً الرغبة كلها فى أن يزدان رأسه بتاج أغسطس ، وبأنه كان يفكر بالفعل فى حمل التاج واللقب الرومانيين ، فقبل هذه الحادثة الخطيرة بوقت وجيز كان شرلمان قد أرسل سفراءه إلى بلاط القسطنطينية ليطلب يد الإمبراطورة الأرملة ايرينى الجالسة على العرش وصية على ابنها القاصر قنسطنطين . وليس بمستبعد أنه قد طرح على ايرينى مسألة الاعتراف به إمبراطوراً على الغرب إلى جانب الإمبراطور الشرقى مثلما كانت الحال قديماً حينما

---

(٩) Ibid.: "Ipsa die sacratissima natalis Domini cum Rex ad missam ante confessionem beati Petri apostoli ab oratione surgeret, Leo papa coronam capiti eius imposuit, et a cuncto Romanorum populo adclamantum est : "Karlo Augusto a Deo coronato, magno et pacifico Imperatori Romanorum, vita et victoria." Et post laudes ab Apostolico more antiquorum principum adoratum est, atque ablato patricii nomine, Imperator et Augustus appellatus est."

(١٠) Einhard, Vite Karoli Magni, in S.R.G., in usum scholarum.

كان للإمبراطورية سيدان واحد فى روما القديمة وآخر فى روما الجديدة .

على أننا فوق كل هذا نجد فيما كتبه الإنجليزى المعاصر ألكوين Alcuin وهو من رجال بلاط شرلمان المقربين ما يلقى بعض الضوء على هذا الموقف ، فهو يقول مخاطباً سيده شرلمان على أنه « سيدنا داود » : « عزيزنا الغالى داود — إن هذا العالم تحكمه قوى ثلاث : البابوية خليفة القديس بطرس التى أنقذتها أنت بنعمك وحسن صنيعك . والإمبراطورية فى روما الثانية التى صارت أمورها تدعو إلى الخزى والعار.. ثم هنالك القوة الثالثة وهى ملكك أنت الذى عينك له المسيح لحماية شعبه ، وهى أفضل هذه القوى جميعاً لأنه بك أنت فقط تتم الحماية للكنيسة ، وبك أنت تنعم الرعية جميعاً بالعدالة فأنت الرحيم والمنصف للمظلوم والمعزى للفقير »[11] .

هذا عن موقف شرلمان : أما عن الأسباب التى دفعت بالبابا ليو الثالث إلى الإقدام على هذه الخطوة الخطيرة ألا هى نقل التاج إلى رأس زعيم فرنجى متبربر من على رأس صاحب التاج الشرعى خليفة قنسطنطين العظيم فهى أسباب كثيرة . ولعل أول هذه الأسباب أنه لم يعد سراً أن حامل التاج الشرعى كان طفلا عاجزاً سملت عيناه على يد أمه ايرينى ذاتها التى جلست على العرش تحكم بمفردها ، وهذه سابقة خطيرة لأن الغرب لم يألف أن يرى امرأة فى عباءة أرجوانية وتحمل لقب بازيليوس

(١١) P.L., Vol. C, cols. 301-3 : "Gratias agimus celentissimae bonitati vestrae, dulcissime David.. Nam tres personae in mundo altissimae hucusque fuerunt : (id est), apostolicta sublimitas, quae beati Petri principis apastolorum sedem vicario munere regere solet. Quid vero in eo actum sit, qui rector praefatae sedis fuerat, mihi veneranda banitas vestra innotescere curavit. Alia est imperialis dignitas, et Secundae Romae saecularis potentia. Quam impie guberna tor imperii illius depositus sit, non ad alienis, sed a propriis et concivibus, ubique fama narrante, crebrescit. Tertia est regalis dignitas, in qua vos Domini nostri Jesu Christi dispensatio rectorem populi Christiani disposuit : caeteris praefatis dignitatibus potentia excellentiorem, sapientia clariorem, regni dignitate sublimiorem. Ecce in te tota salus Ecclesiarum Christi inclinata recumbit. Tu vindex scelerum, tu rector errantium, tu consolator moerentium, tu exaltatio bonorum."

لابازيليسا[١٢]. ولم تكن الكنيسة الرومانية على استعداد لأن تقر إيرينى على جريمتها البشعة التى ارتكبتها ضد ابنها القاصر ، ومن ثم فإن إيرينى بفعلتها النكراء هذه، قد مهدت لكل من البابا وحليفه المتبربر القيام بهذه الدراما الفريدة فى رحاب القديس بطرس فى روما . ومع أن إيرينى كانت قد أعادت عبادة الأيقونات إلا أن الأسرة التى كانت تنتمى إليها وهى الأسرة الأيسورية كانت قد لطخت سيرة الأسرة برمتها بوصمة الهرطقة والتطاول على مقدسات الآباء الصالحين وتراث الكنيسة الرسولية .

كذلك كان البابا ليو الثالث مدركاً لحقيقة أن الإمبراطور الشرقى — يوم أن كان رجلا لا امرأة — كان عاجزاً كل العجز عن حماية البابا من مخالب اللومبارد ، بل إن وقتاً قد جاء حينما عقدت بيزنطة وإكزارخيتها فى رافنا حلفا ضد البابوية ذاتها مع العدو اللومباردى . وكانت الحجة القوية لدى الحزب البابوى أنه طالما أن الإمبراطور عاجز عن الدفاع عن رعاياه فى روما فإنه من حق هؤلاء الرعايا أن ينقلوا ولاءهم لمن يستطيع حمايتهم . ألم يكن الواجب الأول المقدس على الإمبراطور هو حماية كنيسة الإمبراطورية وتوسيع سلطان نفوذها وتثبيت هيبتها والدفاع عن قوامة إيمانها ؟ أو ألم يفشل الإمبراطور الشرقى فى كل هذا جميعاً ؟ ثم ألم يضطلع شرلمان بكل هذه المهام التى كان خليقاً بالإمبراطور الشرقى أن يقوم بها ؟ على ثقل كل هذه الحجج والأسانيد كانت لدى ليو الثالث من الجرأة والإقدام ما يجعله وكرادلته يفرقون بين الخيال أو النظرية De jure وبين واقع الأمور De facto فقرروا تتويج شرلمان . كذلك كان الشعور المتحفز فى روما فى تلك الفترة أن مدينة القسطنطينية كانت مدينة محدثة نعمة ، ولم ينس البابوات للقسطنطينية أطماعها الرذيلة فى ابتلاع ما كان لروما من حقوق الإمرة على الكنيسة العالمية ، تلك الأطماع التى وضحت فى جلسات المجامع المسكونية المتتابعة . لقد كان لروما دواماً الحق فى انتخاب الإمبراطور ، وهى عاصمة العالم أجمع دون نزاع ، فكيف تستحل بيزنطة لنفسها اغتصاب هذه الحقوق التليدة ؟ لقد حان الوقت لروما لكى تسترد حقوقها المغتصبة ، ولم يكن هنالك سبيل لتحقيق

---

(١٢) Gotifredi Viterbiensis "Pantheon", in M.G.H.SS., Vol. XXII, p. 217 : "unde postquam in manum femine davenerat imperium, dignum erat, ut ad Francos viros potentissimos transferretur".

ذلك إلا بأن تنفض عن كاهلها ذاك العبء البيزنطى الكريه ، بأن تجد لها إمبراطوراً قويًّا يجاورها فى الغرب . كما وأن البابا قد رأى بنفسه أن شرلمان هو رجل كنيسة روما الأول ، وهو الذى نشر السلام فى ربوع غرب أوربا وهو الذى حفظ لكنيسة روما حقوقها مثلما فعل پين القصير من قبل(١٣) . ولكن علينا أن نضيف إلى كل هذه العوامل دافعا أنانيًّا كان يحكم البابا ليو الثالث : فهو فى خطر داهم إن ترك وحيداً أمام الحزب الجمهورى فى روما ، ولكنه آمن على نفسه تماماً إن هو توج شرلمان إمبراطوراً ، لأن هذا الموقف لابد وأن يجبر شرلمان على بسط نفوذه فى قلب المدينة ذاتها ، كما وأنه كان يعلم أن شرلمان سيحطم جهود الحزب الجمهورى فى محاولتهم الاستقلال بمدينتهم . وليس بمستبعد أن يكون البابا ليو الثالث قد تدارس الموقف من كل جوانبه مع مستشارى شرلمان أثناء تواجدهم فى روما وأيضاً مع بعض مواطنى المدينة من الرومان من جماعة السيناتو . ذلك أنه لا يمكننا أن نتصور إقدام ليو الثالث على هذا العمل الخطير دون أن يكون قد ضمن تأييداً ملموساً من جانب شعب روما .

أما القول بأن ما أقدم عليه البابا ليو الثالث فى تتويج شرلمان كان مجرد تمثيلية بارعة لا تعدو الإنعام بلقب وتاج على شرلمان فهو قول ساذج لا تؤيده الوقائع : ذلك أن البابا كان على يقين من أن شرلمان سيسر بالتاج الذى كان يسعى جاهداً للحصول عليه .

على أنه إن كان إينهارد صادقاً فى قوله بأن شرلمان قد عبر عن عدم ارتياحه لما أقدم البابا عليه من تصرف ، فهنالك تبرير لذلك من وجهة نظر شرلمان ذاته . فمما لا شك فيه أن حادث التتويج قد عرقل مباحثاته الدبلوماسية مع البلاط البيزنطى ، كما وأن شرلمان ربما قد امتعض لأن التتويج قد تم دون إعداد خاص لحفل يليق

(١٣) Scriptores Rerum Germanicarum in usum Scholarum, p. 51 :

Hic est Christi miles forti
hic invicte dux cohortis
ducum sternit milia;
Terram purgat lolio
atque metit gladio
ex messe zizania ..

بهذه المناسبة الهائلة ؛ وربما أيضاً — ولعل هذا هو الترجيح الأكبر — أن شرلمان قد غضب لأن البابا هو الذى وضع التاج على رأسه بدلاً من أن يقوم شرلمان بتتويج نفسه بيده .

أرسل شرلمان سفراءه إلى البلاط البيزنطى ليبلغوا السلطات هنالك أن سيدهم قد توج إمبراطوراً ، وكان يقصد من وراء هذا الوقوف على ردود الفعل فى بيزنطة . وزمجرت إيرينى وخلفاؤها فى وجه هذا الزعيم المتبربر الغاصب للقب والتاج ، ولا شك فى أن شرلمان كان مدركاً أن ما أقدم عليه هو والبابا كان عملا غير شرعى تماماً ، لأن الإمبراطورية كانت قائمة بعاصمتها وجيوشها ومجلس شيوخها وكامل أجهزتها على ضفاف البسفور . وشعر الإمبراطور المتوج بحرج التاج على رأسه ويقال إنه لم يكن ليضعه على رأسه كثيراً فهو من وجهة النظر البيزنطية لم يكن أكثر من متمرد ، وأما البابا فلم يكن أكثر من « كاهن آثم » . لذلك فقد كانت كل جهود شرلمان هى السعى نحو اعتراف بيزنطة به إمبراطوراً مهما كلفه هذا من ثمن . ولقد بذلت السلطات البيزنطية جهوداً كثيرة لإرهاب شرلمان فهاجم الأسطول البيزنطى الشواطئ الإيطالية ونشطت الأحزاب الموالية لبيزنطة فى إيطاليا ، خاصة فى مدينة البندقية ضد شرلمان ، لإرجاع السيادة على إيطاليا إلى التاج البيزنطى . وتلقى شرلمان إهانات بالغة مكتوبة من الجالسين على العرش البيزنطى . وبرغم هذا كله لم يكن شرلمان ليتخلى عن اللقب والتاج ، وأخيراً فى عام ٨١٢ عقد الإمبراطور ميخائيل رانجابيه Rangabé صلحاً مع شرلمان واعترف به إمبراطوراً[١٤] .

نظر شرلمان إلى نفسه على أنه إمبراطور الغرب فحسب ، ولم يفكر أبداً فى الانتقاص من كيان أو حقوق الإمبراطور البيزنطى . فهو لم ينظر إلى تتويجه على أنه خلع للإمبراطورة إيرينى عن عرشها ، بل على العكس استمر شرلمان فى مفاوضاته الودية مع بلاط القسطنطينية بغية الاعتراف بشرعيته إمبراطوراً على الغرب .

---

(١٤) انظر رسالة شرلمان إلى الإمبراطور ميخائيل فى الحاشية .

"Nam Aquisgrani, ubi ad inperatorem venerunt, scriptum Facti ab eo in ecclesia suscipientes, more suc id est Graeca lingua laudes ei dixerunt inperatorem eum et Basileum appellantes".

ولكن أهل روما كانوا يخالفون هذا الموقف الذى اتخذه شرلمان . فلقد ظن البابا وشعبه أنهم بهذا قد أنفذوا ثورة هامة وبأنهم قد خلعوا الإمبراطور البيزنطى كلية وأعادوا السيادة الإمبراطورية كلها غربيها وشرقيها إلى إمبراطور أوحد فى الغرب . ولهذا فإن قوائم الأباطرة فى سجلات روما تسجل شرلمان Carolus Magnus (شارل العظيم) خلفاً مباشراً للإمبراطور قنسطنطين السادس ، وأضفوا عليه نفس الشرعية التى كان يتمتع بها أغسطس وقنسطنطين العظيم . وكان البابا يعتقد اعتقاداً راسخاً أن شرلمان هو أصلح أمراء الغرب لحمل التاج الرومانى ، ولم يكن هنالك فى الغرب من هو أهم من رأس الكنيسة الغربية ليقنع الناس بهذا المفهوم الثورى فى حينه . لقد أبرز البابا تاجاً ومنحه لشرلمان ، ولم يكن من حق البابا أن يقتنى تاجاً ولا نعلم من أين قد حصل عليه ، كما وأنه لم يكن من حقه أن ينعم بهذا التاج بالذات على أحد . ولكن ليو الثالث قد استمد هذه الصلاحيات الجديدة التى أعطاها بفعلته هذه للجالس على عرش القديس بطرس من الهيبة التى كان يتمتع بها كأسقف لروما وكرأس للكنيسة اللاتينية كلها ، وأيضاً من الشعور السائد فى أواخر القرن الثامن بضرورة إجراء هذا التغيير . ولولا أن البابا كان مطمئناً إلى أن ما سيقوم به سيقابل بالارتياح فى الغرب لما وضع التاج على رأس شرلمان . أما عن شعب روما فقد كان شعورهم أن سيدهم وممثلهم «كاهن القديس بطرس» Vicariur Sancti Petri يقوم نيابة عنهم بنقل التاج من على رأس ايرينى إلى رأس شارل العظيم . حقيقة أن هذا العمل كان غريباً شاذاً وغير شرعى ، ولذلك فإن أحداً لم يجرؤ على المجاهرة بتبرير قانونى له فى ذلك الوقت . ولم تظهر حجج قانونية للتبرير إلا بعد ذلك بثلثمائة عام .

فلقد جاهر الحزب الإمبراطورى بأن شرلمان قد اكتسب التاج بحد السيف ومن ثم فهو ليس مديناً لأحد بهذا التاج ، لأنه جائزة سواعده الجبارة . والحق أن هذه النظرية هى أوقع النظريات وأقربها إلى المنطق والواقع ، فلولا الفتوحات الضخمة التى اكتسبها شرلمان بحد السيف لما فكر أحد فيه كإمبراطور . أما الحزب البابوى فقد نادوا بأن البابا — بحكمه خليفة للقديس بطرس — قد مارس حقه فى خلع إمبراطور القسطنطينية ووضع التاج على رأس شرلمان . وتقوم هذه النظرية البابوية على الأمر الواقع أيضاً لأن ليو الثالث قام بالفعل بتتويج شرلمان بتاج من عنده . أما الحزب الرومانى ، أى شعب روما ، فقد أعلنوا بأنهم قد مارسوا حقهم المشروع فى انتخاب

الإمبراطور كما كانت العادة من قديم ، ولم يكن ما قام به البابا سوى تفويض منهم بذلك . ومن هنا اشتعلت الحرب الكبرى بين البابوية والإمبراطورية فى العصور الوسطى وبات السؤال المحير لا يجد جواباً : من أفضل؟ هذا الذى يقدم التاج أم ذاك الذى يتلقى التاج ؟ أو بصيغة أخرى أى السلطتين هى العليا ؟ الدنيوية Regales التى يمثلها الإمبراطور أم الروحية Sacerdos التى يمثلها البابا ؟

على هذه الشاكلة أعيد إحياء الإمبراطورية فى الغرب بعد أكثر من ثلاثة قرون ونصف من سقوطها . وتتويج شرلمان حدث من الأحداث الخطيرة فى التاريخ كله ، لأن هذا الحادث قد أثر تأثيراً بعيداً على الأحداث التاريخية التى تلت ، بل إن بعض هذه الأحداث كان نتاجاً مباشراً للتتويج . لقد ضم التتويج إيطاليا وألمانيا فى وحدة كان من أهم نتائجها أن جرت الخراب على كل من الإيطاليين والألمان ؛ على الأقل فى الصعيد السياسى . لقد ظلت إيطاليا عبئاً على كواهل الأباطرة الألمان سبعمائة عام، وقد هلك من دسائس وملاريا إيطاليا معاً أكثر من إمبراطور ألمانى ، وحتى البابوات الألمان كانوا هم أيضاً ضحايا لهذه الظروف التى لم يعتادوها فى بلادهم ، إلى حد أن المعاصرين الألمان قد ظنوا أن الإيطاليين الخونة قد دسوا لهم جميعاً السم ليتخلصوا منهم . وبدلا من أن تتجه ألمانيا إلى تأمين رقعة أراضيها على الجبهة الشرقية ، وهى امتدادها الطبيعى ، ضيعت جيوشها وقتلت خيرة أبنائها فى حملات مضنية عبر جبال الألب حيث هذا « النتوء السياسى » فى شبه الجزيرة الإيطالية ومن بعد فى مملكة الصقليتين . ولكم أضاع الأباطرة الألمان زهرة حياتهم يلهثون من روما إلى كانوسا إلى كلابريا على حساب هيبة ومصلحة التاج الألمانى فى ألمانيا ذاتها ، الأمر الذى جعل الإقطاع يعمق جذوره على الأرض الألمانية ، حيث أضحى كل دوق من أدواق ألمانيا ملكاً ينازع الجالس على عرش إكس لاشاپل سلطته المركزية . ولا نبالغ إن قلنا إن إحياء الإمبراطورية قد جعل الاتحاد الألمانى مستحيلاً والوحدة الإيطالية حلما بعيد المنال حتى حل منتصف القرن التاسع عشر .

ومع أن شرلمان استمر فى حكم أملاكه بعد عام ٨٠٠ بنفس الأجهزة وبنفس الرجال الذين كانوا فى خدمته من قبل ، دون أن يفكر فى إقامة جهاز حكومى متمدين متمركز على شاكلة الحكومة البيزنطية الإمبراطورية ، إلا أنه برغم هذا قد استحدث بعض النظم التى تليق بإمبراطور مسيحى : فلقد أصدر مراسيم عامة طبقها على كل رعاياه

دون تفرقة ، وكلف مبعوثيه Missi Dominici الخاصين بمراقبة تنفيذ هذه القوانين ومعاقبة من يسىء استخدامها من الكونتات والأفصال ، كذلك عقد المجالس التى كانت تضم رجال الإكليروس ونفرا من العلمانيين لتنظيم شئون الكنيسة . وفى مارس عام ٨٠٢ أصدر شرلمان توجيهاته لمبعوثيه هؤلاء يأمرهم فيها بالتعفف عن الرشوة وباتباع الحق وبالتحلى بالخلق الخليق برجال الإمبراطور المسيحى الذى عينه الله لإحقاق العدل على وجه المسكونة . وكان دائماً يختار مبعوثين : الواحد من كبار رجال الدين والآخر من كبار الكونتات ليكون لهما من الهيبة والصلاحيات ما يمكنهما من إرساء قواعد العدالة فى نظر الكونتات والأفصال . وكان عليهما مراقبة سلوك الموظفين الملكيين على مختلف درجاتهم ، وكذا التفتيش على المحاكم المحلية وسجلاتها ، والتأكد من الالتزام بواجبات يمين الولاء والطاعة الذى كان شرلمان قد تلقاه من جميع رعاياه بأنهم « رجاله الأوفياء وأيضاً رجال كنيسته المخلصون » . وكان هؤلاء « الرسل » يبحثون فى شكايات الناس وتظلماتهم ، ويحققون أيضاً فى المسائل الدينية التى تشغل بال الرعية والكهنة ، كل هذا استنه شرلمان « بغية إحقاق العدالة لجميع الكنائس واليتامى والأرامل وسائر الخلق دون إمهال أو إهمال » . وكان عليهم أن يوافوا السيد الإمبراطور بتقارير واضحة عن تنفيذ أوامره وتوجيهاته وقوانينه الإمبراطورية .

وفى أكتوبر لعام ٨٠٢ عقد شرلمان مجلساً هاماً فى عاصمته إكس لاشابل ضم كبار الأساقفة وعلية الموظفين ، لضمان سيادة القانون فى شتى أنحاء الإمبراطورية . وفى هذا المجلس تليت قواعد القانون الكنسى والمراسيم البابوية على القسيسين والدياكنة والأساقفة ، كما تليت قواعد القديس بندكت على الرهبان ورؤساء الأديرة . بعد هذا طلب شرلمان من الكونتات الحاضرين أن يقروا العدالة للغنى والفقير على حد سواء . وقام شرلمان بنفسه أيضاً بشرح القوانين المختلفة فى أنحاء إمبراطوريته لكبار موظفيه ، كما طلب إلى الموظفين فى مناطق تحيا على القانون العرفى أن يبادروا بكتابة هذه القوانين وتسجيلها فور عودتهم إلى أقاليمهم .

ولم يكتف شرلمان بإصداره للقوانين بل اضطلع أيضاً بمهمة القاضى الأكبر فى إمبراطوريته ، وكان من حقه النظر فى أية قضية والفصل فيها ، وكان حكمه فيها نهائياً . كذلك كان من اختصاصه النظر فى الجرائم الكبرى فى الإمبراطورية ، كما

كان من حق المتخاصمين من علية القوم استئناف النظر فى قضاياهم أمام محكمته سواء أكان هذا فى القضايا المدنية أو الكنيسة ، وغالباً ما كانت هذه القضايا نزاعاً حول بعض الأراضى .

أمضى شرلمان آخر سنى حياته فى قصره فى إكس فلقد قارب السبعين من العمر ولم يعد بمقدوره التنقل كما كان يفعل فى سابق العهد من عاصمة إلى أخرى . وكان أبناؤه رجالاً ناضجين : شارل أكبرهم كان بجوار والده الذى وكل إليه أيضاً مهمة الإشراف على أفصال الجزء الشرقى من الإمبراطورية ، أما لويس فكان يعيش منذ طفولته حاكماً على أقطانيا ، وفيها درج على الأساليب الأقطانية وخلق الأقطانيين . وكان لشرلمان أبناء آخرون فى مرحلة الطفولة ، والمعروف أن شرلمان قد تزوج مرات أربع . أما بنات شرلمان فإنه لم يسمح لهن بالزواج ، ولعل السبب فى ذلك يرجع إلى أنه لم يكن ليرغب فى تفتيت أراضى إمبراطوريته بتوزيع بعض الأراضى على الأحفاد الذين قد تنجبهن بناته لعائلات غريبة عن البيت المالك إن هن تزوجن . هذا مع أن شرلمان كان يعلل موقفه هذا بقوله إنه لا يطيق مفارقة بناته له . والمعروف أن بنات شرلمان قد وجدن متنفساً فى قصره الغاص بالوجهاء من رجال الدين والدنيا بأن أقمن علاقات حب مع بعضهم ، الأمر الذى فاحت رائحته وكان سبباً فى بعض المتاعب التى كان على العاهل الفرنجى أن يعالجها فى كياسة فائقة حرصاً على سمعة البيت الكارولنجى . وفى عام ٨٠٦ كتب شرلمان وصيته بتقسيم الحكومة بين أبنائه بعد فاته، وتم هذا فى ضيعته فى ثيونفيل ، ويعرف هذا القرار باسم Ordinatio ، ولكنه لم ينص فيه على من يخلفه على عرش الإمبراطورية ، وإنما اكتفى فيه بتوزيع مهام الحكم على أبنائه Divisio Regnorum كالآتى :

عند وفاة الإمبراطور يحصل ابنه پبن على حكم إيطاليا وبڤاريا وجزء من ألمانيا Alemannia ورائيتيا ؛ أما لويس فيحصل على أقطانيا وغسكونيا وسبتمانيا وبروڤنس وبرجنديا ؛ أما شارل وهو الابن الأكبر فيحصل على قلب الإمبراطورية الكارولنجية المتمثل فى فرنكيا الشرقية ، وجزء من برجنديا وجزء من ألمانيا ونوستريا واسترازيا وجزء من ثورنجيا وسكسونيا وفريزيا وجزء من بڤاريا . وطالب شرلمان أبناءه الثلاثة بمراعاة حقوق الأخوة والمحبة الأخوية فى علاقاتهم الواحد بالآخر ، كما أمرهم بالدفاع

عن كنيسة القديس بطرس فى روما ، وخصص لكل واحد منهم طريقاً خاصاً يسلكه فى طريقه إلى إيطاليا . ونص شرلمان فى وصيته أنه فى حالة وفاة واحد من هؤلاء الأبناء الثلاثة تقسم أملاكه بين الأخوين الآخرين ، إلا إذا كان للمتوفى وريث يرغب شعبه فى أن يخلف أباه فى الحكم .

ولعل أهم فقرة وردت فى هذه الوثيقة تلك التى حرم فيها على أبنائه وذريتهم أن يقدم أحدهم على قتل أحد أحفاده أو يجبره على دخول سلك الرهبنة أو يؤذيه بأى تشويه ، وهذا اعتراف صريح من سيد الفرنجة ينطق بروح العصر الذى يعيش فيه ، ويعكس نوع العلاقات التى كانت تحكم الصلات بين أفراد البيوت المالكة فى مجتمع غرب أوربا فى تلك الفترة من العصور الوسطى .

وقد أقسم أتباع شرلمان يميناً على مراعاة تنفيذ وصيته تلك . كذلك حمل الإمبراطور نسخة من هذه الوصية لسكرتيره الخاص اينهارد وسافر بها إلى روما للحصول على اعتراف البابا ليو بما ورد فيها . ولم يقدر لهذه الوصية أن تنفذ لأن كلا من پبن وشارل قد توفيا قبل وفاة أبيهما ، ولم يبق إلا لويس ايرث كل أراضى شرلمان .

كانت حكومة شرلمان لإمبراطوريته الشاسعة متمركزة فى بلاطه أو فى قصره Palatium ، وكانت سياسة الدولة ترسم فى هذا القصر بواسطة شرلمان نفسه يعاونه مجلس خاص من خلصائه . كذلك كان القصر بيتاً للمال ففيه الخزانة الإمبراطورية وإليه كانت تعود الضرائب من الأتباع والعوائد من الأفصال والمكوس على التجارة والهدايا التى كان يفرضها حامل التاج على مختلف الطبقات الغنية ورسوم النظر فى القضايا والأموال المصادرة والغرامات والجزية المفروضة على الشعوب المقهورة وغنائم الحروب من ذهب وفضة وملابس غالية ومجوهرات ومقتنيات ثمينة .

وكانت النفقات على القصر الإمبراطورى ونفقات إقامة الحفلات واستقبال الضيوف تدبر من دخول ضياع الإمبراطور المنتشرة فى أرجاء الإمبراطورية . ولقد ورث شرلمان هذه الضياع عن الميروفنجيين ، ومع أنه وهب بعض هذه الأراضى للكنائس والأديرة إلا أن هباته كانت ضئيلة إن هى قيست بالهبات التى أنعم بها الميروفنجيون على بيوت العبادة والأديرة من قبل . كذلك كانت هذه الضياع تمد

القصر الإمبراطورى بالغلال والثيران والخنازير والخيول والأنبذة والجعة والأسماك وزيت الزيتون . ولقد جلبت فتوحات شرلمان إليه ضياعاً أخرى كثيرة : فى لمبارديا وفى بقاريا وفى سكسونيا ؛ وأقطع الإمبراطـــور هذه الأراضى لأفصاله وضباطه وموظفى بلاطه .

ولشرلمان أفضال كبرى على المعمار ؛ فلقد شيد كنائس كثيرة أشهرها كنيسة فى آخن Aachen (إكس لاشاپل) وهى التى دفن فيها . كذلك شيد قصراً رائعاً فى عاصمته هذه وآخر فى مدينة انجلهايم Ingelheim وثالثاً فى مدينة نجميجن Nijmegen . وقد أقام قنطرة على الراين عند مدينة مينز ولكن النار التهمتها قبل وفاته . وكان مهندسو شرلمان من الإيطاليين المهرة الذين اتبعوا أسلوب المدرسة البيزنطية المتمثلة فى طرز مدينة راڤنا .

ولعل أهم جهود شرلمان تتمثل فى برنامجه من أجل التعليم والآداب ، وهذا ما نطلق عليه عادة تعبير « النهضة الكارولنجية » . فلقد رحب شرلمان فى بلاطه بعلماء من جنسيات مختلفة أسسوا « مدرسة القصر » Scola Palatina . ولقد اتخذ كل عالم من هؤلاء اسماً كلاسيكيًّا أو من الكتاب المقدس ، أما شرلمان فقد تسمى بداود .

ولقد اهتم شعراء اللاتينية فى بلاط شرلمان بالشعر الكلاسيكى ، واهتم آخرون بالنثر وغيرهم بالتاريخ . ومن بين هؤلاء الأساتذة الذين استعان بهم شرلمان كان ألكوين Alcuin الإنجليزى ، الذى كان مغرماً بالشعر . ولقد تأثر فى أشعاره بالشاعر فورتيوناتوس Fortunatus ، وبعض قصائده تاريخية تتناول إحداها سيرة القديس ولبرورد St. Willibrord ، وأخرى تعالج تاريخ يورك ، وثالثة فيها نحيب على الخراب الذى حل بلندزفارن Lindisfarne . ولعل أهم أشعار ألكوين تلك القصيدة المرموقة بعنوان « مساجلة بين الشتاء والربيع » ، وهى من نفس النمط الشائع آنئذ فى إنجلترا الأنجلو–سكسونية . ولألكوين مجموعة ضخمة من الرسائل النثرية تميل إلى الأسلوب الخطابى ، ولكنها تنطق بروح « الألفة » ، ونجد هذا واضحاً فى رسالته إلى صديقه آرنو Arno أسقف ستراسبورج التى يخاطبه فيها بكنيته التى يناديه بها خلصاؤه فقط وهى « اكويلا »[١٥] . وهو نفس الأسلوب الذى كان يخاطب به ألكوين

---

(١٥) "Venerando volucri et vere amantissimo Aquilae Albinus salutem..".

سيده وصديقه شارل العظيم ، ذاك الأسلوب الناطق « بعدم التكلف » والذى كان ميزة من ميزات كاسيودوروس فى رسائله إلى ثيودوريك العظيم من قبل .

ومن أعلام النهضة الكارولنجية أيضاً ثيودلفوس Theodulfus أسقف أورليان وهو قوطى الأصل . وكان ثيودلفوس شاعر البلاط الشرلمانى الأول ، وقد تميز بالوقار والقول الحق . ونجده فى إحدى قصائده المطولة يقدم النصح لقضاة الفرنجة وذلك من خلال خبرة شخصية مر بها ذاتياً فى رحلته فى الجنوب الفرنسى « مبعوثاً » من شرلمان Missus Dominicus فى عام ٧٩٨ : فمن بين الرشاوى التى قدمها إليه المنافقون قطعة من الذهب المغربى ، وشريحة من الجلد القرطبى ، وكأس زينت ببطولات هرقل . وفى نهاية حياته اتهمه لويس التقى بالخيانة وألقاه فى سجن أنجير Angers . ومن وراء القضبان تذكر أوفيد Ovid فأرسل قصيدة عصماء لأوتون أسقف مودوان Modoin جعل فيه ربة الحكمة تتبنى قضيته وتدافع عنه وتتوسل له فى طلب العون . وشاعرنا هذا رجل مرهف الحس لا يعجبه نفاق رجال القصر وآفات التملق التى كانت متفشية فى هذا العصر ، ولذا فهو يستخف بتلك الألقاب التى خلعها أساتذة « مدرسة القصر » على أنفسهم : فلقد تسمى ألكوين باسم فلاكوس Flaccus ، فى حين أن أنجلبرت Angilbert اتخذ له اسما هوميروس ، بينما كان هؤلاء يخاطبون شرلمان على أنه « داود » . ولم يخف ثيودلفوس اشمئزازه من كلمنت النحوى « هذا الإسكتلندى الكريه » ولا من دنجال Dungal « هذا الإرلندى الطريد » Hibernicus Exul .

ومن أعلام التاريخ فى عصر شرلمان بولس الشماس Paulus Diaconus وهو لومباردى الأصل ، ومن مشاهير الكتاب فى باڤيا اللومباردية قبل سقوطها فى أيدى شرلمان . ولقد أمضى بولس بعض الوقت فى دير مونت كاسينو بعد سقوط دولته اللومباردية ، ولكن شرلمان دعاه للإقامة فى بلاطه ليفيد « مدرسة القصر » بعلمه وقلمه . وفى آواخر سنى حياته عاد بولس إلى الدير حيث عكف على كتابة « تاريخ اللومبارد » وإلى جانب هذا ترك بولس « تاريخاً عاماً » أكمل به ما بدأه يتروبيوس Eutropius من قبل ، كما كتب سيراً لكل من أساقفة متز ولجريجورى العظيم ، وله أيضاً بعض القصائد باللاتينية . على أن « تاريخه » عن اللومبارد هو أهم تاريخ على الإطلاق ،

فهو سجل رائع لهذه المملكة الجرمانية ، ولكنه ملىء بالأقاصيص المثيرة المختلطة بالميثولوغيا التيوتونية وأدب البطولة الأسطورية التى تتضح فى سيرة الملك البوين Alboin وفى قصة جونثرام Gunthram الفرنجى وفى حكاية كوننكبرت اللومباردى Cunincpert وبشكل خاص فى « حياة الملك جرموالد » . وفى هذه القصة الأخيرة تبرز شخصية بولس كدارس متفهم لتتابع الأحداث ولكنه يفاجئنا بتفسيرات خيالية لها . وهو لا يتعمد هنا أن يرسم صورة فنية لأبطال قصته وإنما يدع الأحداث لتنطق بهذه الصورة : فجرموالد كان قد وقع وهو بعد فى سن الطفولة أسيراً فى يد أحد العتاة من قبائل الآفار ، ولكنه غافل عدوه وطعنه بسكينة صغيرة وفر من ذل الأسر .

ودارت الأيام واعتلى جرموالد العرش ولكنه كان قاسياً جباراً فاضطهد خصما له هو برتارى Berthari وتفنن فى تعذيبه ، ولكن برتارى أفلت من سجن الملك وركب اليم يطلب الحماية لدى الإنجليز ، ولكنه قبل أن يعتلى القارب على الشاطئ الفرنسى يسمع صوتاً من السماء بأن « عد إلى أرض الوطن لأن جرموالد قد دفن فى بطن الأرض ميتاً منذ ثلاثة أيام »[١٦] . والشىء الجميل فى بولس هذا هو أمانته العلمية فهو يعترف بأنه قد استفاد من كتاب سكوندوس من ترنت Secundus of Trent (أوائل القرن السابع) فى تاريخ اللومبارد عند تسجيله لكتابه المرموق[١٧] .

وأشهر مؤرخى عصر شرلمان على الإطلاق هو إينهارد صاحب الكتاب الشهير عن « حياة شرلمان » Vita Caroli Magni . وبمقارنة مؤلف إينهارد هذا بما كتبه بولس الشماس فى تاريخ اللومبارد نتبين الفرق بين شطحات الخيال الرومانتيكى عند بولس

---

(١٦) Paulus Diaconus, Historia Langobardorum, 1, V, c. 33 : "Igitur, ut dicere coeperamus, Perctarit egressus de Gallia navem ascendit ut Brittaniam insulam ad regnum Saxonum transmearet. Cumque jam aliquantum per pelagus navigasset, vox a litore audita est inquirentis utrum Perctarit in eadem nave consisteret. Cui cum responsum esset, quod Perctarit ibi esset, ille qui clamabat subjunxit : Dicite illi revertatur in patram suam, quia tertia die est hodie quod Grimualdus subtractus est luce. Quo audito Perctarit post se reversus est veniensque ad litus invenire personam non potuit quae ei de Grimualdi morte nuntiavit; unde arbitratus est, non hunc hominem sed divinum nuntium fuisse."

(١٧) "... Qui usque ad usa tempora succinctam de Langobardorum gestis composuit historiolam...".

وبين التفكير التاريخي الواعي عند إينهارد ، تماماً كما نلمسه فى التمييز بين هيرودوت وتوكوديديز مثلا أو بين فرواسار Froissart وكومين Commines أيضاً . ذلك أن إينهارد قد وضع نصب عينه وحدة معينة ذات نسب وأبعاد كان هو مدركاً لمداها ، ومن هذا المنطلق راح يكون كتابه فى التاريخ : فهو عالم يقدر ما للخطة العلمية من مكانة عند الكتابة وليس هذا بمستغرب على رجل مثل إينهارد الذى انكب على دراسة طرائق القدامى وقواعدهم فى التأليف قبل أن يمسك بقلمه ليخط سيرة شرلمان . وهو لا يبحث عن القصص الخرافية والمغامرات فى حياة بطله ، على الرغم من إعجاب شرلمان الزائد بهذا النوع من التاريخ ، وإنما جاهد اينهارد فى سبيل تقديم صورة موضوعية علمية عن موضوع كتابته ، مهتدياً فى هذا بأسلوب سيوتونيوس Suetonius والحق أنه قد فاقه فى هذا المجال . ولقد قدم لكتاب إينهارد معاصر مرموق آخر هو والافرد ستّرابو Walafrid Strabo فوصف لنا إينهارد على أنه فرانكونى من مين Maine تلقّى تعليمه فى فولدا Fulda ثم أرسله مقدم دير هذه البلدة هدية إلى بلاط شرلمان ليفيد بعلمه وبقلمه . ولقد وجد شعراء « مدرسة القصر » فى التناقض الصارخ بين مظهر إينهارد وروحه الوقادة الذكية مادة لقصائدهم فأطلقوا عليه لقب ناردولوس Nardulus وأمطروه بأشعارهم [١٨] . ولا يهتم إينهارد بالأقاصيص المبهمة الأسطورية التى غلبت على كتابات جوردان وبولس الشماس . ولم يلتقط من «الحكايات الشعبية المتبربرة والأغانى» Barbara et Antiquissima Carmina فى سيرة ملوك الفرنجة القدامى سوى ما يعينه على تفهم سمات بطله شرلمان وسلوكه فى حادثة معينة خاصة فى معمعة القتال ضد الأعداء . وهو بعد هذا ينفر من أدب الملاحم وليس من طبعه ولا من ملكاته أن يخرج شيئاً من قبيل « أنشودة رولاند » مثلا ، فهو عندما يتعرض للكتابة عن معركة جبال البرانس مع قبائل الباسك التى سقط فيها البطل رولاند (أو أحيانا Hurodland) وايجهارد ساقى الملك وانشلم Anshelm كونت القصر ورجل الملك ، يسجل ما قد وقع فى تلك الواقعة فى وقار المؤرخين ووضوح الرائى ، وقد حرر ذهنه من انفعالات العصور الوسطى .

---

(١٨) Nardulus huc illuc discurrat perpete gressu, Ut formica tuus pes redit itque frequens, ..

وهذا ما يدعونا إلى وضع إينهارد فى مرتبة الكتاب القدامى من الرومان مع أنه كان عضواً لامعاً فى المدرسة الكارولنجية بل اصطفاه شرلمان ليكون كاتم سره الخاص .

هذه المدرسة الكارولنجية بعمدها الذين ذكرناهم كانت المشعل الذى بدد ظلام العصور المظلمة وخلق تلك النهضة التى بدأت بها العصور الوسطى . ولقد استاء شرلمان من الضآلة الثقافية لدى رجال الإكليروس وكان كثير الشكوى من أغلاطهم الفاحشة فى الأجرومية من واقع خطاباتهم التى كانوا يرسلونها إليه . والمعروف أن شرلمان نفسه قد جلس فى حجرة الدراسة فى القصر مع أبنائه وأحفاده يتعلم قواعد اللاتينية الصحيحة التى كان يجهلها . ولكى يعالج هذا النقص المعيب فى رجال الدين من طائفة القسيسين أمر بأن تجمع مواعظ بليغة سليمة الأسلوب والأجرومية وتوزع على الكهنة ليستفيدوا منها كل فى كنيسته . كذلك أنشأ عديداً من المدارس الكاتدرائية فى ريمز وأورليان وغيرهما من المدن إلى جانب عدد آخر من المدارس فى البيوتات الديرية فى سانت جال St. Gall وتور وريشينو Reichenau وفولدا وهرزفيلد وكورفى Corvey وهرشو Hirschau . وكان الهدف من هذه المدارس تخريج القسيسين ، ولكنها كانت تقبل أيضاً دارسين من العلمانيين . وكانت الدراسة فى هذه المدارس منصبة على اللغة اللاتينية والڤولجاتا Vulgata (الإنجيل فى صيغته اللاتينية للقديس جيروم) ، إلى جانب دراسة أعمال ڤرجيل وهوراس وأوڤيد وسالوست وجوڤنال وسنكا ؛ الذى كان ينظر إليه فى العصور الوسطى على أنه مسيحى لسبب ما قيل عن أنه قد تراسل مع القديس بولس .

كذلك كان شرلمان مغرماً بالموسيقى ودراساتها ، وقد طلب من البابا أن يرسل إليه بنفر من القسيسين المتخصصين فى الألحان الكنسية . وقد أسس شرلمان مدرستين للموسيقى واحدة فى متز والأخرى فى سواسون ، وقد أدخلت آلة الأرغون فى غالة فى عصر شرلمان الذى كان معجباً بها . ولقد أتت هذه الجهود أكلها ، وكان من أهم نتائج هذه النهضة العلمية تنقية اللغة اللاتينية المستخدمة فى الكنيسة من شرائب العامية والتبربر . على أن هذا فى حد ذاته قد وسع الهوة بين لغة الكتابة ولغة الكلام إلى حد

أن هذه الأخيرة قد غدت بعد هذا مجرد لهجة من اللهجات استحالت معها عمليات التنقية اللغوية . وهذه هى اللغة الدارجة التى تمثل بداية ظهور اللسان الفرنسى واللغات الرومانسية الأخرى . وقد كان من نتائج هذا الاهتمام العلمى باللاتينية الكلاسيكية أن ازداد عدد المخطوطات فحفظت لنا أعمال الخالدين من اللاتين القدامى من هلاك محقق . كذلك كان لشرلمان الفضل فى أن يحدد للعصور الوسطى على مدارها أن تكون اللاتينية لغة العلم والتربية فى المدارس والجامعات .

وكان شرلمان وفيًّا ومحبًّا للسانه الأصل الألمانى ، ولذا فقد أمر بأن تصاغ لهذه اللغة أجرومية على أسس علمية سليمة ، لكى تصبح لغة أدب وتعلم بعد أن تخضع للقواعد المنطقية وتنقى من شوائبها . وقد نجح فى جمع عدد ضخم من الأغانى الجرمانية والأساطير الموغلة فى القدم فيما عرف باسم Nibelungen Lied ، ولكن الأمر المؤسف أن ابنه لويس قد حطم هذا التراث الفريد بحجة أنه وثنى فاسد .

ولقد اعتبر شرلمان نفسه سيداً أعلى الكنيسة بحكم منصبه Ex Officio فهو الذى دافع عن كنيسة روما ، وهو الذى نشر المسيحية بين مختلف القبائل الوثنية ، وهو بعد هذا « إمبراطور الله » الممسوح بالزيت المقدس . لذلك اضطلع العاهل الفرنجى بمهمة انتخاب الأساقفة ورؤساء الأساقفة وكثيراً ما كان يقوم بتعيينهم دون انتخاب . كذلك كان يمارس حقه فى عقد المجامع الكنسية ورياستها وتوقيع قراراتها لتصبح نافذة المفعول . وكانت الكنيسة ورجالها يخضعون لقوانين الإمبراطورية ، شأنهم فى هذا شأن العلمانيين فيها .

وشرلمان هو أول من فرض العشور لتدفع إجباريًّا للكنيسة ، وقد تلقف رجال الإكليروس هذا القرار ونادوا بأنه نص ملزم فى الكتاب المقدس وطبقوه فى سائر بلدان غرب أوربا . ولم يكتف شرلمان بهذه السلطات على الكنيسة بل طالب بحقه فى رسم سياستها العامة وبحقه أيضاً فى اعتماد طقوسها وعقائدها . ويتضح هذا فى موقفه من المجمع المسكونى السابع الذى عقدته الإمبراطورة إيرينى فى عام ٧٨٧ لإعادة عبادة الأيقونات . وقد أرسلت إيرينى قرارات هذا المجمع إلى البابا هادريان (٧٧٢–٧٩٥) الذى وافق عليها وسر بها سروراً بالغاً ، ثم أرسلها بدوره إلى شرلمان لكى يذيعها على

رجال الدين فى مملكته . غير أن شرلمان قد رفض ما ورد فى هذه القرارات وجمع مجلساً من الأساقفة فى عام ٧٩٤ راح يفند قرارات المجمع المسكونى السابع . ثم أرسل شرلمان إلى البابا هادريان تفنيده لقرارات المجمع المسكونى السابع والمعروف باسم Libri Carolini ، مشفوعاً بأمره الغاضب بأنه يحسن بالبابا ألا يتخذ موقفاً فى أمور عقائدية شائكة من هذا القبيل قبل أن يستشير شرلمان فيها . وفى رسالة أخرى كتب شرلمان إلى البابا يفهمه أن واجبه كرجل دين هو أن يقوم بالصلاة فحسب ، وحذره من مغبة التدخل فى المسائل الخطيرة التى هى من اختصاص الإمبراطور فقط . والواقع أن موقف شرلمان من المجمع المسكونى السابع كان مخالفاً تماماً لتقاليد الكنيسة الكاثوليكية ، وأغلب الظن أنه لا هو ولا أساتذة قصره كانوا بفاهمين لطبيعة الجدل حول الأيقونية واللاأيقونية .

وتتضح مفاهيم شرلمان لسلطاته على الكنيسة فى موقفه مع البابا ليو الثالث ، فلقد فرض عليه شرلمان المثول أمام المحكمة التى عقدها خصيصاً فى مدينة روما ليبرأ البابا نفسه من التهم والجرائم المنسوبة إليه ، ولم يكن فى مقدور ليو الثالث أن يجلس على عرش القديس بطرس إلا بعد أن قرر شرلمان براءته وسمح له بذلك . وهذه الحجج الشرلمانية هى التى التقطها من بعد أباطرة ألمانيا فى نزاعهم العنيد مع البابوية ، ذلك النزاع الذى جر الخراب على كل من البابا والإمبراطور .

ويطل شرلمان فى كل العصور لنتبين فيه ملامح جرمانية ورومانية وإنجيلية ، ممتزجة جميعها لتقدم لنا صورة نموذجية عما نسميه بالعصور الوسطى . لقد كان شرلمان فى لباسه ولغته وخلقه ومشاعره جرمانياً ، ولكنه فى أفكاره ونظام حكومته يبدو رومانياً ، وهو هنا وهناك متأثر بالمفاهيم الواردة فى الكتاب المقدس .

لقد ترك لنا إينهارد صورة رائعة عن سيده شرلمان : لقد كان بحق أعظم رجال زمانه وواحداً من أعاظم رجالات كل زمان . وليست هنالك شخصية أخرى فى سجلات التاريخ كله ملكت خيال الناس ، فلقد ظلت سيرته وأعماله البطولية حديث الأساطير والأغانى الشعبية ، حتى ليبدو لنا أن شرلمان كان يقود الحملات الصليبية من داخل قبره .

توفى شرلمان فى الثامن والعشرين من يناير لعام ٨١٤ فى عاصمته آخن ودفن فى كنيستها(١٩) . وقد زين ضريحه بصورة له وبالعبارة الآتية :

« هنا يرقد جسد كارل العظيم الإمبراطور الأرثوذكسى الذى أعلى شأن مملكة الفرنجة وبسط حدودها ، وحكم فعدل سبعا وأربعين عاما . توفى فى السبعين من العمر فى عام ٨١٤ لسيدنا المسيح »(٢٠) .

---

(١٩) تقول الروايات إن الإمبراطور المتوفى أجلس على العرش داخل قبر رخامى ، وسيفه المشهور (Joyeuse) بين ركبتيه :

Tel sepulture n'ara mais rois en terre
Il ne gist mie, ainçois i siet acertes,
Sur ses genoux l'espée et son poing destre
Encore menace la pute gent auerse.

(٢٠) بات الناس فى غرب أوربا فى فزع من أن يتصدع هذا البنيان الشامخ الذى أرسى العاهل الفرنجى قواعده :

"Woe to thee, Rome, and woe to the people of Rome. The great and glorious Charles is taken from you. Woe to thee, Italy, and to all thy fair cities. Many are the afflictions that Frankland has known, but never knew she such a sorrow as when at Aachen she laid in the earth the august and eloquent Charles".

قوانين المجمع المسكونى الأول

نيقيا سنة ٣٢٥ م

هذه المخطوطة جزء من كتاب « خطى » لكاتب مجهول الاسم . على أننا نستدل من فصله بعنوان « القول الفاتح » أنه من إكليروس أنطاكية الأرثوذكسيين وذلك من قوله « أما بعد فيقول الأب الجليل الأقدس والراعى النبيل الأنفس كير سيلبسترس البطريرك الأنطاكى الكلى الغبطة ، أدام الله تعالى رياسته ، وأعاد علينا آثار بركاته من طيب أنفاس قداسته آمين » . وكير (أو مار ويقابلها فى اللاتينية لقب دومينوس) سيلبسترس هذا جلس على كرسى أنطاكية سنة ١٧٢٤ وتوفى فى مارس ١٧٦٦[١] . وفى عهده تمت ترجمة لهرطقات اللاتين[٢] . وعلى هذا فإن كاتبنا معاصر لهذه الفترة ، وأغلب الظن أنه كتب كتابه هذا أثناء تولى هذا البطريرك للكرازة الأنطاكية . والكاتب على درجة رفيعة من العلم ، وربما أنه كان يشغل منصب الأسقفية ، ونستدل على ذلك من قوله : « إن كان حفظ الناموس من أهم الأمور وأعمها فى سياسة المؤمنين ونظام أحوال المسيحيين فيما يخص الرؤساء ويعم المرءوسين ، لأجل ذلك قد ينبهنا الرسول الإلهى قائلا : احترسوا إلى أنفسكم وإلى جماعة الرعية التى أقامكم روح القدس عليها أساقفة لترعوا كنيسة الله التى اقتناها بدمه » .

ويحدثنا الكاتب عن الدافع الذى حثه على كتابة هذا المصنف القيم فيقول : ولما كان نظام الأصول جارياً على هذا المنوال ، حذراً من التشويش والاختلال فى أمر الأحكام الشرعية والحدود الواجبة المرعية البيعية ، لزم أننى راجعت النظر والاطلاع على القوانين المقدسة والحدود المدونة فى كتاب الناموس الموجود فى اللغة العربية ، وقابلته على موضوع أصله فى اللغة اليونانية فرأيت أكثر القوانين التى فيه مشوشة المعانى مختلفة

---

(١) Dictionnaire d'Histoire et Geographie Ecclesiastique, 3, pp. 667-69.

(٢) See Von Georg Graf, Geschichte Der Christlichen Arabischen Literatur, Vol. 3, pp. 125-26.

العبارات والمبانى . محرفة عن صحة أصلها اليونانى معما تداخلها من الزيادة الباطلة وما نقص منها من القوانين والحدود الكاملة . فقمت حينئذ على ساق الجد والإقدام وشمرت عن ساعد الجهد والاهتمام فى رد ما خل عن أصلها وتصحيح ما زل عن موضوع ذويها وأهلها ، أعنى بها قوانين الرسل القديسين والآباء الإلهيين وحدود المجامع المقدسة المسكونية والمكانية المدونة فى دساتير البيعة المقدسة الرسولية الجامعة الكلية بإلهام الروح القدس الواهب للأنام مراسيم العدل والحرية » .

وقد اعتمد الكاتب فى مصادره عن هذه القوانين على « كتب مجموعات عمدتى الآباء الأفاضل وقدوتى العلماء الأماثل : يوحنا زونراس (القرن ١٢) الشهير فضله ، والأب الأكرم كير تاودروس بلصامون البطريرك الأنطاكى الجزيل قدسه ، وغيرهما من العلماء الفاضلين الذين جمعوا القوانين المقدسة على أكمل صحة وسداد وأصدق نقل ما لا طعن عليه ولا انتقاد » .

المخطوطة

قوانين المجمع المسكونى الأول الملتئم فى نيقية

القانون الأول : أى من خصى من الأطباء فى مرض ، أو قطع من البربر فليقم فى الكليرس[٣] . وأما من أخصى ذاته فى حال الصحة ، هذا وإن كان معدوداً زمرة الكليرس ، يجب أن يعزل عن خدمته . ومنذ الآن فصاعداً لا ينبغى أن ينتدب أحد[٤] مثل هذا ، وهو لأمر واضح بأنه كما قيل فى الذين يفعلون مثل هذا الأمر ويجسرون بأن يخصون ذواتهم هكذا . فإن كان قوم[٥] قد أخصوا من البربر أو من مواليهم كانوا على جهة أخرى مستحقين . فالذين مثل هؤلاء قد يقبلهم القانون فى الكليرس .

القانون الثانى : من حيث إنه قد حدث من إلزام الناس أو من ضرورة لازمة، أو من وجه آخر صارت أمور[٦] كثيرة واقعة بخلاف القانون الكنسى[٧] ، حتى إنهم يقدمون إلى الحميم الروحانى بسرعة قوماً قادمين إلى الأمانة حديثاً فى عيشة أممية، وموعوظين فى زمن يسير ، ومع معموديتهم قد ينتدبون إلى الأسقفية أو إلى القسوسية فلاح لنا أنه لجيد بأنه منذ الآن فصاعدا لا يصير أمر مثل هذا ألبتة ، لأن الموعوظ قد يحتاج إلى زمان ومهل ، وبعد المعمودية إلى اختبار أكثر ، كالقول الذى كتبه الرسول القائل: لا يكون غرسة جديدة لئلا يتصلف فيسقط فى دينونة وفى فخ المحال[٨]. وأما إذا كان مع تمادى الزمان وجد فى ذلك الشخص خطية ما نفسية واشتهر بها من شاهدين أو ثلاثة ، فمن كان مثل هذا فليبطل من الكليرس . وأما من فعل بخلافه بما أنه متقح ضد المجمع العظيم ،فإنه قد سقط فى مخاطرة أن يعدم ذاته من الكليرس .

---

(٣) الإكليروس : أى رجال الدين .
(٤) فى الأصل أحداً .
(٥) فى الأصل قوماً .
(٦) فى الأصل أمورا .
(٧) فى الأصل الكنايسى (الكنائسى).
(٨) تيموثاوس ٣/٦ .

القانون الثالث : إن المجمع العظيم منع من السكنى مع امرأة ، على أنه لا يجوز للأسقف ولا للقس ولا للشماس ولا بالجملة لكل من كان من آل الكليرس عموماً بأن يساكن امرأة دخيلة ، أى أجنبية ، ما خلا إذا كانت أمه أو أخته أو عمته أو خالته وتلك الأشخاص السالمة من كل ظن وحدها فقط [٩] .

القانون الرابع : إنه ينبغى أن يقام الأسقف خاصة من كافة أساقفة الأبروشية ، فإذا كان ذلك عسراً لضرورة لازمة ، أو لأجل طول مسافة الطريق ، فلا بد من اجتماع ثلاثة معاً بعد شركة الغائبين فى الانتخاب ومطابقتهم لهم بواسطة كتبهم . حينئذ تصير الشرطونية [١٠] . وأما إثبات الأمور الصايرة فى كل أبروشية ينتهى إلى المطروبوليت [١١] ويتفوض إليه .

القانون الخامس : فى الذين قد امتنعوا من الشركة من أساقفة كل أبروشية ، إن كانوا من طغمة الكليروسية أو من العوام ، حسب القانون الذى يأمر بأن المرذولين من آخرين لا يقبلون من غيرهم . إلا أنه يجب أن يفحص فى أمرهم لئلا يكونوا قد أخرجوا من الجماعة من تلقاء صغر نفس أو مماحكة وحب الغلبة أو من تكره الأسقف لذلك الشخص . فلكيما يحصل التفحص الواجب فى هذا الأمر قد استبان صواباً بأن تصير المجامع فى كل أبروشية مرتين فى السنة ، لكيما باجتماع كافة أساقفة الأبروشية عموماً معاً يصير التفحص عن مثل هذه المسائل ، وعلى هذه الحالة يستبان أولئك الذين أغاظوا الأسقف عند الكل بإثبات أكيد ، بأنهم قد امتنعوا من الشركة بالصواب ، إلى حين ما يبان لجماعة الأساقفة العامة بأن يبرزوا فيهم الأمر الصادر بالرفق والإشفاق . وأما هذه المجامع فليصر الواحد منها قبل صيام الأربعين ، لكى بعد دحض كل صغر نفس تصير تقدمة القربان لله ، أى الصوم . وأما الثانى فليكن نحواً من فصل الخريف .

---

(٩) زواج رجال الدين فى الكاثوليكية ممنوع تماماً ، وعند الأرثوذكسيين يتحتم على الرهبان والأساقفة والمطارنة التبتل ولكن القسيسين والقمامصة يجب عليهم أن يتزوجوا قبل سيامتهم . ويرى الكاثوليك فى زواج رجل الدين إثماً ويعرفونه بالنيقولاوية Nicolaism

(١٠) أى قانونية وشرعية سيامة الأسقف .

(١١) رئيس الأساقفة أو المطران أو Metropolitan

القانون السادس : فلتحفظ السنن القديمة التى فى مصر وليبيا وبنطابوليس ، فى أن أسقف الإسكندرية يكون له السلطان على هذه كلها ، من حيث إن أسقف رومية له هذه العادة أيضاً . ومثل ذلك فلتحفظ الكرامة سالمة أيضاً فى الكنائس التى فى أنطاكية وفى الأبروشيات الأخرى . وذلك واضح عياناً مطلقاً بأن أيما أسقف سيم من غير رأى المطروبوليت قدام المجمع العظيم، بأن مثل هذا لا ينبغى أن يكون أسقفاً . وأما إذا كان اثنان أو ثلاثة من تلقاء مماحكة تخصهم قاوموا انتخاب الكل العام الصاير بمقتضى الصواب وبموجب قانون كنسى ، حينئذ فليثبت انتخاب الأكثر[١٢] .

القانون السابع : من حيث إنه قد جرت السنة القديمة والتقليد القديم فى أن أسقف إليا[١٣] يكرم فلتستمر له الكرامة أيضاً مع إبقاء المقام الذى لمطروبوليته[١٤] سالماً لها .

القانون الثامن : فى الذين كانوا وقتاً ما يسمون أنفسهم أنقياء[١٥] ، ثم يقبلون إلى الكنيسة الجامعة الرسولية : لقد لاح للمجمع المقدس العظيم بأنهم يقيمون فى الكليروس على هذه الحالة التى فيها مشرطنين . إلا أنه قبل كل شىء ينبغى لهم أن يعترفوا مقرين بكتابة منهم ؛ وهو أنهم ينضمون ويتبعون معتقدات البيعة الجامعة

---

(١٢) كان هذا القانون السادس سبباً فى الصدام بين كنيستى روما وبيزنطة ، لأنه على ثقل هذا القانون راحت كنيسة روما تطلب بالإمارة على الكنيسة العالمية .

راجع فصل « روما البابوية » حيث ناقشنا هذا القانون تفصيلا .

(١٣) أورشليم . الاسم مشتق من الإمبراطور الرومانى آليوس أدريانوس الذى أعاد بناء المدينة بعد الخراب الذى حل بها وقت الأسر البابلى.

(١٤) يقصد القانون مطروبولية قيسارية فلسطين لأن أورشليم كانت فى وقت ما أسقفية تابعة لقيسارية .

(١٥) تفسير هذا أن جماعة الأنقياء، « هم أتباع نواطس (Novatianus) أحد القسيسين فى روما الذى دعا إلى عدم قبول من ارتد عن المسيحية وقت الاضطهاد إلى شركة المؤمنين مرة أخرى . كما وأنه أصر على بتولية سائر رجال الإكليروس تعففا منه وصحبه الذين عرفوا بالنواطية أو « الأنقياء » (Catheros) . وقد عقد البابا كورنيليوس مجمعاً فى روما على عهد الإمبراطور داكيوس لعن فيه نواطس وهرطقته هذه . ونواطس هذا . أو نوفاتيانوس فريجى شرقى كما ذكر فيلوستورجيوس فى تاريخه الكنسى (٨ : ١٥) . وقد أذاع خصمه كورنيليوس أسقف روما خاصة فى رسالته إلى فابيوس أسقف أنطاكية أن نوفاتيانوس تعمد مريضا ولم يثبت (يوسابيوس ٦ : ٤٣) وبالتالى فلم فلم يكن لائقاً للكهنوت .

الرسولية ، أعنى بهم أنهم يشاركون ذوى الزيجة الثانية والذين سقطوا فى الاضطهاد . وقد فرض عليهم زماناً وتحدد لهم أواناً ؛ حتى إنهم يكونون فى كل الأمور تابعين معتقدات الكنيسة الجامعة . فحيث ما وجد جميعهم سواء كان فى قرى أو فى مدن، إن كان هم وحدهم فقط قد يوجدون مشرطنين . فالموجودون فى الكليروس يكونون فى ذلك الزى نفسه . وأما إذا أقبل قوم بوجود أسقف الكنيسة الجامعة أو القس ، فمن البين الواضح هو أن أسقف الكنيسة يمتلك رتبة الأسقف . وأما المسمى أسقفاً عند الذين يقال لهم أنقياء فيمتلك كرامة القس ، ما خلا إذا استبان للأسقف بأن يشاركه بكرامة الاسم . وأما إذا ما رضى بذلك فيجد له مقام خوريوبيسكوبوس أو قس ، لكيما بالجملة يبان أنه فى الكليروس حتى لا يكون أسقفان فى مدينة واحدة.

القانون التاسع : إن كان قوم سيموا قسوساً من غير تفحص عنهم ، أو عند التفحص قد اعترفوا بخطاياهم ، وبعد إقرارهم بها قد تحرك قوم فوضعوا اليد عليهم وشرطنوهم بخلاف القانون فمثل هؤلاء لا يقبلهم القانون ألبتة ؛ لأن الكنيسة الجامعة قد تنتصر لكل شيء عديم العيب والذلل .

القانون العاشر : أيما رجل من الذين سقطوا قد سيم كليروسياً ، سواء كان من تلقاء الجهل به أو بمعرفة منه قد سامه ، فلذلك الأمر لا يتقدم حكمه على القانون الكنسى ؛ لأن من اشتهر بذلك قد يقطع .

القانون الحادى عشر : أما الذين خالفوا[١٦] من غير ضيق اضطرهم لذلك ، أو من غير نهب أموالهم ولا استلاب أملاكهم أو فى غير خطر دهمهم ولا حيف طرأ عليهم وما يشبه ذلك من النوائب الطارئة مما جرى فى عهد ليكينيوس الملك[١٧] ، قد لاح للمجمع بأنهم وإن كانوا غير مستحقين للشفقة والمحبة البشرية ، إلا أن الأولى بهم أن يعاملوا بلطف المعاملة والرفق ؛ على أن كلا منهم قد تاب وندم حق الندامة الصادقة . فليقف المؤمن منهم مقيما مع السامعين[١٨] ثلاث سنين ، وسبع

---

(١٦) أى الذين جحدوا الله جل شأنه .

(١٧) ليكنيوس الإمبراطور (٣١١ – ٣٢٤) شريكاً لقسطنطين العظيم فى الحكم .

(١٨) أى يسمح لهم فقط بالوقوف بخارج الكنيسة ويسمعون الصلوات .

سنوات يقيم متخضعاً مع الجاثيين[١٩] ، وليشارك الشعب فى الصلوات سنتين ، ما خلا شركة القربان[٢٠] .

القانون الثانى عشر : أما الذين قد دعيوا من النعمة وأظهروا النهضة الأولى وطرحوا عنهم النطاق ، ثم رجعوا مثل الكلاب إلى قيئهم حتى إن بعضهم أعطوا أموالا وجعلوا رجعتهم إلى الجندية بهدايا ، هؤلاء فليخضعوا جاثيين عشر سنين ، بعد مدة استماعهم ثلاث سنوات . وبعد هذا كله ينبغى أن يتفحص عن عزمهم وعن كيفية توبتهم ونشاطهم ؛ لأن أولئك الذين يظهرون الرجوع بالفعل لا بالشكل ، بل وبخوف ودموع وصبر وفعل الخير . هؤلاء بعد أن يتموا زمان الاستماع المحدود ، فمن الواجب أنهم يشتركون فى الصلوات ، مع تفويض أمرهم إلى الأسقف أيضاً ، على أنه يتصور أمرهم بوجه أرفق وأشفق . وأما أولئك الذين استساروا بعدم تمييز وظنوا بأن شكل دخولهم إلى الكنيسة قد يكفيهم للرجوع ، فهؤلاء على كل حال سبيلهم أن يتموا مدة الزمان المحدود .

القانون الثالث عشر : إن الذين يتوفون فليحفظ فيهم الناموس القانونى القديم ، والآن أيضاً : وهو أنه إذا توفى أحد لا يعدم الزواد الأخير الضرورى جداً بالكلية . وأما إذا هويئس[٢١] من الحياة وحظى بالشركة أيضاً ثم وجد فيما بين الأحياء فليكن مع المشاركين للمؤمنين فى الصلاة وحدها فقط . وعلى الإطلاق أى من كان من المدنفين إذا طلب أن يتناول قربان الشكر فليناوله الأسقف القربان بتفحص واختبار .

القانون الرابع عشر : لقد لاح للمجمع المقدس العظيم بأن الذين سقطوا من الموعوظين يكونون مع السامعين ثلاث سنين ، وبعد ذلك يصلون مع الموعوظين .

القانون الخامس عشر : إنه من تلقاء كثرة السجس والتشويش والمشاجرات الحادثة ، لقد استبان لنا بأن ترفع بالكلية تلك العادة الواقعة بخلاف القانون فى بعض النواحى : وهو أنه لا ينتقل من مدينة إلى أخرى ؛ أسقفاً كان أو قساً أو شماساً .

---

(١٩) أى داخل الكنيسة.

(٢٠) أى بعد انقضاء مدة السبع سنين يشاركون المؤمنين فى الصلاة ولكن لا يحق لهم شركة التناول إلا بعد مرور عامين من شركة الصلاة.

(٢١) فى الأصل أيس .

فأى من باشر أمراً مثل هذا بعد حدوث حد المجمع المقدس العظيم ، أو أسلم ذاته وتورط متوهراً فى أمر مثل هذا ، فليكن فعله هذا غير ثابت على كل حال ، وليرجع مقيما فى تلك الكنيسة التى فيها قد سيم ذلك الأسقف أو القس .

القانون السادس عشر : إن كافة القسوس والشمامسة وبالجملة كل من كان تحت تفحص القانون ؛ الذين من تلقاء تورطهم فى المخاطرة وعدم امتلاكهم مخافة الله تجاه أعينهم وبجهلهم فى القانون الكنسى قد ينصرفون من كنيسة ما ، فهؤلاء لا ينبغى أن يكونوا مقبولين فى كنيسة أخرى ألبتة ، بل ينبغى أن يجتلب عليهم كل إلزام حتى يرجعوا إلى سكناهم ، أو إذا بقوا مقرين على ما هم عليه من العناد ، يجب أن يكونوا عادمى الشركة . وأما إذا تجاسر أحد بأن يختطف من كان يخص آخر غيره ويسميه فى كنيسته من غير أن يوافق لذلك رضى أسقفه الذى نزح عنه ، ممن كان تحت تفحص القانون ، فلتكن تلك الشرطونية غير ثابتة .

القانون السابع عشر : من حيث إن الكثيرين من الذين هم تحت تفحص القانون قد يسعون وراء الطمع والاستكثار والأرباح القبيحة ، وقد تناسوا ما كتب فى النص الإلهى القائل : وفضة لم يعطها بالربا[٢٢] ، فيدينون مالا طالبين أرباح تعشير المئات بالربا ، قد حكم المجمع المقدس العظيم بأن بعد صدور هذا الحد أى من وجد من الكليروسية آخذاً أرباحاً بالربا من معاملة يمارسها للمعيشة ، أو أنه استعمل ذلك على وجه آخر طالباً نصف جملة المرابحة ، أو أنه يحدث شيئاً آخر بالجملة لأجل اغتنام مرابحة قبيحة فليخلع من الكليروس ، ويكون غريباً من القانون .

القانون الثامن عشر : لقد بلغ المجمع المقدس العظيم بأنه فى بعض المدن والأماكن الشمامسة قد يناولون القربان للقسوس ، وذلك ما لم يسلمه قانون ولا عادة أصلا ، وهو أن الذين لم يمتلكوا سلطاناً على التقدمة بأنهم يناولون جسد المسيح للذين يقدمونه . وقد عرف هذا أيضاً : وهو أن بعض الشمامسة قد يتناولون القربان قبل الأساقفة . فليبطل هذا كله ، ولتقف الشمامسة عند حدودها ، عارفين ذواتهم أنهم خدام الأسقف ، وأنهم أدنى مرتبة من القسوس ، وليتناولوا القربان بحسب رتبتهم بعد

---

(٢٢) مزمور ١٤ : ٥٠ .

القسوس ، على أن الأسقف يناولهم أو القس . بل ولا يجوز للشمامسة أيضاً بأن يجلسوا فيما بين القسوس ؛ لأن حدوث هذا الأمر هو واقع بخلاف القانون والترتيب . فكل من لا يريد الخضوع أيضاً والرضوخ بعد صدور هذا الحد أيضاً فليعزل عن خدمة الشموسية .

القانون التاسع عشر : لقد وضح الحد على أولئك الذين تبعوا رأى بولص الشميصانى(٢٣) ثم التجئوا إلى الكنيسة الجامعة راجعين : فى أن تعاد معموديتهم على كل حال لا محالة . فإن كان قوم فى الزمن الماضى قد حسبوا فى الكليروس فإن هم قد استبانوا عادمو العيب والملامة فليساموا من أسقف الكنيسة الجامعة بعد إعادة معموديتهم . وأما إذا كان بعد التفحص عنهم قد يجدهم غير مناسبين ، فينبغى أن يقطعوا . ومثل هذا الرسم نفسه فليحفظ فى أمر الشماسات المحسوبات فى الزى أيضاً ، من حيث لم تكن عليهم شرطونية ، إنما فليحصوا مع العوام على كل حال لا محالة .

القانون العشرون : من حيث إن قوماً قد يحنون الركب فى أيام الآحاد وفى الأيام الخمسينية ، فلاح للمجمع المقدس بأننا نقدم الصلوات لله ونحن منتصبون وقوفاً ، لكى تكون كافة الأمور محفوظة فى كل أبروشية .

حاشية

« اعلم أن هذا المجمع الأول المقدس لم تثبت له قوانين قط غير هذه القوانين العشرين ، وهى الموجودة باللغة اليونانية واللاتينية فقط . وجميع العلماء الذين جمعوا قوانين المجامع المسكونية والمكانية ما نقلوا غير هذه العشرين قانوناً لهذا المجمع الأول المقدس فقط . وأما الأربعة والثمانون قانوناً الموجودة فى اللغة العربية التالية لهذه القوانين

(٢٣) بولص الشميصانى : Paul of Samosata هومؤسس الفرقة المانوية التى تسمت باسمه (Paulicians) أى البوليصيين (أتباع بولص) . والمانوية هى فلسفة الازدواج والإيمان بوجود عنصرين : الخير والشر ، الأول يمثل بالنور والثانى بالظلام . راجع ما كتبناه فى هذا الكتاب عن المانوية فى الفصل الخاص بالقديس أغسطينوس ومدينة الله .

فى كتاب الناموس العربى لا صحة لها أصلا . واللاتينيون أيضاً قد نقلوها عن العربى ، مترجمينها لاتينياً أيضاً ، كما هو مضمون عنوانها عندهم ، وذلك رغبة منهم لأجل القانون الرابع والأربعين الداخل فيها الذى يستندون عليه نوعاً ما فى امتداد سلطان البابا مطلقاً على زعمهم. وقد قال بعضهم إنها قديماً قد كانت اغتالت من الأريوسية ، وفيما بعد انوجدت محررة عربية . وذلك هذا كله لغو لا حقيقة له أصلا . والدليل على ذلك :

أولا : إن الآباء الثلثمائة والثمانية عشر الملتئمين فى هذا المجمع ما كتبوا قوانينهم باللغة العربية ، بل باليونانية .

ثانياً : إن مضمون ذلك القانون الرابع والأربعين هو خلاف مضمون القانون السادس الذى هو فى جملة العشرين قانوناً الصحيحة ويناقضه ؛ لأن هذا القانون السادس قد يأمر كلا من البطاركة أن يكون مسلطاً على أبروشياته التى وليها والمختصة به ، وهم الرومانى والإسكندرى والأنطاكى والأورشليمى . وأما مضمون ذلك القانون الرابع والأربعين الزور يريد أنه كما أن للبطريرك[٢٤] سلطاناً على من هو دونه ، كذلك لبابا رومية سلطان على البطاركة ، وما يتلوه من نصه .

ثالثاً : إن المجمع الثانى المسكونى المقدس[٢٥] الذى اعتقبه فإنه فى قانونه الثانى يأمر بأن كلاً من الأساقفة أى البطاركة يدبر أبرشياته وألا يتعدى أحدهم على حدود أبرشيات آخر غيره . وفى قانونه الثالث رتب أن تكون تقدمات الكرامة لأسقف القسطنطينية بعد أسقف رومية ؛ لأن القسطنطينية هى رومية الجديدة . وقد اقتدى به أيضاً المجمع الرابع[٢٦] فى قانونه الثامن والعشرين ، والمجمع السادس فى قانونه السادس والثلاثين ؛ الذين حدوا بأن أسقف القسطنطينية يكون له التقدم بسوية أسقف رومية القديمة ، وأنه يعظم فى الأمور الكنسية مثل ذاك أيضاً ، وأنه يكون ثانى رتبة . فلو كان لذلك القانون الرابع والأربعين المذكور صحة ، كيف كانت لعمرى الآباء القديسين فى المجامع المسكونية تجترئ على ذلك التقدم ؟

---

(٢٤) فى الأصل يريد أن كالبطريرك.

(٢٥) مجمع القسطنطينية المنعقد عام ٣٨١ . راجع فصل « هراطقة وأرثوذكس » .

(٢٦) مجمع خلقدونية (٤٥١م) .

رابعاً : إن زوسيموس البابا ، كان قد ادعى بأن المجمع الأول بنيقية حدد بقانونه لأسقف رومية بأن دعاوى الأساقفة ترفع لديه . ويرجع استئنافها إليه ، وهو يحكم بها ، وطلب إجراء ذلك من المجمع المنعقد وقتئذ فى قرطاجنة من أعمال إفريقية[٢٧] . وأما الآباء هناك فما سلموا له بذلك ؛ إذ لم يوجد مثل هذا القانون مقيداً عندهم ، وراجعوا التفحص عنه فى سجلات قوانين المجامع المودع قيدها يونانياً منذ القديم فى كنيسة القسطنطينية وكنيسة الإسكندرية وكنيسة أنطاكية ، وعند ذلك أتاهم الجواب من القديس كيرلس بطريرك الإسكندرية ومن أتيكوس بطريرك القسطنطينية مع نسخات قوانين مجمع نيقية الأصيلة وحدوده . وإذ لم يوجد فيها أمر هكذا كما ادعى به البابا المذكور ألبتة ، فحينئذ المجمع رد الجواب إليه يتضمن نقض ما ادعى به من مطلوبه وباطل إسناده . فلو كان لهذا القانون صحة لكان ظهر فى ذلك الحين من السجلات المرقومة القديمة ؛ مع أن ادعاء البابا فى ذلك الوقت كان بصدد آخر خلاف نص هذا القانون الزور المذكور .

خامساً : إن المجمع الرابع الخلكيدونى لما أصدر القانون الثامن والعشرين فى باب تقدم أسقف القسطنطينية ، رومية الجديدة ، ومساواته أسقف رومية القديمة بالكرامة. وأما نواب لاون البابا فى ذلك الحين قاوموا ذلك القانون[٢٨] ، وادعوا بالنيابة عن البابا المذكور بأن المجمع النيقاوى هذا قد حدد فى صدر قانونه السادس من العشرين

---

(٢٧) البابا زوزيموس (٤١٧ — ٤١٨) : أرسل هذا البابا رسالته بهذا المضمون إلى أساقفة أفريقيا بتاريخ ٢١ مارس سنة ٤١٨ ونصها كالآتى :

"Quamvis Patrum traditio Apostolicae Sedi auctoritatem tantam tribuerit, ut de eius indicio disceptare nullus auderet, idque per canones semper regulasque servaverit, et currens adhuc suis legibus ecclesiastica disciplina Petri nomini, a quo ipsa quoque descendit, reverentiam quam debet exsolvat : .. cum ergo tantae auctoritatis Petrus caput sit et sequentia omnium maiorum studia firmaverit, ut tam humanis quam divinis legibus .. firmetur Romana Ecclesia, cuius locum nos regere, ipsius quoque potestatem nominis obtinere non latet vos, sed nostis, fratres carissimi, et quemadmodum sacerdotes scire debetis .."

(٢٨) انظر فصل « هراطقة وأرثوذكس» وفصل « روما البابوية » لتفهم موقف البابا ليو الأول العظيم .

قانوناً هكذا : إن الكنيسة الرومانية لها التقدم دائماً[٢٩] . فعند ذلك لما راجعوا نص القوانين المذكورة ، وتلى هذا القانون فى المجمع عياناً ، لم يوجد فيه ذلك النص المزيد فى صدره أصلا . وعند ذلك خجل النواب وخابوا تجاه المجمع العظيم والقضاة ذوى النباهة المعينين من قبل الملك مركيانوس[٣٠] الحسن العبادة والجزيل الورع . فلو كان هذا القانون معلوماً حقـًا لكان النواب إذ ذاك قد أوردوه فى المجمع[٣١] .

سادساً : إن اللاتينيين فى مجمعهم الفلورنتينى قط ما أوردوا هذا القانون عند ادعائهم فيما كانوا وقتئذ يحاولون على قيام تلك الرياسة المطلقة التى يرومونها .

سابعاً : إن يوسف المصرى الذى كان من أبناء العرب فى عصر تاريخ الستة آلاف والتسعمائة لكون العالم يعيش بمصر[٣٢] ، وهو ترجم قوانين الأربعة مجامع المسكونية الكبار من اللغة اليونانية إلى اللغة العربية ، فإنه أورد ذكر العشرين قانوناً التى لمجمع نيقية الأول مترجماً عربيـًا . وما أورد غيره لذلك المجمع قطعاً . وفى كتب قوانين المجامع عند ملة السريان وغيرهم من ملل النصارى المشارقة أيضاً لم يوجد أكثر من العشرين قانوناً لهذا المجمع أصلا . فالملحوظ إذاً أن اللاتينيين لما تملكوا فى هذه البلاد العربية دسوا هذه القوانين فى ذلك الكتاب ونسبوها للمجمع الأول المسكونى المقدس . وعنها قد أخذت نسخات عديدة ، الموجودة الآن فى هذه البلاد العربية »[٣٣] .

---

(٢٩) Romana Ecclesia semper habuit primatum.

(٣٠) الإمبراطور مرقيان (٤٥٠ – ٤٥٧) .

(٣١) فى الأصل : لكانت . . . أوردته .

(٣٢) فى رأى العلامة جراف (المرجع السابق ذكره) أن يوسف المصرى هذا ما هو إلا قارئ مخطوطة أو مالك لمخطوطة مجهولة المؤلف . وأغلب الظن أن يوسف كان من رجال الإكليروس المصريين على المذهب الملكانى .

سنة ٦٨٩٩ للعالم توافق ١٧ توت سنة ١١٠٧ للشهداء = ٣ شوال سنة ٧٩٢ للهجرة = سنة ١٣٩٠ م .

هنالك ثلاثة تقاويم لكون العالم على النحو الآتى :—

فى التقويم السكندرى يبدأ الكون ٤٥٠٠ سنة قبل ميلاد المسيح .

فى التقويم الأنطاكى يبدأ الكون ٥٤٩٠ سنة قبل ميلاد المسيح .

فى التقويم البيزنطى يبدأ الكون ٥٥٠٨ سنة قبل ميلاد المسيح .

(يلاحظ أن الكاتب اتبع التقويم البيزنطى لكون العالم) .

(٣٣) فى الأصل : اتناخذت .

يوليانوس العاصى

(مخطوطة)

تقديم :

هذا النص الذى نحققه عن « يوليان العاصى » جزء من المخطوطة ١٦٤٩ بدار الكتب والوثائق القومية . وكاتبها مجهول لأن المخطوطة مبتورة الأول والآخر . وأغلب الظن أنه واحد من الرهبان اليونان من أتباع مجمع خلقيدونية ؛ لأنه يشير إلى الأرمن والأحباش والنساطرة على أنهم هراطقة . وهو يفسر الأحداث التى وقعت فى عصر يوليان بمنطق جريجورى النازيانزين وباسيليوس الكبير وهما من عمد الكنيسة الباكرين .

ويلاحظ أن التفاصيل الكثيرة التى وردت فى هذا النص عن اضطهادات يوليان وحزبه وأتباعه للمسيحيين بها كثير من الصحة التاريخية ، وإن كان يعيبها تعصب الكاتب الواضح ضد يوليان ، وتفسيره لكل الوقائع تفسيراً غيبياً ، يتفق بطبيعة الحال مع وجهة نظر الكنيسة وروح العصور الوسطى .

النص

يوليانوس العاصى

« وبمسامحة الله تملك يوليانوس العاصى ابن الشيطان فى سنة خمسة آلاف وثمانماية وثلاثة وخمسين للعالم ، الموافق ثلاثماية خمسة وأربعين للتجسد الإلهى[١]. ولما تملك الشقى فى بلاد غاليه[٢] ، وفى تلك الساعة وقعت قبة الكنيسة العظما[٣] وسحقت كل الأوانى المكرمة[٤] التى كانت فى وسطها وطحنتها . وإن الكافر أراد فى الأول[٥] أن يظهر عدله وأنه عادل صالح ، وأن الملك قسطنطين كان ظالم[٦] وعدو الله . فأرسل أوامر إلى سائر الأساقفة الذين كانوا منفيين ومطرودين من كراسيهم لكى يمضوا كل واحد إلى كرسيه من غير تعويق[٧] . وقطع رأس أوسابيوس الخادم . قائلا إن واحد ماجسطرس وخادماً آخر يكفى لخدمة كثيرين : ولأجل هذا كل الطواشيه الذين كانوا فى القصر مع الماجسطورية أخرجهم وطردهم هذا الكافر بجملته ، مسكناً[٨] للشيطان وجحد معموديته . وابتدا يعلن أمانة اليونانية[٩] ، فبغضوه أناساً كثيرين[١٠] . فحينئذ[١١] اليونانيين الذين كانوا فى بلاد المشرق وجدوا فرصة وعملوا بالمسيحيين شروراً كثيرة : فأول ذلك أنهم قتلوا جاوجيوس[١٢] بطريرك الإسكندرية وهانوا جسده ووضعوه على جمل وأشهروه

---

(١) فى الواقع حكم يوليان المرتد (العاصى) من ٣٦١ إلى ٣٦٣ م .

(٢) غالة : فرنسا .

(٣) الكنيسة العظمى فى بيت المقدس .

(٤) الأوانى التى تستخدم فى التناول .

(٥) فى بادئ الأمر .

(٦) ظالما وعدواً لله .

(٧) فى الواقع أراد جوليان بهذا أن يشعل نار الفتنة بين الدوناتيين والأرثوذكس ليكسر شوكة المسيحية .

(٨) مرضاة للشيطان .

(٩) راح يعلن قيمة الديانات اليونانية الوثنية وآلهتها .

(١٠) فأبغضه أناس كثيرون .

(١١) فحينئذ نجد أن .

(١٢) جاورجيوس : جورج الكبادوكى . انظر الفصل الخاص بيوليانوس المرتد .

وجرصوه[١٣] ، وبعد ذلك خلطوا أعضاءه مع أعضاء البهائم المنتنة ، وأحرقوه ودروا رماده . وصلبوا من المسيحيين آخرين كثيرين ، وذبحوهم . وأعضاء بطروفيلس أسقف مدينة سكيفوبولى أخرجوها من قبره ودروها ، ولعبوا بجمجمته مستهزئين . وفى غزة وعسقلان قتلوا الكهنة والعذارى وشقوا بطونهم ، ووضعوا داخلها شعيراً وطرحوها للخنازير ، حتى أكلت أحشاءهم . وفى مدينة بعلبك استشهدوا [١٤] كيرللس الشماس ، وأكلوا فؤاده ، لأن[١٥] فى زمان العظيم قسطنطين هذا نفسه هدم هياكل الأوثان . إلا أن أولئك ، أعنى جميع الذين أكلوا من فؤاده ، تهرت[١٦] ألسنتهم وسقطت من أفواههم قطع لحم مهرية منتنة ، ووقعت أسنانهم بعد مقاساة أوجاع عظيمة ، وخرجت أنفسهم بتضجر وكراهة[١٧] إلى النار الأبدية .

وأما الملحد يوليانوس فإنه عمل شروراً كثيرة بمدينة قيسارية[١٨] الكبادوكية ، مكافأة[١٩] عما عملوه أهلها باليونانيين فى أيام قسطنطين الكبير ، وهدموا هياكلهم . وكذلك فى أريوشة عمل شروراً كثيرة . ومرقص الجزيل [٢٠] قدسه أخرج [٢١] أحشاءه ومات : وفى مدينة القسطنطينية نصب صنم المشترى[٢٢] ، وخرب كنائس المسيحيين وأن مارينوس الأسقف الجزيل قدسه شتم يوليانوس شتيمة عظيمة فى وجهه ووبخه لأجل كفره وإلحاده وأنه عاص ومارد . وأن يوليانوس احتمل شتيمه وقتئذ كفيلسوف [٢٣] . وأن باسيليوس الكبير [٢٤] كان وقتئذ كاهناً فى مدينة الكبادوك .

---

(١٣) وعرضوه للإهانة الفاضحة .

(١٤) قتلوه فنال إكليل الشهادة .

(١٥) لأنه .

(١٦) إكتوت .

(١٧) وكراهية .

(١٨) قيصرية قبادوقيا .

(١٩) نكاية منه فيما عمله أهلها .

(٢٠) هو مرقص أسقف أرثيوزا . انظر الفصل الخاص بيوليانوس المرتد .

(٢١) أخرجت أحشاؤه .

(٢٢) المشترى (جوبيتر) : من Jovis-pater فى عقيدة الرومان « روح السماء » ، وإله الضوء والرعد ، ثم رب المحاربين ، ومرشد الطريق ، وإله القسم كما وأنه قبل اقتباسه سمات زيوس اليونان ليطابقه كان سيد الآلهة الرومانية الأعظم" Jupiter Optimus Maximus "، وكان معبده فى الكابيتول ، وقد استخدم هوراس اسمه مرادفا للسماء : (manet sub Jove frigido venator)

(٢٣) لأنه كان فيلسوفاً ذا شعبية كبيرة .

(٢٤) هو رئيس الديارة فى الكنيسة الشرقية .

وفى السنة الثانية من ملكه أمر أن لا يتعلموا المسيحيين[٢٥] علوم اليونانيين . ولأجل هذا [٢٦]الفيلسوف أبوليناريوس[٢٧] وضع صناعة فى الكتب الإلهية وقياسات اليونانيين ، وأفاد المسيحيين كثيراً .

وأمر يوليانوس أيضاً أن ينفى أثاناسيوس[٢٨] الكبير من كرسيه ، فحزن الشعب وبكى لأجله كثيراً ، لأنهم عدموا مثل هذا الراعى الصالح القديس . وأن القديس قال لهم لا تبكوا لكن افرحوا لأن هذا الغيم إلى مدة قليلة يتشتت سريعاً . قال هذا ، وبما أنه قديس تقدم وأنبأ بما سيكون ، لأنه عرف أن الله أزمع أن يقطع حياة يوليانوس سريعاً . وبعد ذلك نفى تيطس القديس أسقف البلقا ، ودورثاوس الكثير الجهاد أسقف صور ، وأمات [٢٩] رؤساءه واراكنته . وكان الكلى[٣٠] خبثه فى بعض الأوقات أن يشابه[٣١]فضائل المسيحيين ، فأمر أن يقام باليتامى والأرامل والغرباء بحاجاتهم الضرورية لكن جميع أفعاله كان يعملها لأجل الناس الساذجين حتى يركنوا إليه . وأما صورة الدنانير وغيرهم من الفضة والنحاس فكان يرسم عليهم صورة الأصنام وهم ديوس[٣٢]

---

(٢٥) أن لا يتعلم المسيحيون . (٢٦) [فإن] .

(٢٧) لما حرم جوليان على المسيحيين التعلم أو التعلم فى المدارس الوثنية قام أبوليناريوس الأب ومن بعده أبوليناريوس الابن بابتداع أدب مسيحى من طراز جديد لخدمة الشباب المسيحى الذين حرموا من التعليم وتلقى الثقافة الكلاسيكية : فقاما بترجمة المزامير إلى صيغة أشعار شبيهة بأشعار بندار وأعادا كتابة الأناجيل فى أسلوب الحوار على منوال المحاورات الأفلاطونية . ولقد ضاع هذا الأدب العرضى كله بعد وفاة جوليان المرتد مباشرة .

(٢٨) مار أثاناسيوس بطل الأرثوذكسية السكندرى . انظر فصل « هراطقة وأرثوذكس » :

(٢٩) وقتل . (٣٠) وكان من دلائل خبثه .

(٣١) أن يتشبه بفضائل .

(٣٢) زيوس : فى الميتولوغيا الإغريقية نجده أصغر أبناء كرونوس ، وإن كان هومر يجعله أكبر هؤلاء الأبناء . ولقد خلع زيوس أباه وتربع مكانه على عرش سيد الآلهة .

ويشتق اسمه أصلا من جذر كلمة تعنى « البريق » ، وهو لذلك إله السماء والطقس ، ولكن له إلى جانب هذا سمات بشرية . ولد زيوس فى كريت حيث ورى فى كهف على جبل ايدا وكانت مرضعته الماعز آمالثيا . ولكى يحافظ الكريتيون على سرية مخبئه كانوا يقومون بطقوس صاخبة الضوضاء لتغطية صراخه الطفلى . وبعد أن خلع الأب كرونوس عن عرشه ، اقتسم زيوس وإخوته الكون فيما بينهم بالاقتراع ، فكان من نصيب زيوس السماء فى حين اختص بوزيدون بالبحر ، وهيدز بالعالم السفلى . ويمثل زيوس فى أساطير عدة عاشقا لعدد هائل =

وإريس[٣٣] و إرميس[٣٤] . وأمر كل من لا يسجد لهم يمات[٣٥] كعدو للملك . وكان إذا أراد أن يعطى الأجناد علوفتهم[٣٦] كان يضع ناراً أو لباناً ، و يغتصبهم[٣٧] بأن يبخروا للصنم ،و بعد ذلك يأخذوا[٣٨] عاوفتهم . وكل من يخالف ذلك يؤدبه كعاص . ومن جملة أفعاله النجسة تفكر[٣٩] بأن يفعل هذا الفعل لأنه عرف أن كل المسيحيين فى الجمعة الأولى من الأربعين المقدسة يعملون صياماً عظيماً . وهذا : بما أنه آلة للشيطان، وجد فرصة لكى ينجس المواكل[٤٠] لها والخبز بدم الضحايا الطفسة[٤١] التى يعملها للأوثان . وهكذا عمل وأرسل إلى الأسواق ، وأمر بأن لا أحد يتجاسر بيع شىء

= من الإلهات . ولكن الأغارقة كانوا يمقتون فكرة تعدد الزوجات ولذا فقد سادت فكرة ارتباطه الشرعى بإلهة واحدة هى هيرا .

ولكن زيوس كان لها زوجاً خائناً : ولذا فقد كانت لزيوس علاقات مع نسوة من جنس البشر : فتزوج ميتيز (الحكمة) وأنجبت منه أثينى، ثم تزوج ديميتر ومنها ولد بيرزيفون ، ثم تزوج ليتو التى أنجبت أبوللو وأرتميس ، ثم تزوج هيرا ومنها أنجب هيبى وآرس وايليثيا ، ثم تزوج مايا ، ابنة أطلس ، التى ولد لها هرميز . وزيوس هو مدبر الخير والشر فى مصائر البشر ، ولكنه ميال إلى الخير ، فهو الأب المخلص (Zeus Soter) وهو معطى القانون الذى يدبر سير الأمور على حال من التناغم ، وهو عالم الغيب، وقد يكشف عنه للخاصة من البشر . وهورب البيت (Herkeios) وحامى الحرث (Ephestios) وحقوق الضيافة (Xenios) والحرية (Eleutherios) وهو الذى تشبه به سيد آلهة الرومان جوبيتر .

(٣٣) أيريس : هى إلهة قوس قزح ، وهى ابنة ثاوماس ابن البحر (بنطس) والكترا ابنة المحيط (أوقيانوس) . كما وأن أيريس رسولة الآلهة خاصة هيرا . وعند فرجيل قوس قزح هو مسارها . وهى بعد كل هذا زوج زفيروس « ريح الغرب » .

(٣٤) ارتميس : هى ابنة زيوس من زوجه ليتو . وهى آلهة حياة البرية ، عذراء الصيد وتتألف حاشيتها من العذارى الساحرات جمالا . كما وأنها آلهة « الميلاد » . ولقد شبهت بالقمر ، وكانت أفيسوس من مراكز عبادتها الشهيرة . ويرتبط اسمها بالدببة ، فقد كانت الفتيات اللائى يقمن بخدمتها فى اكروبول آثينا يلقبن « بالدببة » . ولم تصادف ارتميس احتراماً كافياً فى الإلياذة، إذ قد صورها هومر ذليلة مهدرة الكرامة بقوس هيرا . وقد رأى الرومان فى ارتميس آلهتهم ديانا .

(٣٥) بأن يقتل . (٣٦) مؤنهم .

(٣٧) ويجبرهم على أن يشعلوا البخور للصنم .

(٣٨) يأخذون . (٣٩) فكر فى أن .

(٤٠) المأكولات . (٤١) المنخنقة .

من الأطعمة التى له إلى أن تفرغ المواكيل التى طرحها الملك . وهكذا صار حسب مرسومه . وأما المسيحيين فلم يعلموا ولا عرفوا أصلا ماذا فعل الملك النجس . لكن برأى الله العظيم لم يهمل جبلته [٤٢] أن تتدنس بهذا الرأى النجس ، لكنه أرسل شاهده المعظم ثاودوروس[٤٣] إلى البطريرك أفضوكسيوس ، الذى كان وقتئذ على القسطنطينية وقال له أن يعلم المسيحيين بما ارتآه [٤٤] الملك وأن يوصيهم بأن لا يشتروا من المواكيل المتدنسة شيئاً ، وأن البطريرك أجابه : لكن ماذا يأكلون ويشربون[٤٥] المسيحيون ؟ وأن القديس قال له أسلق قمحاً واعمل سليقة وأعطهم يأكلون حتى يشبعوا . حينئذ سأله البطريرك أن يعرفه من هو ، فقال له القديس : أنا ثاودوروس الثيرونى الذى استشهدت فى مدينة أوخاييطا[٤٦] ، فأرسلنى الله أن أكشف لك رأى يوليانوس العاصى فلهذا أعمل كما أقول لك . وللحين نهض البطريرك وأمر أن يجتمع كل المسيحيين فى الكنيسة ، وأخبرهم بالمنظر الذى ظهر له[٤٧] ، وبعد ذلك سلق قمحاً ، وفرّق على الشعب وأكلوا ، ولم يشتر أحد من تلك المواكيل الدنسة أصلا حتى انتنت فى تلك الجمعة ، وطرحت فى البحر ، وضحكوا على الملك المنافق وأبيه الشيطان .

وكان[٤٨] فى قيسارية فيلبس الأمراء النازفة الدم[٤٩] ، التى شفاها المسيح فى اجتيازه ، لأجل أمانتها وتورعها ، عملت تمثال المسيح [٥٠] ، وأقامته أمام بيتها تذكاراً وشكراً للعجب[٥١] الذى صنعه الرب معها ، فأفرع [٥٢] تحت أقدام ذلك التمثال نوعاً [٥٣] من الحشيش[٥٤] كان يشفى[٥٥] لكل مرض وسقم لمجد المسيح .

---

(٤٢) رعيته .

(٤٣) القديس ثيودورس : لايعرف له تاريخ ، وتقول الرواية إنه كان جندياً رومانياً رفض عبادة الأوثان وأشعل النار فى أحد المعابد فعذب بأن ألقى فى النار ، ويوضع فى عداد القديسين جورج وديمترى .

(٤٤) دبره .

(٤٥) ماذا يأكل ويشرب .

(٤٦) فى ولاية بنطس Euchaita

(٤٧) بالرؤية التى ظهرت له .

(٤٨) وكانت [تعيش] ! . . .

(٤٩) تلك المرأة التى كانت تنزف دماً منذ أمد بعيد والتى شفاها المسيح أثناء عبوره بلدتها .

(٥٠) صنعت تمثالا للمسيح .

(٥١) للمعجزة التى صنعها .

(٥٢) فنبت وترعرع .

(٥٣) نوع .

(٥٤) العشب .

(٥٥) شافيا .

فلما سمع الكافر أيوليانس بالعجائب الصائرة فى كل حين بذلك العشب فأمر اليونانيين الساكنين هناك أن ينزعوا ذلك التمثال . وكانوا يسحبوه [٥٦] فى شوارع المدينة بشتائم وإهانات وأوقفوا [٥٧] موضعه صنم[٥٨] باسم يوليانس فنزلت نار من السماء وأحرقته وصار رماداً . وأما تمثال المسيح فأخذوه[٥٩] المسيحيون وأخفوه .

وفى مدينة نيكوبولس التى فى فلسطين كان هناك ينبوعاً بهياً[٦٠] الذى كان يعمل عجائباً[٦١] كثيرة ليس فى الناس فقط لكن فى الحيوانات والبهائم ، لأن من ذلك الينبوع غسل المسيح أقدامه لما كان متعوباً[٦٢] من الطريق ، فأمر يوليانس فأملوه تراباً[٦٣] .

وفى مدينة هرمز التى فى الصعيد كان[٦٤] هناك شجرة يقال لها الفارسية كانت تعمل أشفيه[٦٥] عظيمة لأن[٦٦] لما هرب يوسف الخطيب إلى مصر مع السيدة[٦٧] والمسيح جاسوا تحت تلك الشجرة ، لأجل هذا كانت لها النعمة . فأمر أن تقطع ، والتابوت الذى كان[٦٨] فيه بعض أعضاء السابق المكرمة موضوعة ، أحرق بالنار مع الأعضاء التى فيه وذرا رماده فى الهواء . ولما كان الشقى فى أنطاكية مضا[٦٩] إلى بلد دفنا[٧٠] إلى هيكل أبللون وضحى ذبائح وعزم تعزيمات حتى يحدثه الصنم فصمت الصنم ولم يتكلم . فعلم أن علة سكوته هى أن أعضاء الشهيد فى الكهنة بابيلا هناك كانت موضوعة فى تلك البلد وغيره من القديسين ، فأمر أن يخرجوهم

---

(٥٦) يجرونه .
(٥٧) وأقاموا .
(٥٨) تمثالا .
(٥٩) فقد أخذه .
(٦٠) ينبوع بهى .
(٦١) معجزات .
(٦٢) متعباً .
(٦٣) فردموه حتى امتلأ ترابا .
(٦٤) كانت .
(٦٥) معجزات شفاء للأسقام .
(٦٦) لأنه .
(٦٧) مع السيدة مريم العذراء .
(٦٨) كانت .
(٦٩) مضى .
(٧٠) بلدة دفنى Daphney — انظر الفصل الخاص بجوليان المرتد .

كلهم من هناك ويطرحوهم ، وهكذا صار . وفى تلك الليلة نزلت نار من السماء وألهبت ذلك الصنم والهيكل ، فبهتوا [٧١] الكل وتعجبوا من قوة الله العظيمة ، وأن [٧٢] الملك الكافر خزى وخاف . ولكن حكمة الشيطان أيضاً أن يقول [٧٣] النصارى أحرقوه ، ومساك [٧٤] الكهنة وعذبهم لكى يقروا من هو الذى أحرق الهيكل ، وكثير منهم من شدة العذاب ماتوا ، والباقى [٧٥] صرحوا ليس فى المسيحيين ولا غيرهم ، لكن الله هو الذى أنزل ناراً من السماء . وأن العاصى لما سمع جواب الكهنة غضب كثيراً ؛ وهكذا تحارب [٧٦] مع الله حتّى صار خارجاً عن عقله ، وأمر أن تغلق كنائس المسيحيين وأن تنهب أموالهم ، وجميع ما يملكوه [٧٧] الكهنة، وأرسل اثنين من عماله إلى كل صقع وهم : فيليكس ويوليانوس وأعطاهم استيذان [٧٨] على المسيحيين بأن مهما [٧٩] استطاعوا من الشرور يفعلوه بهم . ولما وصلوا إلى المسيحيين ابتدأوا بتعذيبهم ، وقالوا لهم : أين هى قوة مسيحكم العظيمة حتّى تنقذكم من أيدينا ؟ وأن فيليكس لما نظر الأوانى الذهب [٨٠] والفضة التّى أخذوها من الكنائس قال : انظروا بأى أشياء جزيلة القيمة نفيسة يخدمون ابن مريم ، لكن الله انتقم للحين من فيليكس ، لأنه خرج من فمه دماً [٨١] كثيراً ، وتحول وجهه إلى خلف ، وتقذر ويبس [٨٢] ، وأخذ نفسه الشيطان [٨٣] . وأما رفيقه

---

(٧١) فبهت .

(٧٢) كما وأن .

(٧٣) سلطه الشيطان لأن يقول إن النصارى . . .

(٧٤) فقبض على الكهنة .

(٧٥) وبقيتهم صرحوا أن النار ليست من فعل المسيحيين ولا غيرهم. . .

(٧٦) خرج عن طاعة الله .

(٧٧) يملكه .

(٧٨) سلطاناً ، إذناً .

(٧٩) بأن يستخدموا كل ما يستطيعون من إتيانه من شرور ضد المسيحيين .

(٨٠) الذهبية .

(٨١) دم كثير .

(٨٢) وحل به وسخ وأصيب بالتيبس .

(٨٣) وحلت به روح شيطانية .

يوليانس فوقع فى مرض عظيم رتهرت[٨٤] أمعاؤه وأنتنت ، وخرج زبله[٨٥] من فمه ، وهكذا بعد تعاذيب[٨٦] كثيرة أسلم نفسه الشقيّة .

وفى ذلك الزمان ، كثير[٨٧] من الأحياء انخدعوا وجحدوا أمانة المسيح[٨٨] : قوماً[٨٩] منهم لأجل المواهب والعطايا ، وآخرون لأجل الكرامات ، وغيرهم لأجل خوفهم ، الذين منهم[٩٠] ثاوثكتوس الكاهن الذى كان يخدم فى أحد الكنائس ضل وانخدع بالعطايا ، وسجد للأصنام ، وللحين أدبه الله ، خرج[٩١] من جسده دوداً وأكلوا[٩٢] لحمه ومات . وأيرون أسقف الصعيد عبد للأصنام ، لكن ربنا انتقم منه ليعتبروا الناس[٩٣] به لأن لحمه انحل[٩٤] مثل الشمع ، وتهر[٩٥] جسده ، ومن شدة نتانته طرحوه فى الطريق ، وبوجع عظيم وإكراه جسيم مات ومضى إلى الجحيم . ولكن كثيرين من المسيحيين فى ذلك الوقت استبانوا[٩٦] عظمى النفوس ، متعالين[٩٧] الهمة ، متشجعين فى الأمانة ، الذين منهم أرثاميوس أمير مصر نقض عبادة الأوثان فقطعوا رأسه بالسيف . وفى أتراكية قطعوا رأس أميليانوس القائد . وآخرون كثيرون استشهدوا فى مواضع متباينة لأجل محبة المسيح . فأحب الملك ساحراً مجرباً[٩٨] ممتلئاً من كل الفواحش والنّهم والشطارة بهذا المقدار ، حتى أنه صار قواداً على ابنته يدفع جسمها لأى من طلبها . وفيما كان فى بيته يسحر ويعزم ، خرب بيته ومات تحت الردم مع تلك الخصى[٩٩] الذى كان عند الملك بنوع امرأة .

---

(٨٤) تقطعت أوصال أمعائه .

(٨٥) وخرج نتنه من فمه .

(٨٦) بعد عذاب كبير .

(٨٧) (فإن) كثيرين من . . .

(٨٨) ارتدوا عن المسيحية إلى الوثنية التى نادى بها يوليان .

(٨٩) قوم .

(٩٠) ومن بين هؤلاء :

(٩١) إذ خرج .

(٩٢) ديدان أكلت .

(٩٣) ليكون عبرة وعظة للناس .

(٩٤) ذاب .

(٩٥) تفكك .

(٩٦) ظهروا .

(٩٧) متعالى .

(٩٨) وكان الملك يحب ساحراً . . .

(٩٩) أى هلك ذاك الساحر ومعه أحد الخصيان الذى كان على علاقة شاذة مع الملك يوليان .

وأن يوليانس العاصى أراد أن جميع ما قاله المسيح ليس له حقيقة[١٠٠] ، فأمر اليهود أن يبنوا هيكل سليمان الذى بأورشليم ، الذى كان هدمه سابقاً تيطس[١٠١] الملك ، وكل قول الرب الذى قاله : لا يترك فيه حجر على حجر[١٠٢] . فاجتمع اليهود من كل صقع بفرح ، وأعطوا ذهباً وفضة لا تحصى وجمعوا أشياء كثيرة حتى إن المجارف والمعاول وسائر آلة[١٠٣] البناء ، عملوها من فضة وأرسل هذا العاصى أناساً من قبله ليقفوا[١٠٤] على البناء لكى يصير العمل باهتمام وبإسراع . ولما ابتدأ يحفر[١٠٥] الأساس القديم ، أنفق أموالا عظيمة ، وابتدأوا بالبناء فثارت عليهم بغتة رياح عاصفة من أربع جهات العالم ، وبدد محفر الكلس[١٠٦] جميعه الذى كان بهذا المقدار نحوماية ألف كيل مجموع[١٠٧] فى مكان واحد . فتجلدوا[١٠٨] اليهود أيضاً وبنوا ، وكانوا[١٠٩] جميع ما يبنوه[١١٠] بالنهار يهدم بالليل ، فتعبوا أياماً كثيرة ولم يستبين[١١١] ما عمروه ولا مقدار قدم . أخيراً اليهود الأنجاس ، بما أنهم أمة عاصية ، نظروا[١١٢] أن الله ليس له إرادة فى بنائه ، وكانوا يبنوا بتألم منهم وإكراه . وفى أحد الأيام خرجت من الأساس نار وأحرقتهم كلهم ، والصناع والواقفين هناك . وهكذا لما رأوا[١١٣] أولئك هذا الانتقام المرهوب لم يتجاسروا

(١٠٠) أراد أن يبرهن للناس أن ما قاله المسيح فى الأناجيل ليس حقيقيا .

(١٠١) تيطس الملك : هو تيطس فلافيوس سابينوس فزيازيانوس إمبراطور روما من ٧٩ — ٨١ م . وتيطس هو الذى غزا أورشليم فى عام ٧٠ م ., ولا يزال تذكار نصر تيتوس على اليهود ، الذى أقامه دوميتيان على Via Sacra موجوداً حتى اليوم فى روما . ويقال إن تيطس قد وقع فى غرام أجريبا ابنة الملك اليهودى هيرود فاصطحبها معه بعد نصره إلى روما . ولكن الرومان استاءوا من اقتران اسم الإمبراطور بفتاة يهودية ، فاضطر تيطس إلى طردها من لدنه ، كما أوضح ذلك Suetonius بقوله : "invitus invitam" .

وقد كانت هذه القصة الغرامية بين تيطس وأجريبا منبع الإلهام لراسين فى تراجيديته Bérénice

(١٠٢) أى فى هيكل سليمان .

(١٠٣) آلات .

(١٠٤) ليشرفوا على .

(١٠٥) ولما ابتدأ العمل فى حفر .

(١٠٦) الحجر .

(١٠٧) مجموعا .

(١٠٨) فتجلد .

(١٠٩) وكان .

(١١٠) يبنونه : يقيمونه .

(١١١) لم يستبن .

(١١٢) أيقنوا .

(١١٣) لما رأى .

أصلا أن يقتربوا من ذلك المكان . فوقتئذ ظهر الصليب الحى المكرم من السماء من نور ودايره[١١٤] كان إكليلا[١١٥] يشرق لمعانه ، من الجلجلة إلى جبل الزيتون ، فائق البهاء والإشراق عن الذى ظهر فى أيام قسطنطين المعظم ، وارتسم الصليب فى أطراف الستورة [١١٦] فى الكتب وفى سائر أوانى الكنائس وفى الأثواب ، ليس أثواب المسيحيين فقط لكن وأثواب اليهود الساكنين بأورشليم وبأنطاكية ، وبمقدار ما كانوا يبغضوا[١١٧] الصليب ويشتموه ، كان يوجد مرسوم أكثر فى أثوابهم .

وأن يوليانس العاصى أراد أن يمضى إلى بلاد الفرس فأرسل إلى أماكن عدة لكهنة الأصنام حتى يعملوا أعزام وأسحار [١١٨] شيطانية لكى يعلم إن كان هو مزمع أن يغلب الفرس بقوة الأبالسة . فأتاه خبر شيطانى يقول هكذا : فى هذا الوقت كل الآلهة تتبعك وتمنحك الغلبة ، وأنا المريخ ابتدى[١١٩] أن أحارب معك . وهكذا اتبع الملك المنافق المايت الغمر [هكذا] ومضا إلى الفرس . فلما أتى إلى أنطاكية ، شتمه أهلها شتائم ومسبات عظيمة ، وهناك عمل شروراً كثيرة بالمسيحيين وهكذا تحرك وأتى إلى النهر الذى هو فاصل بين أرض الروم والفرس واجتازه ، وإن شاب كان من الفرس من الله[١٢٠] ، قال للملك ضاحكاً به[١٢١] : لا تحمل مع عساكرك مواكيل[١٢٢] كثيرة لأنها ليست معدومة هذه الطريق[١٢٣] . وأن العاصى صدق لأنه لم يعرف بأن[١٢٤] من الفرس هو ؛ فأحرق جميع ما كان معهم من المراكب الصغار الذى[١٢٥] قطعوا بها النهر المذكور ، التى كان فيها جميع مواكيل العسكر . وهكذا أخذهم فى البر ، وأجازهم [١٢٦] فى أماكن عدة صعبة ، وأن

(١١٤) ومن حوله .

(١١٥) إكليل .

(١١٦) أغطية أو أغلفة .

(١١٧) يبغضون .

(١١٨) يقصد التنجيم بالتعاويذ السحرية لرؤية الغيب .

(١١٩) ابتغى (؟) .

(١٢٠) وحدث أن شابان من بلاد الفرس أرسله الله...

(١٢١) مغرراً به .

(١٢٢) مؤن ، زاد من .

(١٢٣) فى هذا الطريق .

(١٢٤) بأن هذا الشاب من بلاد الفرس .

(١٢٥) التى .

(١٢٦) واجتاز معهم .

الرجل الذى استهزأ به(١٢٧) تركهم ومضى هارباً . ومكث العاصى يوليانس مع عسكره فى البريّة لا يعلمون أين يتوجهون : من جهة واحدة(١٢٨) تحيروا كيف الطريق ، ومن جهة أخرى بسبب أن لم يبق معهم شىء من المأكول . فهلك عسكره وحصل فى جوع عظيم بهذا المقدار(١٢٩) حتى أكلوا دوابهم وغير ذلك من الحيوانات ذوات الأربع النجسة الغير طاهرة . وبعد ذلك ورد رجز الله على الكافر يوليانس ، وفيما هو جالس على غفلة ، وافته حربة غير منظورة ، طعنته فى جانبه الأيسر ودخلت إلى قلبه ، وهذا كان بصلاة(١٣٠) العظيم باسيليوس ؛ لأنه لما اجتاز (١٣١) بقيسارية للمودة التى كانت بينهم (١٣٢) والألفة والمكاتبات الكثيرة التى كانوا(١٣٣) يراسلوا بها بعضهم بعض(١٣٤) ، مضى باسيليوس الكبير حتى ينظر إلى هذا الكافر يوليانس بمــا أنه ملك فأخذ له هدية وهو قليل من البقسماط الشعير ، الذى كان هو يأكل منه . فلما نظر ذلك الملحد ضحك عليه وأمر أن يؤتى للقديس هدية منه وهو الحشيش الذى تتغذى منه الحيوانات عوض هديته . فقال له : بعدل عملت أيها الملك لأنى من غذائى الذى أغتذى منه أهديت لك ، هكذا وأنت من هذا (١٣٥) الذى تغتذى منه شبه الحيوانات كافيتنى وأهديت لى . وأن الملك قال له : أتثبت يا باسيليوس فإنى إذا رجعت من الفرس أريد أن أعرفك من أنا لأنى على ما أرى بأنك لم تعرفنى بعد . وأن القديس قال له : إن أنت رجعت من الفرس غالباً فإن مسيحى يكون عاجزاً . وهكذا القديس مضى إلى قلايته ، والمغتصب صار فى طريقه . وبعد أيام جمع القديس شعب المسيح فى

---

(١٢٧) غرر به . (١٢٨) لأنهم من جانب .

(١٢٩) وحل بهم جوع عظيم لدرجة أنهم . . .

(١٣٠) بفعل صلاة : نتيجة صلاة القديس . . . (١٣١) يوليان .

(١٣٢) بينهما : أى بين يوليانوس وباسيليوس . (١٣٣) كانا .

(١٣٤) يراسلان بها أحدهما الآخر . (١٣٥) الغذاء .

هيكل القديس المعظم مركوريوس[١٣٦] الشاهد وعملوا تضرع[١٣٧] طوال الليل مع كافة الشعب الصغار والكبار ، طالبين من الله أن يهلك يوليانس العــاصى ، ويأخذوا[١٣٨] الكنائس والمسيحيين راحتهم . وأن القديس فيما كان يتضرع بدموع ، أتاه منظر وأبصر بأن القديس مركوريوس ضرب يوليانس العاصى بالرمح فى قلبه فقتله . وهكذا مضى إلى أيقونة القديس مركوريوس لينظر ، فياله من عجب[١٣٩] أبصر رمحه يقطر دماً . فقال نحو[١٤٠] شعب الله : أعـطوا مجداً لله لأن العاصى يوليانس قد هلك . فسارعوا بأجمعهم فنظروا رمح القديس يقطر دماً وعاينوا العجب المعجز ، ومجدوا كلهم الله . فهذا الانتقام جرى على يوليانس لأجل افترائه على الله . ولما انسكب الدم من جنبه ومن فمه أخذ اللعين من الدم براحته وألقاه إلى العلو قائلا : يا شابا ناصرى لأجل أمك ذبحتنى وغلبتنى تفرح بى شامتاً[١٤١] . وهكذا أسلم نفسه الشقية وأخذها الشيطان .

ولما كان هذا حايا[١٤٢] فى بلاد الفرس أرسل واحداً من الأبالسة[١٤٣] إلى بلاد المغرب لكى يأتيه بخبر يريده ، وكان فى الطريق راهب قديس ناسك ، فلما نظر

(١٣٦) مركوريوس : يحتفل بيوم عيده فى الخامس والعشرين من نوفبر . وأسطورة هذا القديس تقول إنه كان جندياً من أصل سكيزى أبدى شجاعة فائقة فى الحرب ضد البرابرة مما قربه إلى الإمبراطور ديخيوس . على أنه – بسبب إيمانه المسيحى – رفض المشاركة فى تقديم الأضحيات للإلهة أرتميس . وبعد تعريضه لصنوف شتى من الاضطهاد والعذاب أرسل إلى موطنه فى قبادوقيا وأعدم فى قيصرية . وهنالك أسطورة أخرى – هى التى يوردها الكاتب هنا – عن صلوات القديس باسيليوس العظيم للرب لكى ينتقم من يوليان المرتد ، ثم عن إرسال الله القديس ميركوريوس ليقتل يوليان المرتد بحربته أثناء قيادته حملة ضد الفرس .

(١٣٧) تضرعا .

(١٣٨) فتنعم الكنائس بالراحة .

(١٣٩) إذ أنه أبصر .

(١٤٠) مخاطباً شعب الله .

(١٤١) أيها الناصرى لأجل أمك ذبحتنى وغلبتنى ، لك أن تفرح شامتا ! .

(١٤٢) يقص الكاتب هنا رواية عن يوليانوس أثناء قيادة حملته ضد فارس ، فهى بالطبع قد حدثت قبل وفاته ، ولكن الكاتب أوردها بعد تسجيله لحادث الوفاة . أ « ولما كان يوليانوس لا زال حياً فى بلاد الفرس . . . »

(١٤٣) يريد الكاتب أن يقرر هنا أن يوليان كان يستعين فى إنفاذ أغراضه بالجن عن طريق مقدرته الفائقة فى أفانين السحر .

إبليس عمل صلاه ومنعه من المضى فلم يقدر أن يجتاز . فرجع بغير جواب إلى يوليانس فسأله : لم بطأ[١٤٤] ، ولم لم يأته بالجواب . وأن الشيطان أخبره بالأمر الذى كان ، ومنع الراهب إياه من الذهوب[١٤٥] إلى هناك واسم[١٤٦] الناسك يوبيوس . فلما سمع ذلك يوليانوس من الشيطان ، غضب وعمل قسم[١٤٧] بأنه فى حال رجوعه يبيد من الأرض كل شكل رهبانى . وكان واحد من المتقدمين[١٤٨] فى دولته وأشرافهم ، فلما سمع أن الراهب بصلاته منع الشيطان من طريقه ، عرف مقدار الدالة المختصة بأصحاب الأسكيم الملائكى عند الله . ولما رجع[١٤٩] إلى مكانه فرّق جميع ماله الذى كان له على الفقراء والأيتام والغُرب[١٥٠] ، ومضا فوجد ذلك الراهب بوبيوس الناسك القديس ، وصار عنده راهباً عظيماً[١٥١] ، فوجد ذلك وفاق فى فضائله فوقاً[١٥٢] جسيماً وكان يكرز فى كل صقع بالقوة التى ماكوها الرهبان على الأبالسة .

وفى مدينة كَارْيا ترك يوليانس أجناداً وحراساً ليحفظوا هناك مكاناً مظلماً معتماً ، كما كانت عادتهم بذلك ، لأن النجس كان يدخل إلى هناك ويعمل ذبائح ويعزم تعزيمات . فبعد ما مات فتحوا أولئك الجند الحراس ذلك المكان فوجدوا داخله نســاء معلقات من شعورهم[١٥٣] ، عاريات ، وأيديهم مبسوطة وبطونهم مشقوقة لأن الكافر كان يعمل صنائعه النجسة داخل أحشائهم ويسألهم[١٥٤] إن كان مزمعاً أن يغلب الفرس .

---

(١٤٤) لم أبطأ .

(١٤٥) الذهاب .

(١٤٦) وأخبره أن اسم الناسك . . .

(١٤٧) وأقسم .

(١٤٨) النبلاء أو البارزين .

(١٤٩) هذا النبيل الثرى الذى كان من أتباع يوليان هو الذى وزع أمواله على الفقراء .

(١٥٠) والغرباء .

(١٥١) وتتلمذ على يده فصار راهباً عظيماً .

(١٥٢) تفوقاً عظيماً .

(١٥٣) شعورهن . . . أيديهن إلخ .

(١٥٤) يسأل الآلهة الوثنية التى كان يقدم لها هذه الأضحيات الآدمية عما إذا كان مقدراً له النصر على الفرس فى حروبه .

وفى أنطاكية ، فى داخل القصر وجدوا صندوقاً ممتلئاً من رؤوس الرجال والنساء والأولاد الذين ذبحهم لأجل أسحاره [١٥٥] . وليس ذبح أناس فقط لكن وبهائم ؛ وغربان وكلاب ودبابات ، وكان عالماً بكل سحر وكفر ونفاق حتى إنه فاق بهذا المقدار على جميع اليونانيين الذين تقدموه . وكان رجاه [١٥٦] كله بالأوثان ولأجل كفره وعدم أمانته أضاع نفسه وجسده وملكه . ولما قطعه السيف الإلهى كان له من العمر واحد وثلاثين سنة ، وتملك سنتين وتسعة أشهر ، وأخذ نفسه الدنسة ، صاحبة ومعشوقة الشيطان ، ووضعها فى العمق الأقصى فى مكان العذاب حيث هيرودس هناك لكى يكونا معاً ؛ لأنهما كلاهما مكوك [هكذا] وأعداء المسيح . وأما جسده النجس فدفنوه أصحابه [١٥٧] ، لكن الأرض لم تقبله بل ألقته خارجاً ، فلما عاينوه أولئك ، ياله من عجب ، خافوا الرب خوفاً عظيماً . وبعد ذلك جمعوا جسده وأخلطوه مع أعضاء الحيوانات الميتة ودفنوهم ، وتزايد نتنهم ، حتى أن لم يقدر أحد بأن يقف هناك من نتانتهم ومن الدود الذى كان ينبع من جسده النجس . كمل ملك يوليانوس العاصى » .

---

(١٥٥) طقوسه السحرية .

(١٥٦) رجاؤه ، يقصد كل أمله .

(١٥٧) فقد دفنه أصحابه .



المصادر والمراجع

BIBLIOGRAPHY

أولاً : المخطوطات :

(١) المخطوطة ١٦٤٩ بدار الكتب المصرية بعنوان « يوليانوس العاصى » .

(٢) المخطوطة بعنوان « قوانين المجمع المسكونى الأول الملتئم فى نيقية » ، بمكتبة معهد الدراسات القبطية بالقاهرة .

ثانياً : المصادر والمراجع :

— Aberg, N., The Merovingian Empire, Stockholm, 1947.

— Augustine, St., De Civitate Dei, in P.L., Vol. 41. Eng. trans. by J. Healey, London, 1945.

— Aurelius, Marcus, Meditations, Eng. trans. by H. Mattingly.

— Badcock, F.J., The History of the Creeds, London, 1930.

— Baraclough, G., The Medieval Empire : Idea and Reality, London, 1950.

— Boissonade, P., Du Nauveau sur la Chanson de Roland, Paris, 1953.

— Burns, C.D., The First Europe, London, 1947.

— Bury, J.B., History of the Later Roman Empire, London, 1889.

— Calmette, J., Charlemagne : sa vie et son œuvre, Paris, 1945.

— Cambridge Medieval History, vols. i to iv.

— Cassiodorus, Variae (ed. Mommsen), in M.G.H., Auctores antiquissimi, vol. xii, 1894.

— Crump, C. and Jacob, E., (editors), The Legacy of the Middle Ages, Oxford, 1926.

— Dawson, C., The Making of Europe, London, 1939.

— Denzinger, H., Symlolorum, Friburgi Brisgoviae, 1911.

— Duchesne, A., Historia Francorum Scriptores (5 vols.), Paris, 1936-49.

— Duchesne, L., Liber Pontificalis (2 vols.), Paris, 1884-92. 3rd ed. C. Vogel, Paris, 1955-57.

— Dvornik, F., The Idea of Apostolicity in Byzantium and the Legend of the Apostle Andrew, Camb. Mass., 1938.

— Einhard, Vita Karoli Magni, in S.R.G., in usum Scholarum, Neudruck, 1947.

— Eusebius, The History of the Church from Christ to Constantine (Eng. trans. by G.A. Williamson. Penguin Books). Also P. Schaff's ed., A Select Library of Nicene and Post-Nicene Fathers of the Christian Church. 2nd ser. Vol. I.N.Y., 1890.

— Vita Constantini. (ed. I. Heikel,. Eusebius Werke. Leipzig, 1902). Schaff's ed. A Select Library ... Ibid.

— De Laudibus Constantini, ibid.

— Finlay, G., Greece under the Romans, London, 1907.

— Fletcher, C.R.L., The Making of Western Europe, Vol. I, London, 1912.

— Fliche, A. and Martin, A., Histoire de l'Eglise, Paris, 1950.

— Frend, W.H.C., The Donatist Church, London, 1952.

— Ganshof, F.L., The Imperial Coronation of Charlemagne : Theories and Facts, 1949.

— Gibbon, E., The History of The Decline and Fall of the Roman Empire. Ed. Bury, J.B. 7 vols. London, 1897-1902.

— Gotifredi Viterbiensis, Pantheon, in M.G.H.SS., vol. XXII.

— Graves, R., I, Claudius (Peng. Books).

— Gregory of Tours, Historia Francorum, in P.L., vol. 71. New Lat. ed. in M.G.H. 3 vols., 1951. (Trans. text by Dalton, O.M.).

— Gregorovius, F., History of the City of Rome in the Middle Ages (Hamilton's trans., London, 1909).

— Grousset, R., L'Empire de Steppes, Paris, 1939.

— Grumel, V., Le Patriarcat Byzantin, Paris, 1947.

— Hefele, K.J. von., Conciliengeschichte. 9 vols., Freiburg, 1873-95. In English: A History of the Councils of the Church. 5 vols. Edinburgh, 1876-96. In French : Histoire des Conciles. Ed. Leclercq, C. Paris, 1907-ff.

— Heyd, W., Histoire du Commerce du Levant au moyen âge. Leipzig, 1885. Reprint, 1936.

— Hodgkin, T., Italy and her Invaders, vol. I. 2nd ed., 1892.

— Hughes, P., A History of the Church, London, 1935.

— Hussey, J., Church and Learning in the Byzantine Empire 867-1185. London, 1937. The Byzantine World, London, 1957.

— Isidori, Hispalensis Episcopi. Chronica Majora. Ed. Migne, J.P., P.L., vol. 83.

— Jordanès, De origine actibusque Getarum (Th. Mommsen's ed. in M.G.H., V. I., 1882. (Getica).

— Julian the Apostate, Juliani Opera II. Epistolae. Ed. with Eng. trans. Wright, W.C., 3 vols. London, 1913-23.

— Ker, W.P., The Dark Ages, N.Y., 1958.

— Lactantius, De mortibus persecutorum, in P.L., vol. VII.

— Lecrivain, Le Senat Romain depuis Diocletien, Paris, 1884.

— Leff, G., Medieval Thought from St. Augustine to Ockham, London, 1958.

— Mansi, Sacrorum Conciliorum Amplissima Collectio, 31 vols., reprint, Paris and Leipzig, 1901-12.

— Marrou, H.I., Saint Augustin et la fin de la culture antique, Paris, 1938.

— Martin, E., J.A., A History of the Iconoclastic Controversy, London, 1932.

— Martianus Capella, De Nuptiis Philologiae et Mercurii (A. Dick's ed., 1925).

— Mierow, C.C., The Gothic History of Jordanes : (Eng. vers. 1915).

— Monumenta Germaniae Historica. Epistolarum. III-IV. Epistolae Merowingici et Karolini aevi. Ed. Dummler, E., Berlin, 1892-95.

— Monumenta Germaniae Historica Scriptores, ed. G. Pertz & Others, Hanover, 1826.

— Noldin, H., De praeceptis Dei et Ecclesiae, Rome, 1908.

— Ostrogorsky, G., History of the Byzantine State (trans. by J.M. Hussey, Oxford, 1956).

— Patrologia Latina, ed. J.P. Migne, 221 vols., Paris, 1844-55.

— Patrologia Graeco-Letina, ed. J.P. Migne, 161 vols. (in 166), Paris, 1857-66.

— Paulus Diaconus, Historia Longobardorum, in P.L., vol. 95.

— Plotinus, The Six Enneads, (trans. by S. Mackenna and B.S. Page), Series of Great Books of the Western World (Publ. William Bentom).
— Procopius, De bello Vandalico (Loeb's ed., 1914). Opera Omnia (ed. Haury, J., B.S.G.R.T., Munich, 1913). Eng. trans. Dewing, 7 vols. London and N.Y. 1914-40.
— Southern, R.W., The Making of the Middle Ages, London, 1953.
— Tacitus, On Britain and Germany (trans. by H. Mattingly. Peng. Classics).
— Thompson, E.A., A History of Attila and the Huns, Oxford, 1948.
— Toynbee, A., A Study of History (6 vols.), London, 1939.
— Trevelyan, G.M., History of England, London, 1926.
— Vasiliev, A.A., History of the Byzantine Empire (2 vols.), Hadison & Hilwaukee, 1964.
— Ware, T., The Orthodox Church, London, 1963.

Symbolum Nicaeno-Constantinopolitanum

Credo in unum Deum, Patrem omnipotentem, factorem coeli et terrae, visibilum et invisibilum. Et in unum Dominum Jesum Christum, Filium Dei unigenitum, ex Patre natum ante omnia saecula, Deum de Deo, lumen de lumine, Deum verum de Deo vero, genitum non factum, consubstantialem Patri, per quem omnia facta sunt; qui propter nos homines et propter nostram salutem descendit de coelis, et incarnatuus est de Spiritu Sancto ex Maria Virgine et homo factus est, crucifixus etiam pro nobis sub Pontio Pilato, passus et sepultus est, et resurrexit tertia die secundum scripturas et ascendit in coelum, sedet ad dexteram Patris, et iterum venturus est cum gloria, judicare vivos et mortuos, cujus regni non erit finis. Et in Spiritum Sanctum, Dominum et vivificantem, qui ex Patre (Filioque) procedit, qui cum Patre et Filio simul adoratur et conglorificatur, qui locutus est per prophetas. Et unam sanctam Catholicam et apostolicam ecclesiam. Confiteor unum baptisma in remissionem peccatorum, et exspecto resurrectionem mortuorum et vitam venturi saeculi. Amen.

Symbolum Quicumque quod vocatur Athanasianum

Quicumque vult salvus esse : ante omnia opus est ut teneat Catholicam fidem; quam nisi quis integram inviolatamque servaverit : absque dubio in aeternum peribit. Fides autem Catholica haec est: ut unum Deum in trinitate et Trinitatem in unitate veneremur, neque confudentes personas : neque substantiam separantes; alia est enim persona Patris, alia Filii : alia Spiritus Sancti; sed Patris et Filii et Spiritus Sancti una est divinitas : aequalis gloria, coaeterna majestas. Qualis Pater, talis Filius, et talis Spiritus Sanctus; increatus Pater, increatus Filius : increatus Spiritus Sanctus; immensus Pater, immensus Filius : immensus Spiritus Sanctus; aeternus Pater, aeternus Filius : aeternus Spiritus Sanctus; et tamen non tres aeterni : sed unus aeternus; sicut non tres increati, nec tres immensi : sed unus immensus et unus increatus.

Similiter omnipotens Pater, omnipotens Filius : omnipotens Spiritus Sanctus; et tamen non tres omnipotentes : sed unus omnipotens. Ita Deus Pater, Deus Filius : Deus Spiritus Sanctus; et tamen non tres dii : sed unus Deus. Ita Dominus Pater, Dominus Filius : Dominus Spiritus Sanctus; et tamen non tres domini; sed unus Dominus. Quia sicut singillatim unamquamque Personam et Deum et Dominum confiteri : Christiana veritate compellimur, ita tres deos aut tres dominos dicere : Catholica religione prohibemur.

Pater a nullo est factus : nec creatus nec genitus; Filius a Patre solo est : non factus nec creatus, sed genitus; Spiritus Sanctus a Patre et Filio : non factus nec creatus nec genitus, sed procedens. Unus ergo Pater, non tres patres; unus Filius, non tres filii : unus Spiritus Sanctus non tres spiritus sancti. In hac Trinitate nihil prius aut posterius : nihil majus aut minus,sed totae tres Personae ceaeternae sibi sunt : et coaequales. Ita ut per omnia, sicut jam supra dictum est : et Trinitas in Unitate et Unitas in Trinitate veneranda sit. Qui vult ergo salvus esse : ita de Trinitate sentiat.

Sed necessarium est ad aeternam salutem : ut incarnationem quoque Domini

nostri Jesu Christi fideliter credat. Est ergo fides recta ut credamus et confiteamur: quia Dominus noster Jesus Christus, Dei Filius, et Deus pariter et homo est.

Deus est, ex substantia Patris ante saecula genitus : et homo ex substantia matris in saeculo natus; perfectus Deus: perfectus homoe x anima rationabili et humana carne subsistens; aequalis Patri secundum deitatem : minor Patre secundum humanitatem; Qui licet Deus sit et homo: non duo tamen sed unus est Christus; unus autem non conversione divinitatis in carne: sed adsumptione humanitatis in Deo unns omnino, non confusione substantiae : sed unitate personae; nam sicut anima rotionabili et caro unus st homo : ita Deus et homo unus est Christus;

Qui passus est pro salute nostra: descendit ad inferos, resurrexit a mortuis, ascendit ad caelos, sedit ad dexteram Patris : inde venturus judicare vivos et mortuos. Ad cujus adventum omnes homines resurgere habent cum corporibus suis : et reddituri sunt de factis propriis rationem; et qui bona egerunt ibunt in vitam aeternam : qui mala in ignem aeternum.

Haec est fides catholica : quam nisi quis fideliter firmiterque crediderit, salvus esse non poterit.*

---

(1) This so-called Athanasian Creed was originally written in Latin, and cannot therefore be Athanasian, and it is not a Creed. (See F.J. Badcock, The History of the Creeds, London, 1930, p. 197).

Dom Morin, in Revue Bened. 1901, p. 339 says, "A mon avis le Quicumque est tout simplement une sorte de catéchisme élémentaire, destiné à mettre à la portée des esprits même les moins cultivés les formules dogmatiques .. touchant la Trinité et l'Incarnation : le tout avec un certain sens pratique, qui ne s'accure pas au même degré dans la plupart des anciennes professions de foi."

"The Quicumque Vult cannot, then, be earlier than the latter helf of the fourth century, and there is some probability that it is not later than the end of the fifth; we can say almost with certainty that it is not later than the sixth." (Badcock, op. cit., p. 198).

Edictum Constantini ad Silvestrum Papam*

In nomine sanctae et individuae Trinitatis, Patris, scilicet, et Filii, et Spiritus-sancti, imperator Caesar Flavius Constantinus, in Christo Jesu, uno ex eadem Trinitate sancta, salvatore Domino Deo nostro, fidelis, mansuetus, beneficus, Alemanicus, Gothicus, Sarmaticus, Germanicus, Britannicus, Hunnicus, pius, felix, victor ac triumphator, semper Augustus, sanctissimo ac beatissimo patri patrum Silvestro urbis Romanae episcopo et papae, atque omnibus ejus successoribus, qui in sede beati Petri usque in finem saeculi sessuri sunt, pontificibus, necnon et omnibus reverendissimis et Deo amabilibus catholicis episcopis, eidem sacrosanctae Romanae Ecclesiae per hanc nostram imperialem constitutionem subjectis in universo orbe terrarum, nunc et in posterum cunctis retro temporibus constitutis, gratia, pax, charitas, gaudium, longanimitas, misericordia a Deo patre omnipotente, et Jesu Christo Filio ejus, etSpiritu sancto cum omnibus vobis.

Ea quae salvator et redemptor noster Dominus Jesus Christus, altissimi Patris Filius, per suos sanctos apostolos Petrum et Paulum, interveniente patre nostro Silvestro summo pontifice et universali papa, mirabiliter dignatus est operari, liquida enarratione per hujus nostrae imperialis institutionis paginam, ad cognitionem omnium populorum in universo orbe terratum studuit propalare nostra mansuetissima serenitas. Primum quidem nostram fidem, quam a praelibato beatissimo patre et oratore nostro Silvestro universali pontifice docti sumus, intima cordis confessione ad instruendas omnium vestrum mentes proferentes, et ita demum Dei misericordiam super nos diffusam annuntiantes, nosse vos volumus, scient per anteriorem nostram sacram pragmaticam jussionem significavimus, nos a culturis idolorum, simulacris mutis et surdis, manufactis, diabolicis compositionibus, atque ab omnibus Satanae pompis recessisse, et ad integram

(1) P.L., Vol. 8, Cols. 567-78.

Christianorum fidem, quae est vera lux et vita perpetua, pervenisse; credentes, juxta id quod nos idem almificus et summus pater et doctor noster Silvester pontifex instruxit, in Deum Patrem omnipotentem, factorem coeli et terrae, visibilium omnium et invisibilium: et in Jesum Christum Filium ejus unigenitum, Dominum nostrum, per quem creata sunt omnia : et in Spiritum Sanctum, Dominum et vivificatorem universae creaturae. Hos, Patrem, et Filium, et Spiritum Sanctum, confitemur ita ut in Trinitate perfecta et plenitudo sit divinitatis, et unitas potestatis. Pater Deus, Filius Deus, et Spiritus Sanctus Deus, et tres unum sunt in Jesu Christo. Tres itaque formae, sed una potestas. Nam sapiens retro semper Deus edidit ex se, per quod semper erant gignenda saecula, verbum. Et quando eodem solo suae sapientiae verbo universam ex nihilo formavit creaturam, cum eo erat, cuncta suo arcano compenens mysterio... Haec est enim fides nostra catholica orthodoxa, a beatissimo patre nostro Silvestro summo pontifice nobis prolata ... Ipse enim Dominus noster, misertus mihi peccatori, misit sanctos suos apostolos ad visitandum nos, et lumen sui splendoris infulsit nobis, ut abstractum a tenebris, ad veram lucem et agnitionem veritatis me venisse gratularemini. Nam dum valida squaloris lepra totam mei corporis invasisset carnem, et multorum medicorum convenientium cura adhiberetur, nec ullius quidem cura promeruissemus salutem, ad hoc venerunt sacerdotes Capitolii, dicentes mihi debere fieri fontem in Capitolio, et compleri hunc innocentium sanguine et eo calente loto me, posse mundari. Et secundum eorum dicta, aggregatis plurimis innocentibus infantibus, dum vellent sacrilegi paganorum sacerdotes eos mactare, et ex eorum sanguine fontem repleri, cernens serenitas nostra lacrymas matrum eorum, illico exhorrui facinus : miseratusque eas, proprios illis restitui praecipimus filios suos, datisque vehiculis et donis concessis, gaudentes ad propria relaxavimus. Eadem igitur transacta die, nocturno nobis facto silentio, dum somni tempus advenisset, adsunt apostoli SS. Petrus et Paulus, dicentes mihi: quoniam flagitiis posuisti terminum, et effusionem sanguinis innocentis horruisti, missi sumus a Christo domino Deo nostro, dare tibi sanitatis recuperandae consilium. Audi ergo monita nostra, et fac quodcumque indicamus tibi : Silvester episcopus hujus civitatis ad montem Soracte persecutiones tuas fugiens, in cavernis petrarum cum suis clericis lateb-

ram fovet. Hunc ad te cum adduxeris, ipse tibi piscinam pietatis ostendet, in qua dum tertio te merserit, omnis te valetudo ista deseret leprae. Quod dum factum fuerit, hanc vicissitudinem tuo salvatori compensa, ut omnes jussu tuo per totum orbem restaurentur ecclesiae. Te autem ipsum in hac parte purifica ut relicta omni superstitione idolorum, Deum vivum et verum, qui solus est et verus, adores et excolas, ut ad ejus voluntatem attingas. Exurgens igitur a somno, protinus juxta id quod a sanctis apostolis admonitus sum, peregi : advocatoque eodem praecipuo et magnifico patre et illuminatore nostro Silvestro universali papa omnia a sanctis apostolis mihi praecepta dixi verba ... Lateranense; in uno cilicio, ut de omnibus quae a nobis impie peracta, atque injuste disposita fuerant, vigiliis jejuniis atque lacrymis et orationibus, apud Dominum Deum nostrum Jesum Christum salvatorem veniam impetraremus. Deinde per manus impositionem clericorum, usque ad ipsum praesulem veni. Ibique renuntians Satanae, pompis et operibus ejus, vel universis idolis manufactis, credere me in Deum Patrem omnipotentem, factorem coeli et terrae, visibilum omnium et invisibilium, et in Jesum Christum Filium ejus unicum Dominum nostrum, qui conceptus est de Spiritu Sancto, natus ex Maria virgine, spontanea voluntate coram omni populo professus sum. Benedictoque fonte, illic me trina mersione unda salutis purificavit. Positoque me in fontis gremio manu de coelo me contingentem propriis oculis vidi. De qua mundus exurgens, ab omni me leprae squalore mundatum agnoscite : levatoque me de venerabili fonte, induto vestibus candidis, septiformis gratiae Sancti Spiritus consignationem adhibuit beati chrismatis unctione, et vexillum sanctae crucis in mea fronte linivit, dicens : "Signet te Deus sigillo fidei suae, in nomine Patris, et Filii, et Spiritus Sancti, in consignatione fidei."

Cunctuque elrus respondit : "Amen." Et adjecit praesul : "Pax tibi." ...

Utile judicavimus una cum omnibus nostris satrapis, et universo senatu, optimatibusque meis, etiam et cuncto populo Romanae gloriae imperio subjacenti, ut sicut in terris sanctus Petrus vicarius filii Dei esse videtur constitutus, etiam et pontifices, qui successores sunt ipsius principis apostolorum, principatus potestanter, amplius quam terrena imperialis nostrae serenitatis mansuetudo

habere videtur, concessam a nobis nostroque imperio obtineant, eligentes nobis ipsum principem apostolorum, et ejus successores, firmos apud Deum esse patronos. Et sicut nostram, terrenam imperialem potentiam, sic ejus sacrosanctam Romanam ecclesiam decrevimus veneranter honorari et amplius quam nostrum imperium et terrenum thronum, sedem sacratissimam beati Petri gloriose exaltari, tribuentes ei potestatem et gloriae dignitatem atque vigorem et honorificentiam imperialem: atque decernentes sancimus, ut principatum teneat tam super quatuor praecipuas sedes, Antiochenam, Alexandrinam, Hierosolymitanam, et Constantinopolitanam, quamque etiam super omnes in universo orbe terrarum Dei ecclesias... Unde congruum prospeximus, nostrum imperium et regni potestatem in orientalibus transferri ac transmutari regionibus, et in Byzantiae provinciae optimo loco, nomini nostro civitatem aedificari, et nostrum illic constitui imperium...

Hujus vero imperialis decreti nostri paginam propriis manibus roborantes, super venerandum corpus beati Petri principis apostolorum posuimus, ibi eidem Dei apostolo spondentes, nos cuncta inviolabiliter conservare, et nostris successoribus imperatoribus conservanda in mendatis relinquere, ac beato patri nostro Silvestro summo pontifici et universali papae, ejusque cunctis successoribus pontificibus, Domino Deo et Salvatore nostro Jesu Christo annuente, tradimus perenniter atque feliciter possidenda.

Et subscriptio imperialis : Divinitas vos conservet per multos annos sanctissimi ac beatissimi patres. Datum Romae, sub tertio die Kalendarum Aprilium, domino nostro Flavio Constantino Augusto quater et Gallicano viris clarissimis consulibus."

Epistola B. Caroli Magni

ad Michaelem Imperatorem

De pace inter utrumque imperium Firmanda

(Anno 811.)

(Ex Froben. Opp. beati Alcuini)*

In nomine Patris, et Filii, et Spiritus Sancti, Carolus, divina largiente gratia, imperator et Augustus, idemque rex Francorum et Langobardorum, dilecto et honorabili fratri Michaeli glorioso imperatori et Augusto, aeternam in Domino nostro Jesu Christo salutem.

Benedicimus Dominum Jesum Christum verum Deum nostrum, et gratias illi, juxta virium possibilitatem et intelligentiae nostrae quantitatem, ex toto corde referimus, qui nos ineffabili dono benignitatis suae in tantum divites efficere dignatus est, ut in diebus nostris diu quaestiam, et semper desideratam pacem inter Orientale atque Occidentale imperium stabilire, et Ecclesiam suam catholicam sanctam et immaculatam, quae toto orbe diffusa est, juxta quotidianas ipsius postulationes sicut semper regere ac protegere, ita etiam nunc idem in nostro tempore adunare atque pacificare dignatus est. Quod adeo tanquam peractum dicimus, quia quidquid de hoc ex nostra parte faciendum fuit, fecimus; vosque similiter de vestra parte facere velle non dubitamus, fiduciam habentes in illo qui hoc opus, quod in manibus habemus, id est, pacem fieri praecepit, quia fidelis et verax est, et omni bene operanti cooperator existit; qui etiam a nobis bene inchoata ad perfectionem, ut confidimus, deducturus est.

Hujus perfectionis desiderio accensi praesentes legatos nostros Amalharium venerabilem Treverorum episcopum, et Petrum religiosum abbatem venerabilis monasterii sanctorum apostolorum ad tuae dilectae fraternitatis gloriosam praesentiam direximus, ut juxta quod fideles legati dilectae fraternitatis tuae

---

(*) P.L., Vol. 98, Cols. 931-32.

Michahel venerabilis metropolita, et Arsasius ac Theognastus gloriosi protospatharii nobiscum fecerunt, suscipiendo a nobis pacti conscriptionem, tam nostra propria, quam et sacerdotum et procerum nostrorum subscriptione firmatam ita et memorati legati nostri foederis conscriptionem tuam et sacerdotum, patriciorumque ac procerum tuorum subscriptionibus roboratam, a sacrosancto altari tuae manus porrectione suscipiant, et, Deo iter illorum prosperante, ad nos deferant, quia et ratio postulabat, et talis fuit nostra et legatorum tuorum convenientia, ut post profectionem illorum, cum primum opportunum navigandi tempus adveniret, legatos nostros ad tuae dilectae fraternitatis gloriosam praesentiam mitteremus, qui supradictam pacti sui foederis conscriptionem, te dante, susciperent, et nobis afferent.

Quapropter rogamus dilectam et gloriosam fraternitatem tuam, ut si tibi illa, quam nos fecimus et tibi misimus, pacti descriptio placuerit, similem illi Graecis litteris conscriptam, et eo modo quo superius diximus roboratam, missis nostris memoratis dare digneris, eosque, postquam ad te venerint, et a te, sicut in tua charitate est, fidimus benigne sucepti fuerint, absque non necessaria dilatione absolvere jubeas, ut de illorum reditu, et de tuae dilectae fraternitatis rescripto, Domino opitulante, gaudeamus, et tibi largitor omnium bonorum Deus digna recompensatione restituat, quod pacis, quam ille suos inter se habere praecepit, amator et confirmator esse certasti. Bene vale !

Extract from Edward Gibbon on Christianity*

As the happiness of a future life is the great object of religion, we may hear without surprise or scandal that the introduction, or at least the abuse of Christianity, had some influence on the decline and fall of the Roman Empire. The clergy successfully preached the doctrines of patience and pusillanimity; the active virtues of society were discouraged; and the last remains of military spirit were buried in the cloister : a large portion of public and private wealth was consecrated to the specious demands of charity and devotion; and the soldiers' pay was lavished on the useless multitudes of both sexes who could only plead the merits of abstinence and chastity. Faith, zeal, curiosity, and the more earthly passions of malice and ambition, kindled the flame of theological discord; the church, and even the state, were distracted by religious factions, whose conflicts were sometimes bloody and always implacable; the attention of the emperors was diverted from camps to synods; the Roman world was oppressed by a new species of tyranny; and the persecuted sects became the secret enemies of their country. Yet party-spirit, however pernicious or absurd, is a principle of union as well as of dissension. The bishops, from eighteen hundred pulpits, inculcated the duty of passive obedience to a lawful and orthodox sovereign; their frequent assemblies and perpetual correspondence maintained the communion of distant churches; and the benevolent temper of the Gospel was strengthened, though confined, by the spiritual alliance of the catholics. The sacred indolence of the monks was devoutly embraced by a servile and effeminate age; but if superstition had not afforded a decent retreat, the same vices would have tempted the unworthy Romans to desert, from baser motives, the standard of the republic. Religious precepts are easily obeyed which indulge and sanctify the natural inclinations of their votaries; but the pure and genuine influence of Christianity may be traced in its beneficial though imperfect, efforts on the barbarian proselytes of the North. If the decline of the Roman empire was hastened by the conversion of Constantine, his victorious religion broke the violence of the fall, and mollified the ferocious temper of the conquerors ...

(*) Gibbon, E., Decline and Fall, Ch. XXXVIII.

Extract from Arnold Toynbee
on
Barbarism and Religion*

The degree of Gibbon's hallucination is betrayed by the very title of his great work. "The History of the Decline and Fall of the Roman Empire"! The author of a history that bears this name is surely beginning his narrative at a point which is very near the end of the actual story; for the Roman Empire itself was a monumental symptom of the far-advanced decline of a Hellenic Society of which this empire was the universal state. When the whole story is taken into account, the rapid downfall of the Empire after the Antonine Age is seen to be not at all surprising. On the contrary, it would have been surprising if the Empire had endured; for this empire was already doomed before it was established. It was doomed because its establishment was nothing but a rally which could delay, but not permanently arrest, the already irretrievable ruin of a Hellenic Society which the Roman Empire temporarily embodied.

The breakdown and disintegration of the Hellenic Society itself is the story in which Gibbon would have found a subject altogether worthy of his genius; and if he had set himself to tell this longer tale from the beginning, he would have found that "the triumph of Barbarism and Religion" was not the plot of the play, but only an epilogue — not a cause of the breakdown, but only an inevitable accompaniment of the dissolution in which the long process of disintegration was bound to end. More than that, he would have found that the triumphant Church and Barbarians were not, after all, external powers, but were really children of the Hellenic household who had been morally alienated from the dominant minority of the Hellenic Society in the course of a "Time of

(*) A.J. Toynbee, A Study of History, The Cause of the Breakdown of Civilizations : "Saeva necessitas ? Loss of Command over the Environment ? Failure of Self-determination ?", Vol. IV, pp. 61. seq.

Troubles" which had intervened between a Periclean breakdown and an Augustan rally. In fact, if Gibbon had carried his inquest back to the true beginning of the tragedy, he would have had to return a different verdict. He would have had to report that the Hellenic Society was a suicide who had attempted to undo the fatal results of his own self-immolation when his life was already past saving, and who eventually received a "coup de grace" from his own mishandled and alienated children at a time when the Augustan rally had already given way to a third-century relapse and the patient was manifestly dying from the after-effects of his self old-inflicted wounds ...

The application to politics of Volney's* intuition that "la source de ses calamitès réside dans l'homme même" is anticipated in a passage of Saint Cyprian, in which the African Father applies the same truth to the entire field of social life.**

"You complain of the aggression of foreign enemies; yet, if the foreign enemy were to cease from troubling, would Roman really be able to live at peace with Roman (esse pax inter ipsas togas possit)? If the external danger of invasion by armed barbarians were to be stamped out, should we not be exposed to a fiercer and a heavier civil bombardment, on the home front, in the shape of calumnies and injuries inflicted by the powerful upon their weaker fellow citizens ? You complain of crop-failures and famine; yet the greatest famines are made not by drought but by rapacity, and the most flagrant distress springs from profiteering and price-raising in the corn-trade. You complain that the clouds do not disgorge their rain in the sky, and you ignore the barns that fail to disgorge their grain on terra firma. You complain of the fall [in production, and ignore the failure to distribute what is actually produced to those who are in need of it. You denounce plague and pestilence, while really the effect of these scourges is to bring to light, or bring to a head, the crimes of human beings : the callousness that shows no pity for the sick, and the covetousness and rapine that are in full cry after the property of the dead."

(*) Volney, C.F.: "Les Ruines, Paris, 1876 (in Oeuvres Complétes).

(**) Toynbee, op. cit., pp. 121-22.

(***) Thascius Caecilius Cyprianus: Ad Demetrianum, Chap. 10. (Toynbee, n. 1., p. 122).

الجداول الزمنية

بابوات

البابا	السنوات
كلمنس الأول	٩٠ — ٩٩
أفارستوس	٩٩ — ١٠٧
إسكندر	١٠٧ — ١١٦
سكستوس	١١٦ — ١٢٥
تلسفوروس	١٢٥ — ١٣٦
هجينوس	١٣٦ — ١٤٠
بيوس الأول	١٤٠ — ١٥٤
انكيتوس	١٥٤ — ١٦٥
سوتير	١٦٥ — ١٧٤
اليوثيروس	١٧٤ — ١٨٩
فكتور	١٨٩ — ١٩٨
زفرينيوس	١٩٨ — ٢١٧
كالستوس	٢١٧ — ٢٢٢
أوربانوس	٢٢٢ — ٢٣٠
بونتيانوس	٢٣٠ — ٢٣٥
انتيروس	٢٣٥ — ٢٣٦
فابيانوس	٢٣٦ — ٢٥٠
كورنليوس الأول	٢٥١ — ٢٥٣
لوسيوس الأول	٢٥٣ — ٢٥٤
ستيفانوس الأول	٢٥٤ — ٢٥٧
سكستوس الثانى	٢٥٨
ديونسيوس	٢٥٩ — ٢٦٨
فيلكس الأول	٢٦٩ — ٢٧٤
يوطخيانوس	٢٧٥ — ٢٨٣
قايوس	٢٨٣ — ٢٩٦
مارسلينوس	٢٩٦ — ٣٠٤
مارسلوس	٣٠٨ — ٣٠٩
يوسبيوس	٣٠٩
ملتيادس	٣١١ — ٣١٤
سلفستر الأول	٣١٤ — ٣٣٥
ماركوس	٣٣٦
يوليوس الأول	٣٣٧ — ٣٥٢
ليبريوس	٣٥٢ — ٣٦٦
دماسوس الأول	٣٦٦ — ٣٨٤
سريكيوس	٣٨٤ — ٣٩٨
أناستاسيوس الأول	٣٩٨ — ٤٠١
أنوسنت الأول	٤٠١ — ٤١٧
زوزيموس	٤١٧ — ٤١٨
بونيفاس الأول	٤١٨ — ٤٢٢
كولستينوس الأول	٤٢٢ — ٤٣٢
سيكستوس الثالث	٤٣٢ — ٤٤٠
ليو الأول العظيم	٤٤٠ — ٤٦١
هيلاريوس	٤٦١ — ٤٦٨
سمبليكيوس	٤٦٨ — ٤٨٣
فيلكس الثانى	٤٨٣ — ٤٩٢
جيلازيوس الأول	٤٩٢ — ٤٩٦
أناستاسيوس الثانى	٤٩٦ — ٤٩٨
سياخوس	٤٩٨ — ٥١٤
هورمزداس	٥١٤ — ٥٢٣
يوحنا الأول	٥٢٣ — ٥٢٦
فيلكس الثالث	٥٢٦ — ٥٣٠
بونيفاس الثانى	٥٣٠ — ٥٣٢
يوحنا الثانى	٥٣٣ — ٥٣٥
أغابيتوس الأول	٥٣٥ — ٥٣٦
سلفريوس	٥٣٦ — ٥٤٠
فيجيليوس	٥٤٠ — ٥٥٥
بيلاجيوس الأول	٥٥٦ — ٥٦١
يوحنا الثالث	٥٦١ — ٥٧٤
بندكت الأول	٥٧٥ — ٥٧٩
بيلاجيوس الثانى	٥٧٩ — ٥٩٠
جريجورى الأول العظيم	٥٩٠ — ٦٠٤
سابنيانوس	٦٠٤ — ٦٠٦
بونيفاس الثالث	٦٠٧
بونيفاس الرابع	٦٠٨ — ٦١٥
ديوس ديدت	٦١٥ — ٦١٨
بونيفاس الخامس	٦١٩ — ٦٢٥
هونوريوس الأول	٦٢٥ — ٦٣٨
سفرنيوس	٦٤٠

يوحنا الرابع	٦٤٠ — ٦٤٢
ثيودوروس الأول	٦٤٢ — ٦٤٩
مارتينوس الأول	٦٤٩ — ٦٥٣
يوجين الأول	٦٥٤ — ٦٥٧
فيتاليانوس	٦٥٧ — ٦٧٢
أديوداتوس	٦٧٢ — ٦٧٦
دونوس	٦٧٦ — ٦٧٨
أغاثيو	٦٧٨ — ٦٨١
ليو الثانى	٦٨٢ — ٦٨٣
بندكت الثانى	٦٨٤ — ٦٨٥
يوحنا الخامس	٦٨٥ — ٦٨٦
قونون	٦٨٦ — ٦٨٧
سرجيوس الأول	٦٨٧ — ٧٠١
يوحنا السادس	٧٠١ — ٧٠٥
يوحنا السابع	٧٠٥ — ٧٠٧
زيزينيوس	٧٠٨

قنسطنطين الأول	٧٠٨ — ٧١٥
جريجورى الثانى	٧١٥ — ٧٣١
جريجورى الثالث	٧٣١ — ٧٤١
زكريا	٧٤١ — ٧٥٢
ستيفن الثانى	٧٥٢
ستيفن الثالث	٧٥٢ — ٧٥٧
بولس الأول	٧٥٧ — ٧٦٧
ستيفن الرابع	٧٦٨ — ٧٧٢
هادريان الأول	٧٧٢ — ٧٩٥
ليو الثالث	٧٩٥ — ٨١٦
ستيفن الخامس	٨١٦ — ٨١٧
باسكال الأول	٨١٧ — ٨٢٤
يوجين الثانى	٨٢٤ — ٨٢٧
فالنتينوس	٨٢٧
جريجورى الرابع	٨٢٨ — ٨٤٤
سرجيوس الثانى	٨٤٤ — ٨٤٧
ليو الرابع	٨٤٧ — ٨٥٥

أباطرة

أغسطس	٢٧ق. م — ١٤ م
طيبريوس	١٤ — ٣٧
جايوس	٣٧ — ٤١
كلوديوس	٤١ — ٥٤
نيرون	٥٤ — ٦٨
جالبا	٦٨ — ٦٩
أوتو	٦٩
فتليوس	٦٩
فسباسيان	٦٩ — ٧٩
تيتوس	٧٩ — ٨١
دوميتيان	٨١ — ٩٦
نيرفا	٩٦ — ٩٨

تراجان	٩٨ — ١١٧
هادريان	١١٧ — ١٣٨
أنتونينوس بيوس	١٣٨ — ١٦١
ماركوس أوريليوس	١٦١ — ١٨٠
كومودوس	١٨٠ — ١٩٢
برتيناكس	١٩٣
سبتيموس سفيروس	١٩٣ — ٢١١
أنتونينوس	٢١١ — ٢١٧
ماكرينوس	٢١٧ — ٢١٨
أنتونينوس (الجابالوس)	٢١٨ — ٢٢٢
سفيروس الكسندر	٢٢٢ — ٢٣٥
ماكسمينوس تراكس	٢٣٥ — ٢٣٨

جورديان الأول	٢٣٨
جورديان الثانى	٢٣٨
جورديان الثالث	٢٣٨ — ٢٤٤
فيليب العربى	٢٤٤ — ٢٤٩
دكيوس	٢٤٩ — ٢٥١
تربونيانوس جاللوس	٢٥١ — ٢٥٣
فالريان	٢٥٣ — ٢٦٠
جالينوس	٢٦٠ — ٢٦٨
كلوديوس الثانى	٢٦٨ — ٢٧٠
أورليان	٢٧٠ — ٢٧٥
تاكيتوس	٢٧٥ — ٢٧٦
بروبوس	٢٧٦ — ٢٨٢
كاروس	٢٨٢ — ٢٨٣
كارينوس	٢٨٣ — ٢٨٤
دقلديانوس	٢٨٤ — ٣٠٥
ماكسيميان	٢٨٦ — ٣٠٥
جاليريوس	٣٠٥ — ٣١١
(بالاشتراك مع قنسطنطيوس كلوروس ، سفيروس الثانى ، ليسينيوس ، قنسطنطين الأول ، ماكسمينوس دازا) »	
قنسطنطين الأول	٣١١ — ٣٢٤
(بالاشتراك مع ليسينيوس)	
قنسطنطين الأول	٣٢٤ — ٣٣٧
قنسطنطين الثانى	
قنسطنطيوس الثانى	٣٣٧ — ٣٤٠
تنسطانز	
قنسطنطيوس الثانى	
قنسطانز	٣٤٠ — ٣٥٠
قنسطنطيوس الثانى	٣٥٠ — ٣٦١
جوليان	٣٦١ — ٣٦٣
جوفيان	٣٦٣ — ٣٦٤
ڤالنتينيان الأول	
ڤالنس •	٣٦٤ — ٣٧٥
جراتيان	
ڤالنس	
جراتيان	٣٧٥ — ٣٧٨
ڤالنتينيان الثانى	
ثيودوسيوس الأول	٣٧٨ — ٣٩٥
عام	٣٩٥
تقسيم الإمبراطورية إلى قسمين غربى وشرقى .	

أباطرة الغرب بعد عام ٣٩٥

هونوريوس	٣٩٥ — ٤٢٣
ڤالنتينيان الثالث	٤٢٥ — ٤٥٥
بترونيوس ماكسيموس	٤٥٥
أڤيتوس	٤٥٥ — ٤٥٦
ماجوريان	٤٥٧ — ٤٦١
لبيوس سفيروس	٤٦١ — ٤٦٥
أنتيميوس	٤٦٧ — ٤٧٢
أولبريوس	٤٧٢
جليكريوس	٤٧٣ — ٤٧٤
يوليوس نيبوس	٤٧٤ — ٤٧٥
روميلوس أغسطيولوس	٤٧٥ — ٤٧٦

نهاية الإمبراطورية فى الغرب
على يد أودواكر المتبربر

أباطرة القسطنطينية

أسرة ثيودوسيوس

أركاديوس	٣٩٥ — ٤٠٨
ثيودوسيوس الثانى	٤٠٨ — ٤٥٠
مرقيان	٤٥٠ — ٤٥٧

أسرة ليو

ليو الأول	٤٥٧ — ٤٧٤
ليو الثانى	٤٧٤
زينو	٤٧٤ — ٤٩١
أناستاسيوس	٤٩١ — ٥١٨

أسرة جستنيان

جستن الأول	٥١٨ — ٥٢٧
جستنيان الأول	٥٢٧ — ٥٦٥
جستن الثانى	٥٦٥ — ٥٧٨
طيبيريوس الثانى	٥٧٨ — ٥٨٢
موريس	٥٨٢ — ٦٠٢
فوقاس	٦٠٢ — ٦١٠

أسرة هرقل

هرقل	٦١٠ — ٦٤١
قنسطانز الثانى	٦٤١ — ٦٦٨
قنسطنطين الرابع	٦٦٨ — ٦٨٥
جستينيان الثانى	٦٨٥ — ٦٩٥
ليونتيوس	٦٩٥ — ٦٩٨
طيبيريوس الثالث	٦٩٨ — ٧٠٥
جستينيان الثانى (عودة للحكم)	٧٠٥ — ٧١١
باردانيس	٧١١ — ٧١٣
أناستاسيوس الثانى	٧١٣ — ٧١٦
ثيودوسيوس الثالث	٧١٦ — ٧١٧

الأسرة السورية

ليو الثالث	٧١٧ — ٧٤١
قنسطنطين الخامس	٧٤١ — ٧٧٥
قنسطنطين السادس	٧٨٠ — ٧٩٧
نقفور الأول	٨٠٢ — ٨١١
ستراوراكيوس	٨١١
ميخائيل الأول	٨١١ — ٨١٣
ليو الخامس	٨١٣ — ٨٢٠

الإمبراطورية الرومانية المتجددة فى الغرب

شرلمان	٨٠٠ — ٨١٤
لويس التقى	٨١٤ — ٨٤٠
لوثير الأول	٨٤٠ — ٨٥٥
لويس الثانى	٨٥٥ — ٨٧٥
شارل الثانى الأصلع	٨٧٥ — ٨٧٧
شارل الثالث السمين	٨٨١ — ٨٨٧
جاى من سپولتو	٨٩١ — ٨٩٤
لامبرت من سپولتو	٨٩٤ — ٨٩٨
ارنولف من كارنثيا	٨٩٦ — ٨٩٩

الملوك القوط الشرقيون

ثيودوريك	٤٩٣ — ٥٢٦
آتالاريك	٥٢٦ — ٥٣٤
ثيودوهاد	٥٣٤ — ٥٣٦
ڤيتجيز	٥٣٦ — ٥٤٠
هلدبياد	٥٤٠ — ٥٤١
أراريك	٥٤١
توتيلا	٥٤١ — ٥٥٣
تيا	٥٥٣

ملوك التندال

جيزريك	٤٣٩ — ٤٧٧
هونريك	٤٧٧ — ٤٨٤
جونتاموند	٤٨٤ — ٤٩٦
ترازاموند	٤٩٦ — ٥٢٣
هلدريك	٥٢٣ — ٥٣١
جلمير	٥٣١ — ٥٣٤

الملوك القوط الغربيون

يوريك	٤٦٦ — ٤٨٤
آلاريك الثانى	٤٨٤ — ٥٠٧
ثيودوريك	
وآمالارك	٥٠٦ — ٥٢٦
آمالارك (بمفرده)	٥٢٦ — ٥٣١
ثيودس	٥٣١ — ٥٤٨
ثيودجيزل	٥٤٨ — ٥٤٩
آجيلا	٥٤٩ — ٥٥٤
آثاناجلد	٥٥٤ — ٥٦٧
ليوفا الأول	٥٦٨ — ٥٧٢
ليوفجلد	٥٦٨ — ٥٨٦
ريكارد الأول	٥٨٦ — ٦٠١
ليوفا الثانى	٦٠١ — ٦٠٣
ويترخ	٦٠٣ — ٦١٠
جوندمار	٦١٠ — ٦١٢
سيزبوت	٦١٢ — ٦٢١
ريكارد الثانى	٦٢١
سونزيلا	٦٢١ — ٦٣١
سيزناند	٦٣١ — ٦٣٦
شنتيلا	٦٣٦ — ٦٤٠
تولجا	٦٤٠ — ٦٤٢
شنداز ونث	٦٤٢ — ٦٥٢
ريكزونث	٦٥٣ — ٦٧٢
ڤامبا	٦٧٢ — ٦٨٠
أرڤيج	٦٨٠ — ٦٨٧
أجيكا	٦٨٧ — ٧٠١
ڤيتيزا	٧٠١ — ٧٠٩
رودريك (لزريق)	٧٠٩ — ٧١١

الملوك اللومبارد

البوين	٥٦٨ — ٥٧٢
كليف	٥٧٢ — ٥٧٤
أوتارى	٥٨٤ — ٥٩٠
أجيلولف	٥٩٠ — ٦١٦
أدالوالد	٦١٦ — ٦٢٦
أريوالد	٦٢٦ — ٦٣٦
روتارى	٦٣٦ — ٦٥٢
رودوالد	٦٥٢
أربرت الأول	٦٥٢ — ٦٦١
جودبرت	
بركتارت	٦٦١ — ٦٦٢
جرموالد	٦٦٢ — ٦٧١
بركتارت (ثانية)	٦٧١ — ٦٨٨
كونبرت	٦٨٨ — ٧٠٠
لوتبرت	٧٠٠
أربرت الثانى	٧٠٠ — ٧١٢
أنسبراند	٧١٢
ليتوبراند	٧١٣ — ٧٤٤
هلدبراند	٧٤٤
راتكيز	٧٤٤ — ٧٤٩
استولف	٧٤٩ — ٧٥٦
دزدريوس	٧٥٦ — ٧٧٤

مطابع دار المعارف بمصر
سنة ١٩٧٢

